الأكثر مبيعاً 1 في أمريكا

دانيال ستيل

DANIELLE STEEL

44 شارع تشارلز

44 CHARLES STREET

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

اقرأ أيضاً لدانيال ستيل

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ISBN 978-614-01-0840-0
9 786140 108400

يضم هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

44 CHARLES STREET

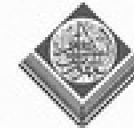
حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من المؤلفة

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينها وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

ردمك 978-614-01-0840-0

الطبعة الأولى

1434 هـ – 2013 م



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت – هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

الفصل الأول

جلست فرانشيسكا ثاير أمام مكتبها، تراجع الأرقام للمرة الألف خلال الشهرين الماضيين؛ إلى أن بدأت الأرقام تصبح ضبابية أمام عينيها. لقد أمضت عطلة نهاية الأسبوع كلها وهي تحاول استيعابها. لكنها كانت تصل دوماً إلى النتيجة نفسها. كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، وكان شعرها الأشقر الطويل المموج متشابكاً بصورة فوضوية عندما مررت يديها عبر خصلاته بطريقة لاواعية. إنها تحاول إنقاذ عملها ومنزلها، ولم تستطع التوصل إلى حلّ. انقبضت معدتها حين فكّرت في احتمال خسارة الاثنين معاً.

لقد أسست فرانشيسكا عملها مع تود قبل أربعة أعوام. فقد افتتحا معرضاً فنياً في ويست فيلاج في نيويورك حيث تخصصا في عرض أعمال الفنانين الصاعدين بأسعار معقولة جداً. وقد التزمت التزاماً عميقاً بالفنانين الذين تمثلهم. كانت لديها خبرة في مجال الفن، بعكس تود. فقد سبق لها أن تولت إدارة معرضين فنيين في السابق، الأول في أعلى المدينة بعد تخرجها مباشرة، والثاني في تريبيكا. لكن هذا المعرض كان حلمها. إنها تحمل شهادة في الفنون الجميلة، ووالدها فنان معروف أصاب نجاحاً كبيراً في السنوات الأخيرة، والمعرض الفني الذي تشاركته مع تود حظي بإشادات ممتازة. كان تود مولعاً بجمع الأعمال الفنية المعاصرة، ورأى أن مساعدتها في تأسيس المعرض الفني قد تكون ممتعة. ففي ذلك الوقت، كان قد شعر بالتعب والسأم من عمله كمحامٍ في وول ستريت، وتصوّر أن مدخراته ستتيح له التوقف عن العمل لبضع سنوات. الجدوى الاقتصادية التي وضعها للمشروع أظهرت

أنهما سيحققان الربح خلال ثلاث سنوات. لم يأخذ في الحسبان أبداً شغف فرانشيسكا في الأعمال الفنية غير الباهظة الثمن لفنانين غير معروفين، ومساعدتهم قدر الإمكان، ولم يدرك أبداً أن هدفها الرئيس من المعرض هو الفن للفن بالدرجة الأولى. فقد كانت بعكسه تتوق للنجاح الفني أكثر من النجاح المالي. لقد سعت فرانشيسكا من خلال المعرض إلى أن تبدو راعية للفنانين والفن، بينما سعى تود إلى مشروع تجاري يستطيع التكسب منه، وظن أن هذا المشروع سيكسر رتابة عمله في مجال الضرائب والعقارات لصالح شركة قانونية مهمة. لكنه يقول الآن إنه سئم الاستماع إلى الفنانين التعساء، ومشاهدة مدخراته تتبخر تدريجياً. لم يعد الأمر ممتعاً برأيه. إنه في الأربعين من عمره، وأراد جني المال مجدداً. وعندما تحدث معها في هذا الموضوع، كان قد حصل أصلاً على وظيفة في إحدى شركات وول ستريت، وعدوه بالدخول معهم في شراكة خلال سنة، ورأى في هذا الوعد خشبة الخلاص من مهنة بيع الأعمال الفنية التي كانت تغرقه مالياً.

أرادت فرانشيسكا الاستمرار في العمل وإنجاح المعرض الفني، مهما كلّف الأمر. لكن خلال العام الماضي، شهدت علاقتهما الكثير من الاضطرابات، مما جعل عملهما المشترك أقل حماسة بالنسبة إليه. تجادلا حول كل شيء، حول ما يفعلانه، ومن يقابلان، وما يجب فعله في المعرض الفني. كانت مسؤولية فرانشيسكا في المعرض العثور على الفنانين، والعمل معهم، وإقامة المعارض، أما تود فاستلم الأمور المالية ودفع الفواتير.

التقت فرانشيسكا تود عندما كانت في الثلاثين من عمرها، ويصعب عليها التصديق أن علاقة بدت متينة جداً يمكن أن تنهار بالكامل خلال عام. لم يرغبا أبداً في الزواج من قبل، لكنهما اختلفا الآن على هذه المسألة. عندما أصبح تود في الأربعين، قرر فجأة أنه يريد حياة تقليدية. بدا له الزواج جيداً ولم يعد يريد الانتظار أكثر لإنجاب الأولاد. في الخامسة والثلاثين، لا تزال ترغب في ما أرادته عندما التقيا قبل خمسة أعوام. لقد تحدثا عن إمكان إنجاب الأطفال يوماً ما، لكنها أرادت إنجاح المعرض الفني أولاً. كانت

فرانشيسكا صادقة جداً معه وصريحة بشأن الزواج عندما التقيا، وأوضحت له أنها لا توافقه الرأي. فقد شهدت طوال حياتها هوس أمها في الزواج، ورأتها وهي تفشل فيه خمس مرات. أمضت فرانشيسكا كل حياتها وهي تحاول أن تتجنّب أخطاء والدتها. لطالما كانت أمها مصدر إحراج بالنسبة إليها. ولا ترغب أبداً في تكرار تجربتها الآن.

كان طلاق والدي فرانشيسكا عندما كانت في السادسة. شاهدت أيضاً والدها الوسيم والجذاب وغير المسؤول ينخرط في علاقات عابرة، مع نساء صغيرات جداً عادة لا يبقين في حياته لأكثر من ستة أشهر. ترافق ذلك مع هوس أمها في الزواج، مما جعل فرانشيسكا تخشى الارتباط إلى أن التقت بتود. أما تود فقد أحجم عن الزواج، بعدما رأى المرارة التي ترافقت مع طلاق والديه عندما كان في الرابعة عشرة. كان رفضهما فكرة الزواج قاسماً مشتركاً بينهما، لكن يبدو أن الأمور تتغير مع تود الآن، فهو لم يعد يرى في الزواج تلك المؤسسة الفاشلة، لقد أخبر فرانشيسكا مؤخراً أنه سئم من عبثية الأشخاص الذين لا يرون ضيراً في إنجاب الأولاد خارج إطار الزوجية. ما إن أطفأ تود شمعات قالب الحلوى يوم ذكرى مولده الأربعين حتى تغيير كل شيء، وكأن أحدهم قد ضغط على زر ما، فإذا بتود يصبح شخصاً آخر، بدا تقليدياً بالنسبة إليها. إلا أنها فضلت بقاء الأمور على ما كانت عليه سابقاً.

فجأة، في الأشهر الأخيرة، بدا أن كل أصدقاء تود يعيشون في أعلى المدينة. راح يتذمر من ويست فيلاج حيث يعيشان، علماً أنها تحب هذا المكان. رأى أن القذارة تطغى على المنطقة والناس هنا. ولزيادة الأمور تعقيداً، وبعد فترة وجيزة من افتتاح المعرض الفني، وبينما كانا يتجولان في المدينة بعد ظهر أحد الأيام المثلجة أعجبهما منزل يحتاج إلى الكثير من الترميم، وتحمسا فوراً لشرائه، فحصلا عليه بسعر مغرٍ. قاما بترميمه معاً، وأنجزا معظم الأعمال بنفسيهما. فعندما لا يكونان في المعرض يكونان مشغولين في ترميم المنزل. وخلال سنة واحدة، أعادا المنزل إلى سابق عهده. اشتريا المفروشات من السوق الخيرية، وحوّلاه شيئاً فشيئاً إلى منزل

أحلامهما. إلا أن تود يشكو الآن من أنه أمضى الأعوام الأربعة الماضية من عمره وهو مستلقٍ تحت حوض تنظيف أطباق راشح أو ينجز التصليحات. أراد منزلاً عصرياً حيث ينجز الآخرون كل الأعمال. كافحت فرانشيسكا بقوة للإبقاء على عملهما والمنزل بالرغم من فشل علاقتهما، أرادت الاحتفاظ بهما، لكنها لا تعرف كيف. فبرأيها، خسارة تود بمفرده مؤسفة، فكيف ستكون الحال إذا أضيفت إليها خسارة المعرض والمنزل؟

جربا كل ما بوسعهما لإنقاذ العلاقة، ولكن من دون جدوى. استشار كل منهما بمفرده اختصاصياً نفسياً وحصلا على استشارة نفسية معاً، وابتعدا عن بعضهما مدة شهرين علّ النفوس تهدأ، وتكلما مع بعضهما حتى انتهى الكلام؛ في محاولة لإصلاح ذات البين، وقدّم كل منهما تنازلات كبيرة لصالح الآخر؛ لكن الفجوة بينهما كانت كبيرة، فهو أراد إغلاق المعرض والزواج، أما هي فلا تزال ترى في الزواج فكرة مرعبة لم ترغب بها وربما لن ترغب بها على الإطلاق، ورأت أن إقفال المعرض ضربة في الصميم لطموحاتها. يبدو أن الاختلافات بينهما طفت على السطح فجأة، فهي رأت أن أصدقاءه مملّون، فيما رأى أصدقاءها محدودين ومبتذلين وذوي ميول يسارية.

أمضيا الصيف الماضي منفصلين، وفعلا أشياء مختلفة. فبدل الإبحار في ماين مثلما كانا يفعلان عادة، أمضت هي ثلاثة أسابيع في مخيم للفنانين، فيما هو سافر إلى أوروبا مع أصدقائه، وأمضى عطلات نهاية الأسبوع في الهامبتون. بحلول شهر سبتمبر، بعد عام كامل على بدء الخلاف، عرفا أن الوضع ميئوس منه، واتفقا على الانفصال. لكن ما لم يتوصلا إلى اتفاق بشأنه هو ما يجب فعله بشأن المعرض الفني والمنزل. لقد وضعت كل ما تملكه وما استطاعت تجميعه في حصتها من المنزل، وإذا أرادت الآن الاحتفاظ به، يتوقع منها أن تشتري حصته، وإلا فالبيع هو الحل الوحيد المتاح، كانت مطالبه محقة وعادلة. لكن المشكلة تكمن في أنها لا تملك المبلغ اللازم. أراد تود بيع المنزل بحلول نهاية العام، أو الحصول على ثمن حصته. وأراد الانسحاب من مشروع العمل المشترك أيضاً. لا يزال

يساعدها في عطلات نهاية الأسبوع حين يملك الوقت، ولكن من دون أي شغف على الإطلاق، لقد باتت الأمور بينهما صعبة، فهما يعيشان تحت سقف واحد رغم نهاية علاقتهما. يبدو أن العلاقة العاطفية بينهما ذهبت إلى غير رجعة، وكان يمضي عطلات نهاية الأسبوع مع أصدقائه كلما أمكن. غضبت فرانشيسكا لفشل علاقتهما، لكن موضوع المنزل والمعرض شكّلا ضغطاً كبيراً عليها. إنها تتذوق طعم الهزيمة، ولذلك كرهت كل شيء.

عرفت فرانشيسكا رأي أمها بالموضوع سلفاً. فقد عارضت منذ البدء دخول ابنتها بشراكة عمل وملكية مشتركة مع رجل تحبه لكنها لا تنوي الزواج منه. رأت والدتها أن الجمع بين العمل والعلاقة العاطفية وصفة أكيدة للفشل. فقد سألتها أمها وهي الخبيرة بالعلاقات الزوجية والعاطفية الفاشلة: "كيف ستتدبران أمركما عندما تنفصلان؟". فقد كانت ترى بوضوح ما ستؤول إليه. "كيف ستعالجين المسائل، من دون نفقة أو تسوية على المسكن؟" فقد كانت والدتها ترى عن خبرة سابقة أن أي علاقة لا يجب أن تبنى على دمج الملكيات بين الشريكين سواء كانا متزوجين أم لا، بل يجب أن يقدم الشريك الذكر مبلغاً عند بدء العلاقة، ويقوم بدعم شريكته أو زوجته بعد الانفصال، فبرأيها، الأنثى يجب أن تكون كالمنشار رابحة سواء استمرت العلاقة أم انتهت.

أجابتها فرانشيسكا: "سنعالج المسائل برقي واحترام كما حصل معك أمي في كل طلاقاتك، فمع محامين جيدين، نستطيع إيجاد حل لأسوأ السيناريوهات".

لقد كانت والدتها مثالاً للزوجات اللواتي يعرفن من أين تؤكل الكتف، فقد انفصلت عن كل أزواجها وأبقت علاقتها بهم جيدة، فهم جميعاً لا يزالون يحبونها، وهي تعيش حياة رغيدة بسببهم. فتاليا هاميش أندرس ثاير جونسون دي سان جيوفاني كانت امرأة جميلة، وأنيقة، ومدللة، وجذابة، ومجنونة قليلاً وفق معايير معظم الأشخاص، فهي كانت على ثقة بأن مفتاح الفوز بلعبة الحياة هو معرفة قواعد اللعبة. عندما تريد فرانشيسكا وصف والدتها بلطف

تطلق عليها لقب الحرباء. لقد شكّلت لها على الدوام مصدر إحراج، فقد كانت عروساً على الدوام. لقد تزوجت من ثلاثة أميركيين وأوروبيين. الزوجان الأوروبيان، الأول بريطاني والثاني إيطالي، كانا من أصحاب الألقاب. لقد طلقت أربع مرات وترملت في زواجها الخامس. أزواجها على التوالي كانوا: كاتباً ناجحاً جداً، ووالد فرانشيسكا الفنان، وسليل أسرة مصرفية بريطانية مشهورة، ومالك عقارات في تكساس جعلها في وضع ميسور مع مبلغ كبير من المال ومركزين كبيرين للتسوق، مما سمح لها بالزواج من آخر أزواجها الكونت الإيطالي المفلس، وإنما الجذاب جداً، إلا أن حادثاً مروعاً أودى بحياته بعد ثمانية أشهر من الزواج، وبالتالي لم تستطع والدتها من وضعه على لائحة مطلقيها وبالتالي لم تغنم منه فلساً واحداً.

ترى فرانشيسكا أن أمها امرأة من كوكب آخر، فبرأيها تختلف أمها عن كل نساء الأرض، وبالتالي تختلف عنها هي بالذات فما من قاسم مشترك بينهما، توقعت ما ستقوله لها أمها الآن عندما تخبرها أن العلاقة انتهت: "ألم أنبهك يا ابنتي منذ البداية". علماً أن فرانشيسكا لا تملك في الوقت الحاضر الشجاعة للوقوف أمام والدتها وإخبارها بأنها كانت محقة عندما أسدت لها النصيحة.

لم تعرض عليها أمها المساعدة عندما اشترت المنزل وافتتحت المعرض الفني، ولذلك عرفت أنها لن تساعدها الآن. فقد رأت أن المنزل هو بمثابة استثمار غير ذكي، ولم تحب المنطقة التي يقع فيها، وتماماً مثل تود، ستنصح فرانشيسكا ببيعه. إذا باعاه، سيحققان ربحاً. لكن فرانشيسكا لا تريد المال، وإنما تريد المنزل، وهي واثقة بأن ثمة طريقة لفعل ذلك. إلا أنها لم تجدها بعد. لم تكن والدتها من النساء المكافحات اللواتي يأكلن خبزهن بعرق جبينهن. فقد اعتمدت على الرجال طوال حياتها، فقد استخدمت أموال أزواجها ومطلقيها لدعم أسلوب عيشها الكثير التنقلات والنفقات. لم تجنِ يوماً فلساً واحداً، وإنما كان الزواج والطلاق مصدر رزقها الوحيد، الأمر الذي بدا لفرانشيسكا بغاء مقنعاً.

كانت فرانشيسكا مستقلة تماماً، وأرادت البقاء على هذا النحو. فمشاهدة حياة أمها جعلتها مصممة على عدم الاعتماد على أي كان؛ وخصوصاً على رجل. إنها وحيدة والديها. والدها، هنري ثاير، منطقي أكثر من أمها. كان فناناً يمكن وصفه بالمتشرد، ورجلاً فاتناً، وزير نساء إلى أن التقى، قبل أحد عشر عاماً، بأفيري ويليس، عندما كان في الرابعة والخمسين. كلفها برفع دعوى على أحد تجار الأعمال الفنية قام بخداعه، ربحت الدعوى، ومن ثم ساعدته في استثمار المال الذي جناه من الدعوى بدل إنفاقه على حريمه، وبرأي فرانشيسكا إن كان يمكن وصف أحد أعمال والدها بالعبقرية فهذا الوصف ينطبق على زواجه بأفيري، فقد تزوجها بعد سنة واحدة من تكليفها بالدعوى، وكانت بعمر الخمسين، وكان زواجها الأول، وخلال عشرة أعوام، ساعدته على جمع ثروة كبيرة، من خلال تشكيلة من الاستثمارات المربحة، وبعض الملكيات العقارية، فقد حثته على شراء مبنى في سوهو، حيث لا يزال يعيش مع أفيري ويرسم اللوحات الفنية. كما اشترى منزلاً لعطلات نهاية الأسبوع في كونيكتيكوت. أصبحت أفيري وكيلة أعماله، وعملت على رفع قيمة أعماله الفنية، وبذلك كسب أموالاً وافرة منها. وللمرة الأولى في حياته، كان ذكياً كفاية ليبقى مخلصاً لزوجته. رأى هنري أن زوجته مثالية وكان يعشقها. كانت أفيري نقيض تاليا في كل النواحي.

كانت أفيري محامية بارعة، ولم ترغب يوماً في الاعتماد على رجل. أصبح زوجها زبونها الوحيد الآن. لم تكن امرأة جذابة، بالرغم من مظهرها الجميل، وكانت شخصاً صلباً وعملياً ذات عقل راجح. أحبتها فرانشيسكا منذ التقتها للمرة الأولى، وبادلتها أفيري الشعور نفسه. إنها كبيرة كفاية لتكون أمّاً لفرانشيسكا، لكنها لا تريد أن تكون أمّاً. قبل أن تتزوج، كانت لا تثق بمؤسسة الزواج تماماً مثل فرانشيسكا. فقد عانت من والديها اللذين تصفهما بالمجنونين. نشأت صداقة وطيدة بين فرانشيسكا وزوجة أبيها خلال الأعوام العشرة الماضية. في عمر الستين، لا تزال أفيري تبدو طبيعية وشابة. إنها أصغر بسنتين فقط من والدة فرانشيسكا، لكن تاليا من طينة مختلفة تماماً.

تطلق عليها لقب الحرباء. لقد شكّلت لها على الدوام مصدر إحراج، فقد كانت عروساً على الدوام. لقد تزوجت من ثلاثة أميركيين وأوروبيين. الزوجان الأوروبيان، الأول بريطاني والثاني إيطالي، كانا من أصحاب الألقاب. لقد طلقت أربع مرات وترملت في زواجها الخامس. أزواجها على التوالي كانوا: كاتباً ناجحاً جداً، ووالد فرانشيسكا الفنان، وسليل أسرة مصرفية بريطانية مشهورة، ومالك عقارات في تكساس جعلها في وضع ميسور مع مبلغ كبير من المال ومركزين كبيرين للتسوق، مما سمح لها بالزواج من آخر أزواجها الكونت الإيطالي المفلس، وإنما الجذاب جداً، إلا أن حادثاً مروعاً أودى بحياته بعد ثمانية أشهر من الزواج، وبالتالي لم تستطع والدتها من وضعه على لائحة مطلقيها وبالتالي لم تغنم منه فلساً واحداً.

ترى فرانشيسكا أن أمها امرأة من كوكب آخر، فبرأيها تختلف أمها عن كل نساء الأرض، وبالتالي تختلف عنها هي بالذات فما من قاسم مشترك بينهما، توقعت ما ستقوله لها أمها الآن عندما تخبرها أن العلاقة انتهت: "ألم أنبهك يا ابنتي منذ البداية"، علماً أن فرانشيسكا لا تملك في الوقت الحاضر الشجاعة للوقوف أمام والدتها وإخبارها بأنها كانت محقة عندما أسدت لها النصيحة.

لم تعرض عليها أمها المساعدة عندما اشترت المنزل وافتتحت المعرض الفني، ولذلك عرفت أنها لن تساعدها الآن. فقد رأت أن المنزل هو بمثابة استثمار غير ذكي، ولم تحب المنطقة التي يقع فيها، وتماماً مثل تود، ستنصح فرانشيسكا ببيعه. إذا باعاه، سيحققان ربحاً. لكن فرانشيسكا لا تريد المال، وإنما تريد المنزل، وهي واثقة بأن ثمة طريقة لفعل ذلك. إلا أنها لم تجدها بعد. لم تكن والدتها من النساء المكافحات اللواتي يأكلن خبزهن بعرق جبينهن. فقد اعتمدت على الرجال طوال حياتها، فقد استخدمت أموال أزواجها ومطلقيها لدعم أسلوب عيشها الكثير التنقلات والنفقات. لم تجنِ يوماً فلساً واحداً، وإنما كان الزواج والطلاق مصدر رزقها الوحيد، الأمر الذي بدا لفرانشيسكا بغاء مقنعاً.

كانت فرانشيسكا مستقلة تماماً، وأرادت البقاء على هذا النحو. فمشاهدة حياة أمها جعلتها مصممة على عدم الاعتماد على أي كان؛ وخصوصاً على رجل. إنها وحيدة والديها. والدها، هنري ثاير، منطقي أكثر من أمها. كان فناناً يمكن وصفه بالمتشرد، ورجلاً فاتناً، وزير نساء إلى أن التقى، قبل أحد عشر عاماً، بأفيري ويليس، عندما كان في الرابعة والخمسين. كلفها برفع دعوى على أحد تجار الأعمال الفنية قام بخداعه، ربحت الدعوى، ومن ثم ساعدته في استثمار المال الذي جناه من الدعوى بدل إنفاقه على حريمه، وبرأي فرانشيسكا إن كان يمكن وصف أحد أعمال والدها بالعبقرية فهذا الوصف ينطبق على زواجه بأفيري، فقد تزوجها بعد سنة واحدة من تكليفها بالدعوى، وكانت بعمر الخمسين، وكان زواجها الأول، وخلال عشرة أعوام، ساعدته على جمع ثروة كبيرة، من خلال تشكيلة من الاستثمارات المربحة، وبعض الملكيات العقارية، فقد حثته على شراء مبنى في سوهو، حيث لا يزال يعيش مع أفيري ويرسم اللوحات الفنية. كما اشترى منزلاً لعطلات نهاية الأسبوع في كونيكتيكوت. أصبحت أفيري وكيلة أعماله، وعملت على رفع قيمة أعماله الفنية، وبذلك كسب أموالاً وافرة منها. وللمرة الأولى في حياته، كان ذكياً كفاية ليبقى مخلصاً لزوجته. رأى هنري أن زوجته مثالية وكان يعشقها. كانت أفيري نقيض تاليا في كل النواحي.

كانت أفيري محامية بارعة، ولم ترغب يوماً في الاعتماد على رجل. أصبح زوجها زبونها الوحيد الآن. لم تكن امرأة جذابة، بالرغم من مظهرها الجميل، وكانت شخصاً صلباً وعملياً ذات عقل راجح. أحبتها فرانشيسكا منذ التقتها للمرة الأولى، وبادلتها أفيري الشعور نفسه. إنها كبيرة كفاية لتكون أماً لفرانشيسكا، لكنها لا تريد أن تكون أماً. قبل أن تتزوج، كانت لا تثق بمؤسسة الزواج تماماً مثل فرانشيسكا. فقد عانت من والديها اللذين تصفهما بالمجنونين. نشأت صداقة وطيدة بين فرانشيسكا وزوجة أبيها خلال الأعوام العشرة الماضية. في عمر الستين، لا تزال أفيري تبدو طبيعية وشابة. إنها أصغر بسنتين فقط من والدة فرانشيسكا، لكن تاليا من طينة مختلفة تماماً.

بعمر الثانية والستين لا تزال تاليا تبحث عن رجل يكون زوجها السادس، وهي مقتنعة بأن هذا الرجل سيكون آخر أزواجها وأفضلهم، إلا أن فرانشيسكا لم تكن واثقة بهذا القدر، وأملت في ألا تملك أمها الجرأة لفعل ذلك مجدداً. يصعب التصديق أن تاليا أرملة وغير متزوجة منذ ستة عشر عاماً، بالرغم من عدد من العلاقات العابرة. فقد تزوجت خمسة رجال قبل أن تبلغ الخامسة والأربعين، وهي *عاطلة عن الزواج* منذ عقد ونصف تقريباً ولا تزال امرأة جميلة. لطالما ندبت حظها على تقدمها في العمر، وتمنت لو يعود الزمن بها إلى سن الخمسين، لأنها تشعر أن ذلك سيمنحها فرصة أفضل للعثور على زوج آخر.

كانت أفيري سعيدة جداً بوضعها، وهي متزوجة من رجل تهيم به، وتتقبل مراوغاته بمزاج جيد. تعرف جيداً كم أساء زوجها التصرف قبل التعرف إليها. لقد عاشر مئات النساء، وامتدت مغامراته العاطفية بين ساحلي الولايات المتحدة، وعبرت المحيط الأطلسي لتحط في أوروبا. يحب وصف حياته قبل أفيري بالماجنة، وتعرف فرانشيسكا كم هو محق في ذلك. لقد كان أباً عديم المسؤولية، وزير نساء، ولولا أفيري لبقي مراهقاً حتى لو عاش حتى التسعين.

كانت أفيري الشخص الموزون الوحيد في محيط فرانشيسكا العائلي، فقد كانت تمتاز برجاحة العقل. كانت أفيري النعمة التي أنعم الله بها على فرانشيسكا ووالدها، لذا تود لو تطلب النصح منها الآن، لكنها لم تملك الجرأة للاتصال بها. يصعب عليها الاعتراف بإخفاقاتها، التي طالت حياتها العاطفية والمهنية على حدٍّ سواء خصوصاً إذا اضطرت لإغلاق المعرض وبيع المنزل.

أطفأت فرانشيسكا أخيراً الأنوار في مكتبها الواقع قرب غرفة نومها. وبينما هي تسير نحو المطبخ لإعداد كوب من الحليب الساخن ليساعدها على الاسترخاء والنوم، سمعت صوت تقطّر مستمر، ورأت أن هناك رشحاً صغيراً من كوّة السقف. كان الماء يرتطم بالدرابزين ويجري ببطء عليها. إنه

رشح قديم حصل قبلاً، حاول تود إصلاحه مرات عدة، لكنه عاد مجدداً نتيجة أمطار نوفمبر الغزيرة، تود ليس هنا الليلة لكي يتصرف. لطالما قال لها إنها لن تتمكن من صيانة المنزل بمفردها، وهو محق في ذلك على الأرجح. لكنها أرادت المحاولة. لا تبالي إذا ارتشح السقف، أو انهار المنزل عليها. مهما كلف الأمر، ومهما توجب عليها فعله، لم تكن فرانشيسكا مستعدة للاستسلام.

بنظرة مصممة، توجهت إلى المطبخ. وفي طريق عودتها، وضعت منشفة على الدرابزين لامتصاص الارتشاح. ما من شيء آخر تستطيع فعله قبل إخبار تود عن الموضوع في الصباح. لقد ذهب بعيداً لتمضية عطلة نهاية الأسبوع مع أصدقائه، لكنه يستطيع معالجة المسألة عندما يعود إلى المنزل. لهذا السبب بالضبط، يريد بيع المنزل. لقد ملّ مواجهة المشاكل، وإذا كانا لن يستمرا في العيش معاً، لا يريد الاستمرار في ملكية المنزل. أراد التخلي عنه. وإذا استطاعت إيجاد طريقة لتدفع له ثمن حصته، ستصبح المشاكل كلها من حصتها. بتنهيدة، صعدت فرانشيسكا إلى غرفة نومها، ووعدت نفسها بالاتصال بزوجة أبيها في الصباح. ربما تستطيع استنباط حل لها لم يخطر على بالها. إنه أملها الوحيد. أرادت الاحتفاظ بمنزلها المرتشح ومعرضها الفني المكافح مع فنانيه المغمورين الخمسة عشر. لقد استثمرت أربع سنوات من عمرها في المشروعين، ومهما كان رأي أمها ورأي تود، ترفض التخلي عن حلمها أو منزلها.

الفصل الثاني

في صباح اليوم التالي اتصلت فرانشيسكا بزوجة أبيها وكان الأمر أسهل مما توقعت. فما إن تحدثت إليها حتى شعرت بالتحسن. تحدثتا لبضع دقائق وضحكتا على آخر هفوات والدها، فهو لا يزال مراهقاً في العديد من النواحي. بعد حديث عفوي، تطرقت فرانشيسكا إلى موضوعها، وأخبرتها والألم يعتصر فؤادها عن انفصالها عن تود، ومعضلتها بشأن المعرض الفني والمنزل، وكم هي منزعجة من ذلك.

قالت أفيري فوراً بحنان: "يؤسفني سماع هذا، أحسست أن هناك خطباً ما، فنحن لم نره منذ أشهر". في الواقع، لم يرياه البتة، وقد زارتهما فرانشيسكا لوحدها في كونيكتيكوت مرات عدة هذا الصيف. لقد اختلقت الأعذار لتبرير غيابه، لكن أفيري شكّت في صحة أعذارها. وقد قال هنري الشيء نفسه أيضاً، لكنه لم يشأ التطفل على حياة ابنته، التي كانت تحيطها دوماً بجدار من الخصوصية. ففي أحد حوارات أفيري مع والد فرانشيسكا قال: "ستخبرنا بنفسها عندما تصبح مستعدة، إذا كان هناك خطب ما". يومها وافقته أفيري الرأي. لذا، لم تتفاجأ تماماً، عندما سمعت ما قالته فرانشيسكا. "إنه لمن المؤسف أن تؤول الأمور إلى ما آلت إليه بشأن المعرض والمنزل، هل المعرض يخسر؟".

"لا يمكنني وصف المعرض بالمشروع الخاسر، فهو بالكاد يغطي مصاريفه، لا أظن أن أحداً سيرغب بشراء معرض لا يحقق أرباحاً، من وجهة نظر تود المعرض يمكن أن يكون مُنتجاً ومربحاً في غضون سنتين أو ثلاث في حال رفعت أسعار اللوحات، ولكنه يقول بالمقابل إنني لن

أحقق الأرباح طالما التزمت ببيع أعمال الفنانين الصاعدين فقط، وهذا يُعقّد الأمور من الناحية المالية فلا رغبة لديّ ببيع لوحات لفنانيين ذائعي الصيت، فأنا لم يكن هدفي العمل معهم عندما بدأت مشروعي، فقد كان الهدف دعم الفنانين الصاعدين". إنها لا تتعامل مع المعرض من ناحية تجارية بل من ناحية فنية محضة، وهذا أحد مآخذ تود عليها، فهو عندما دخل معها في هذا المشروع، دخل في مشروع تجاري وليس فنيّاً، أو بعبارة أخرى دخل مشروعاً تجارياً ذا واجهة فنية بأحسن الأحوال، لكن فرانشيسكا ترى أن ما من مفر إلا بقبول ما لم تكن تقبله مسبقاً إن أرادت لمعرضها أن يبقى على قيد الحياة، فهي تتعامل معه وكأنه ابنها الذي لم ولن ترغب بإنجابه. مؤخراً، تعرفت إلى فنان ياباني جديد، شعرت أنه يملك موهبة كبيرة. كانت أصداء معرضه الأول إيجابية، ونال تنويه العديد من النقاد المحترمين، وقد تولت بيع لوحاته من دون أي أرباح للمعرض تقريباً، لأنها تعرف في قرارة نفسها أنها لا تستطيع بيع أعمال فنان مغمور، وإن كان موهوباً بأكثر مما تبيعها، وهي في هذه الناحية تتعامل مع الموضوع من ناحية الفنان لا التاجر.

نصحتها أفيري بطريقة عملية: "عليك التنازل قليلاً عن مُثلك، وبيع أعمال بعض الفنانين المشهورين". لقد تعلمت الكثير عن الفن من خلال والد فرانشيسكا، وتعرف الكثير عن تكتيكات البيع. لكن فنه يدخل ضمن خانة مختلفة تماماً، وبفضلها، باتت أعماله تباع الآن بأسعار باهظة. خاطبتها أفيري بطريقة عملية: "لمَ لا نتحدث عن المنزل أولاً؟ هل تملكين أي شيء يمكن بيعه للحصول على المال لتسديد بدل حصة تود؟" عندها شعرت فرانشيسكا بالغم والهم، فقد وضعت أفيري يدها على الجرح، فالمشكلة تكمن في أن فرانشيسكا مفلسة من الناحية العملية.

"لا، لا أملك شيئاً. لقد أنفقت كل مدخراتي من أجل تسديد ثمن حصتي في المنزل، بالكاد أستطيع توفير أقساط الرهن الشهرية. وبما أن الأمور تأخذ هذا المنحى، وبما أن تود سيغادر، أعتقد أنني أستطيع تدبر أمر أقساط

الرهن من خلال تأجير بعض غرف المنزل، أظن أنني أستطيع تدبر أمر ثلاثة نزلاء. فأحلّ هذه المشكلة على الأقل".

ردّت أفيري: "لا أتخيلك تعيشين مع غرباء". تعرف تماماً أن ابنة زوجها إنسانة تحب الخصوصية، وبما أنها وحيدة والديها، فقد اعتادت أن تكون الأشياء التي تمتلكها لها وحدها فقط. ولكن، طالما فكّرت بهذا الحل، فهي مستعدة لتحمل النتائج، وهذا إن دل على شيء، فهو يدل على مدى تصميمها على الاحتفاظ بالمنزل، فالتضحيات الكبيرة تكون لأهداف كبيرة أيضاً. "هذا يحل موضوع أقساط الرهن، ولكن ماذا بشأن حصة تود كيف ستتدبرين أمر المال لدفع ثمن حصته؟". بدت أفيري شاردة فيما طرحت عليها السؤال، ثم خطرت لها من حيث لا تدري فكرة. "لا أعرف رأيك في الموضوع، ولكن عليّ عرض الفكرة. تملكين ست لوحات، من أعمال والدك وأفضلها، وفي حال وافقتِ على بيعها بمزاد علني، فستحقق مبلغاً من المال، سيغطي ثمن حصة تود، وربما أكثر. إن أعجبتك الفكرة، يمكنني الاتصال بالمعرض الذي نتعامل معه، ومن المؤكد أنهم سيتحمسون لهذا الأمر فهم يملكون دوماً سوقاً لتلك الأعمال".

جفلت فرانشيسكا مما قالته أفيري، فالفكرة بحدّ ذاته جعلتها تشعر بالذنب. لا تتخيل نفسها وهي تبيع لوحات والدها، فهي لم تفعل ذلك قبلاً، لكن الظروف القاهرة التي تمر بها الآن لم تمر بها قبلاً، وكما يقال الضرورات تبيح المحظورات، فهي لا تملك شيئاً سواها، وهي الآن أمام خيارين كلاهما مرّ؛ إما خسارة اللوحات أو خسارة المنزل. عندها قالت فرانشسكا بقلق: "كيف سيشعر والدي في حال أقدمت على هذا الأمر؟". فبالرغم من كل سيئاته وطيشه يبقى والدها، وهي تحب فنه، وتحب اللوحات الفنية الست التي تملكها.

قالت أفيري بهدوء: "أعتقد أنه سيتفهم المسألة. فقبل زواجنا، كان دوماً يبيع أشياء للبقاء على قيد الحياة. يعرف طبيعة الوضع أكثر من معظم الناس. حتى إنه باع ذات مرة لوحة صغيرة للفنان بولوك لتسديد مال لأمك

كان يدين لها به. افعلي ما يجدر بك فعله، فرانشيسكا". كانت امرأة عملية، ولهذا السبب أرادت فرانشيسكا التحدث إليها، أكثر من والديها.

"ربما أستطيع تدبر أموري ببيع خمس لوحات. بهذه الطريقة، أستطيع الاحتفاظ بلوحة. لقد أعطاني بابا تلك اللوحات. أشعر أنني خرقاء حقيقية عند بيعها لشراء منزل".

"لا يبدو لي أنك تملكين خيارات أخرى".

"لا، لا أملك". لم تفكر في اللوحات الفنية قبلاً. لكنها لا تملك أي شيء آخر لبيعه ودفع المال لتود. لبرهة، فكّرت في الموافقة على بيع المنزل بدل اللوحات الفنية. لكنها لا تريد فعل ذلك أيضاً. "لماذا لا تتصلين بمعرضه الفني وتسألينهم عن رأيهم؟ إذا استطاعوا تقديم مبلغ محترم مقابلها، أظن أنني سأبيعها. لكن اعرضي عليهم خمس لوحات فقط. أريد محاولة الاحتفاظ بلوحة واحدة على الأقل". تملك عاطفة كبيرة تجاه تلك اللوحات. ستكون هذه تضحية كبيرة بالنسبة إليها، تضحية جديدة إضافية.

طمأنتها أفيري قائلة: "سأفعل ذلك. يملكون لائحة بأسماء هواة اقتناء أعماله. أعتقد أنهم سيتصلون بهم سريعاً، إلا إذا أردت الانتظار وبيعها في المزاد العلني".

قالت فرانشيسكا بصراحة: "لا أستطيع الانتظار. تود يريد بيع المنزل منذ أشهر، ووعدته بأن أدفع له المال أو أسمح له ببيع المنزل بحلول نهاية العام. وهذا بعد أقل من شهرين. لا أملك الوقت لانتظار المزاد العلني".

"سنرى ما هو رأي المعرض الفني. سأتصل بهم ما إن ننهي هذه المكالمة". ثم خطرت لها فكرة أخرى أيضاً، أرادت أن تعرضها على فرانشيسكا قبل طرحها على زوجها ومعرفة رأيه فيها "لقد تحمس والدك لعملك في المعرض منذ افتتاحه، فهو مثلك يحب الفنانين الصاعدين ويحب دعمهم، فلنعرض عليه فكرة مشاركتك بالمعرض كشريك غير متضامن، قد يرغب بمدّ يد الدعم لك في مشروعك، حتى يبدأ بجني الأرباح، ثم تفضان الشراكة، فحسب ما فهمت منك، حصة تود في المعرض ليست كبيرة". لقد أظهر تود

الكثير من الرقي في إنهاء علاقته بفرانشيسكا، فهو يريد بيع المنزل بمبلغ محترم حتى يتمكن من شراء شقة يسكنها، أما في موضوع المعرض فلا يريد إلا استرجاع ما دفعه.

قالت فرانشيسكا، وهي تتمعّن في الفكرة: "لم أفكر أبداً في الطلب من والدي الاستثمار في المعرض الفني. هل تظنين أنه سيقبل؟".

"ربما، وأنا واثقة من أنه يرغب في مساعدتك. ليس استثماراً كبيراً. لمَ لا تتناولين الغداء معه وتسألينه؟" أحبت فرانشيسكا الفكرة، ولا شك في أنه مستعد لمساعدتها أكثر من أمها، التي أعلنت عدم موافقتها على كلا المشروعين منذ البداية. لم تملك أبداً أي اهتمام في الفن، بالرغم من امتلاكها عدداً من لوحاته الفنية التي باتت توازي الآن ثروة كبيرة. إنها تتشبث بها بدافع العاطفة وليس بسبب قيمتها المالية، لكنها باتت الآن كسباً غير متوقع بالنسبة إليها. تملك تاليا دزينة على الأقل من أعماله الأولى، التي تساوي مبالغ طائلة. لطالما قالت إنها لن تبيعها أبداً. لم تظن فرانشيسكا أنها ستبيعها يوماً أيضاً.

قالت فرانشيسكا، وقد بدت متفائلة للمرة الأولى منذ شهرين: "سأتصل به، وأدعوه لتناول الغداء غداً. أنت فعلاً عبقرية أفيري. والدي محظوظ جداً بك".

"وأنا محظوظة أيضاً به، إنه رجل جيد، خصوصاً وأنه لم يعد الآن زير نساء". لقد التقت بالعديد من صديقاته السابقات، وأحبت الكثير منهن، بالرغم من أن بعضهن بَدَوْنَ مجنونات فعلاً بالنسبة إليها. إنها متواضعة أكثر من أية امرأة أخرى واعدها قبلاً. كما أنها أحبت والدة فرانشيسكا. كانت تاليا بتصرفاتها وأخبارها غريبة وذات شخصية خاصة، بحيث وجدت أفيري صعوبة في عدم استلطافها، والتسلي بأخبارها. لكنها تفهم أيضاً انزعاج فرانشيسكا منها. حتى أفيري اعترفت أن تاليا تعتبر مصدر إحراج كوالدة، خصوصاً بالنسبة إلى ابنة أرادت أماً مثل كل الأمهات. هنري هو الآخر كان غريب الأطوار ويعيش بحرية كبيرة أيضاً. كانا ثنائياً بمواصفات

خاصة، إلا أن هذه المواصفات لا يمكن أن تنطبق بشكل أو بآخر على والدين تقليديين، الشيء الوحيد الذي لم ترغب فرانشيسكا به أثناء ترعرعها هو أن تكون مثل والديها، وهي بالفعل تختلف عنهما. إنها تشبه أفيري أكثر مما تشبه والديها البيولوجيين. وكانت أفيري مدركة أيضاً مدى غرابة هنري وتاليا. فهما شخصان مختلفان تماماً، وتفاجأت لأن زواجهما استمر سبعة أعوام. الشيء الوحيد الجيد الناجم عن ذلك الزواج هو ابنتهما، وبات الآن هنري وتاليا صديقين. إلا أن تاليا تحب أفيري كثيراً. كلهم يحبونها. إنها تفرض احترامها، ويحب الجميع طرقها السهلة والودودة والذكية. إنها امرأة ذكية، ومتزنة، ومتواضعة، وحقيقية. إنها كل شيء غير موجود في والدة فرانشيسكا.

تنهدت فرانشيسكا وقالت بارتياح: "أظن أنك حللت كل مشاكلي".

ردّت عليها أفيري بنبرة تشجيعية: "على رسلك. لا يزال عليّ الاتصال بوكيل أعمال والدك، وعليك التحدث إلى والدك بشأن المعرض الفني. لكنني أعتقد أننا وضعنا الأسس لانطلاقة جيدة". أملت في أن تنجح الأمور معها. إنها تحب فرانشيسكا، وتعتبرها شخصاً جيداً، يستحق جني ثمار جهوده. لقد كرهت رؤيتها تخسر كل شيء بسبب انفصالها عن تود.

أجابت فرانشيسكا، وقد بدت سعيدة ومتفائلة للمرة الأولى منذ أشهر عدة: "عرفت أنك ستجدين حلاً".

أجابت أفيري ببساطة: "أوشكت على إيجاد الحل. يحتاج الأمر أحياناً إلى شخص من الخارج للتوصل إلى خطة. فلنأمل أن تنجح هذه الخطة. سأبلغك بما سيقوله وكيل أعمال والدك، ما إن أتحدث إليه. توقيتك جيد جداً. سيشاركون قريباً في معرض بازل للفنون في ميامي، وإذا لم يكن هناك أي هواة لجمع اللوحات في انتظار الأعمال الأولى لوالدك، فإن الوكيل سيرى الكثير من الأشخاص الآخرين هناك. قد تحصلين على المال بحلول نهاية العام".

أجابت فرانشيسكا والحزن يعتصر فؤادها: "سيجعل ذلك تود سعيداً".

قالت أفيري: "وأنت أيضاً إذا تمكنت من الاحتفاظ بالمنزل، إنها صفقة رابحة لكل الأطراف". فمع أو من دون عقد زواج، هناك الكثير من الأمور الواجب فصلها بينهما. الأمر سيئ بقدر الطلاق.

أكدت فرانشيسكا: "معك حق سأسعد بالاحتفاظ بالمنزل. أعتقد أنه يجدر بي إخبار والديّ بشأن تود. بصراحة، أنا أخشى ذلك. سيتقبل والدي الأمر، لكن أمي ستذكرني سبعمئة مرة أنها حذرتني من هذا منذ البداية. رأت أننا مجنونان عندما اشترينا المنزل وأسسنا العمل من دون زواج.

"هذا ما يفعله الناس في هذه الأيام. فالكثير من الأشخاص الذين يعيشون معاً يقومون باستثمارات مشتركة".

أجابت فرانشيسكا وقد رسمت على شفتيها ابتسامة حزينة: "قولي لها ذلك".

أجابتها أفيري: "لا أريد حتى المحاولة" فضحكتا. لتاليا آراؤها الخاصة، التي لا يمكنها التزحزح عنها قيد أنملة.

"سأتصل بوالدي وأحدد موعداً للغداء معه. وسأتصل بأمي لأخبرها عن تود. أبلغيني بما سيقوله وكيل الأعمال".

طمأنتها أفيري قائلة: "سأفعل. أبقي معنوياتك مرتفعة في هذا الوقت. ستتدبر الأمر"، وبعد قليل أنهتا المكالمة. هذا ما كان يجدر بأمها قوله لها لكنها لم تقله أبداً. تاليا أشبه بخالة لطيفة وليس بأم. وأفيري أشبه بصديقة.

جلست فرانشيسكا أمام مكتبها، وفكّرت لوقت طويل قبل أن ترفع سماعة الهاتف مجدداً. حالتها أفضل بكثير بعد المحادثة التي أجرتها مع أفيري، لقد ساعدتها، مثلما كانت تأمل. تتوصل دوماً إلى أفكار مفيدة، وجيدة فعلاً، تماماً مثلما حصل مع والد فرانشيسكا. لقد تأثر بها كثيراً في البداية، ولا يزال حتى الآن. لقد فعلت له العجائب، والبرهان على ذلك أسلوب عيشهما المريح جداً. تملك أفيري مالها الخاص، كما أن لديها مهنة مربحة تُحسن استخدامها. وفكرة اعتمادها على شخص غير نفسها تجعلها تضحك. تقول إنها لم تتكبد المصاعب طوال حياتها لتعتمد على رجل، إنها تفعل ما تريده

بمالها ولطالما فعلت ذلك. لم يتغير أي من ذلك بعدما تزوجت. لقد استفاد هنري من علاقتهما معاً أكثر مما استفادت. على الصعيد المالي، هو من يحتاج إليها، وليس العكس. لكن على الصعيد العاطفي، يعتمدان على بعضهما البعض، الأمر الذي بدا منطقياً بالنسبة إلى فرانشيسكا. ظنت أن هذه هي حالها أيضاً مع تود، لكن الوقائع خيبت ظنها. وها هما الآن ينفصلان.

اتصلت فرانشيسكا بأمها. بالكاد سألتها تاليا عن حالها، قبل أن تندفع في حديث طويل عن نفسها، وعما تفعله، وممن هي غاضبة، والعمل الفظيع الذي ينجزه مهندس الديكور، والاستثمارات السيئة التي قام بها سمسارها في البورصة مؤخراً، وما الذي يقلقها.

قالت تاليا متذمرة: "هذا لأنني لا أملك زوجاً يدعمني".

ذكّرتها فرانشيسكا بطريقة عملية: "لست بحاجة إلى زوج. لقد ترك لك دون إرثاً يكفيك إلى الأبد". فقد حقق مركزا التسوق اللذان تملكهما نمواً كبيراً في الأعوام الأخيرة، فضلاً عن امتلاكها استثمارات أخرى. فهي ليست امرأة فقيرة، ولا بأي شكل من الأشكال، فشقتها الصغيرة الفخمة في الجادة الخامسة شاهد جلي على ذلك. إنها تقع في منطقة جميلة ومرتبة، ويمكن لقاطنها أن يحظى بإطلالة ولا أروع على السنترال بارك.

قالت: "أنا لا أقول إنه لم يترك لي إرثاً. لكن من المزعج جداً عدم وجود زوج يحميني"، وبدت للحظة ضعيفة. لم تقل لها فرانشيسكا إنه يجدر بها الاعتياد على الأمر الآن، بعد مرور ستة عشر عاماً على وفاة زوجها الأخير في روما. لقد تركها مع لقب كونتيسة، وقد أحبت اللقب كثيراً. أسفت تاليا لأنه لم يكن أميراً، واعترفت أمام فرانشيسكا قبل أعوام عدة بأنها كانت تحب أن تكون أميرة، لكن لقب الكونتيسة ليس سيئاً. إنها الكونتيسة دي سان جيوفاني.

هذا عزمت فرانشيسكا على زف الخبر السعيد لأمها دفعة واحدة من دون مقدمات، فقالت بهدوء: "لقد انفصلت عن تود". وصمتت بانتظار رد فعل أمها.

"لماذا؟" بدت أمها مذهولة، كما لو أنها لم تشك قبلاً في أي شيء، على عكس أفيري ووالدها.

"بدأت المشاكل قبل أشهر عدة. حاولنا تسوية الأمور، لكننا لم ننجح. سيعود للعمل في شركة قانونية ويريدني أن أشتري حصته في المعرض الفني والمنزل".

سألتها أمها بفظاظة: "وهل تملكين المال لذلك؟". لم يكن هذا تعاطفاً، وإنما مجرد سؤال.

"في الوقت الحالي لا. لكني آمل في التوصل إلى ذلك بحلول نهاية العام". لم تخبر أمها أنها ناقشت الأمر مع أفيري، وطلبت النصح منها. لا تريد جرح مشاعرها. لكن نصيحة أفيري مفيدة أكثر من نصيحة أمها، التي تعتمد على الأشخاص الآخرين لتدبر مالها. أما أفيري فتتخذ كل القرارات الكبيرة بنفسها.

"أخبرتك أنه لم يكن يجدر بك شراء المنزل وتأسيس عمل معه. ما لم تكونا متزوجين، فالأمور في مثل هذه الحالة تكون عبارة عن فوضى عارمة. هل يتعامل معك بصعوبة في هذا الموضوع؟". لقد استلطفته تاليا، لكنها لم تتفهم رغبتهما بعدم الزواج. لقد عارضت ذلك بشدة، فهي في بعض النواحي لا تزال تقليدية.

"أبداً أمي. إنه مرن جداً. لكنه يريد بيع المنزل للحصول على حصته".

"هل يمكنك توفير كل ذلك؟".

"ربما. وإلا، سأضطر لبيع المنزل وإغلاق المعرض الفني. أبذل ما بوسعي لتجنب ذلك".

"من المؤسف أنك وقعت في شركه. لم أرها أبداً فكرة جيدة". لا تجعل ابنتها أبداً تنسى ذلك.

"نعم، أعرف، أمي. لكننا اعتقدنا أن حبنا متين".

"جميعنا نظن ذلك، إلى أن ينهار الحب. وعندما يحصل ذلك، من الأفضل أن يكون لديك نفقة مالية ونفقة للمسكن وليس مجرد قلب مكسور". إنه الشيء الوحيد الذي تعرفه، والمهنة الوحيدة التي عرفتها.

"النفقة المالية ليست وظيفة أمي. أو على الأقل ليست الشيء الذي أريده. أتمنى أن أنجح في تدبر أموري". مثل العادة، أزعجتها أمها.

"لماذا لا تبيعين المنزل؟ لا يمكنك تدبر أموره من دونه على كل حال. ذلك المكان ينهار". هذا هو بالضبط ما قاله لها تود. لكنها مصممة على أن تثبت لهما أنهما مخطئان. سألتها أمها: "هل يمكنك تسديد أقساط الرهن؟". من دون أن تعرض عليها المساعدة. إلا أن فرانشيسكا لم تتفاجأ. لغاية الآن، جرت المحادثة تماماً مثلما توقعت، بدءاً من "لقد قلت لك ذلك". ما من مفاجآت هنا. لا توجد أبداً مفاجآت مع أمها.

قالت فرانشيسكا بنبرة متوترة: "أنوي تأجير بعض الغرف للمساعدة على توفير أقساط الرهن".

أجابت أمها فوراً بذعر: "هل أنت مجنونة؟ يعني ذلك إحضار متطفلين إلى بيتك. هل أنت جدية؟ تريدين تأجير منزلك إلى غرباء؟".

"لا أملك خياراً آخر، وأريد الاحتفاظ بالمنزل، أمي. سأكون حريصة في اختيار المستأجرين. لن أضع اللافتات على الطريق. وسأتحقق منهم جيداً أولاً".

قالت أمها، وهي تبدو حزينة: "ستنتهين مع مجرم في منزلك".

"أتمنى ألا يحصل ذلك. آمل العثور على بعض المستأجرين الجيدين".

"أظن أنها فكرة مريعة، وستندمين عليها".

قالت فرانشيسكا بحزن: "إذا حصل ذلك، يمكنك تذكيري بأنك قلت لي هذا". تعرف أمها جيداً. فتاليا تذكرها دوماً بأخطائها وبأنها حذرتها مسبقاً.

أصرّت تاليا قائلة: "أريدك أن تعيدي التفكير في ذلك".

قالت فرانشيسكا بصراحة: "لا أستطيع. لا أستطيع توفير أقساط الرهن بطريقة أخرى من دون وجود تود. حين يبدأ المعرض الفني بتوفير الربح لي، أستطيع التخلي عن المستأجرين. لكن في الوقت الحاضر، لا خيارات لديّ. عليّ القبول بهذا الواقع بمرارة". ستضطر للتخلي عن الكثير من أجل الاحتفاظ بالمعرض الفني والمنزل، ستتخلى عن خصوصيتها عند تأجير

الغرف بهدف تسديد أقساط الرهن، وعن لوحات والدها لدفع ثمن حصة تود، وإذا لم يشأ والدها الاستثمار في المعرض الفني، قد تخسره بالكامل. من المزعج جداً التفكير في كل ذلك.

"أعتقد أن هذا جنون محض. لن أنام في الليل، وأنا قلقة بشأن الآخرين الذين يعيشون في منزلك".

"ثمة أمان في الأرقام. مع ثلاثة مستأجرين فقط، يفترض أن أكون بخير".

"يفترض، ولكن ليس بالضرورة. وإذا وقعوا عقد إيجار، ستجبرين على تحملهم طوال فترة عقد الإيجار. لا يمكنك رميهم خارجاً إذا لم يعجبوك بعد فترة".

قالت فرانشيسكا بطريقة عملية: "لا، لا أستطيع. ولذا، من الأفضل أن أختار أناساً جيدين".

بعد ذلك أنهت المكالمة بأسرع ما يمكن. لقد أطلعت أمها على كل المعلومات ذات الصلة، عن انفصالها عن تود، ومحاولتها الاحتفاظ بالمعرض الفني والمنزل. لا تحتاج لأن تعرف أكثر من ذلك، ولاسيما التفاصيل المثيرة. وقد فعلت أمها تماماً مثلما توقعت. لقد انتقدتها، ولم تعرض عليها المساعدة على الإطلاق. هناك بعض الأمور التي لا تتغير أبداً.

اتصالها بوالدها كان أسهل وأسرع. كل ما فعلته أنها دعته إلى الغداء في اليوم التالي، فقبل الدعوة. تنوي إخباره كل شيء حينها، وهو متفهم أكثر من أمها. اتفقا على اللقاء في لا غولو لتناول الغداء، وهو مطعمه المفضل في أعلى المدينة. إنه قريب من معرضه الفني، ويذهب إليه غالباً. إنه جزء من مواقع المشاهير هناك. بدا سعيداً لسماع صوتها.

سألها قبل أن ينهي المكالمة: "هل كل شيء على ما يرام؟". تساءل عما يجول في فكرها. فنادراً ما تدعوه إلى الغداء.

"لا بأس. سنتحدث غداً".

قال بمرح: "حسناً. أتحرق شوقاً لرؤيتك". لا يزال صوته يبدو شاباً عبر الهاتف بالرغم من أنه في الخامسة والستين. بدا أيضاً أصغر من سنوات عمره، تماماً مثل زوجته. ترى فرانشيسكا أن أمها تبدو أكبر من أفيري، وتوقها الشديد للعثور على رجل جديد منحها طلة بائسة مخيفة، ترافقها منذ أعوام عدة. كان والدها أكثر استرخاء وحرية وعفوية. إنها طبيعته، ويعزى ذلك أيضاً إلى وجود أفيري بقربه. لم تعرف أمها علاقة جدية منذ أعوام عدة. تملك فرانشيسكا نظرية بأن أمها تريد رجلاً بأي ثمن، وبدا ذلك جلياً عليها. إنه درس جيد لها لتتذكر نفسها الآن، فيما يجدر بها مواجهة عالم المواعدة مجدداً، للمرة الأولى منذ خمسة أعوام.

بمجرد التفكير بالأمر أصابها نوع من الاكتئاب، فهي غير مستعدة للتفكير بعد في الخروج مع رجال آخرين. لم تستطع منع نفسها من التمني لو أنها لا تضطر إلى مواعدة الرجال مجدداً. لا تتطلع بشوق إلى ذلك. برأيها الشخصي، هذا أسوأ الاحتمالات على الإطلاق. عليها البحث عن ثلاثة مستأجرين ليشاركوها منزلها إذا وجدت المال للاحتفاظ به، وفي النهاية، عليها المواعدة مجدداً إذا لم تكن تريد البقاء وحيدة لبقية حياتها. إنه قرار كبير، لكنها ليست مضطرة لمواجهته في المستقبل القريب. فتود لم يغادر المنزل بعد.

كان الغداء مع والدها في اليوم التالي جيداً. خرج من سيارة الأجرة أمام مطعم لا غولو، في الوقت نفسه الذي وصلت فيه، بعدما مشت بسرعة من محطة القطارات. وكما هي الحال دوماً، بدا جذاباً جداً. كان يرتدي معطفاً من التويد الأسود والأبيض اشتراه من باريس قبل أعوام عدة، ورفع ياقته لصدّ الهواء، واعتمر قبعة بورسالينو اشتراها من فلورنسا، وانتعل جزمة قصيرة وسروال جينز، وبدا نصف زير نساء ونصف فنان. كشف عن وجه محدد القسمات مع ذقن عريض وشق عميق فيه أعجبها حين كانت طفلة، ووضع فوراً ذراعاً حولها وعانقها. كان شخصاً حنوناً أكثر من أمها، وبدا مسروراً لرؤيتها.

كان إخباره عن تود أسهل مما توقعت، واعترف لها أنه لم يتفاجأ، وأخبرها أنه لطالما اعتقد أنهما مختلفان كثيراً. لم تفكر فرانشيسكا أبداً في ذلك. ظنت أنهما يملكان الكثير من الأمور المشتركة. في البداية، كان هذا صحيحاً ولكن لم تعد الحال هكذا.

قال والدها فيما حضر الغداء: "كان مجرد سائح في عالم الفن". طلب حساء البصل وطبقاً من اللوبياء الخضراء، وبهذه الطريقة يحافظ على جسمه الطويل والنحيل والرشيق، ليس مثلها. ويكتفي بتناول أطباق أفيري الصحية اللذيذة. لطالما كانت فرانشيسكا عشوائية في ما تأكله، خصوصاً في الآونة الأخيرة بعد رحيل تود. في معظم الليالي، تكون كسولة جداً لطهو العشاء لنفسها، وبدأت تخسر الوزن منذ الانفصال. قال والدها: "لطالما ظننت أنه سيعود إلى وول ستريت في النهاية"، فيما بدأ يتناول حساء البصل. طلبت فرانشيسكا سلطة السلطعون.

قالت فرانشيسكا بتمعن: "هذا مضحك. لم أفكر أبداً في ذلك. أعتقد أنك محق. قال إنه سئم من الفقر".

ضحك والدها من ذلك. "نعم، وأنا أيضاً، إلى أن أنقذتني أفيري".

أخبرت والدها حينها عن محاولتها لشراء حصة تود في المنزل، وبنظرة مذنبة، أخبرته أنها قد تضطر لبيع لوحاته الفنية، لكنه كان لطيفاً جداً حيال ذلك. تسهل معرفة لماذا تحبه النساء دوماً. إنه رائع المعشر، ومتسامح على الدوام ونادراً ما ينتقد. جعلها تشعر بالتحسن على الفور، وأكد لها أنه غير منزعج على الإطلاق. وعندما أحضرت القهوة، تحلت بالشجاعة لسؤاله عن المعرض الفني، فابتسم لها. لقد حذرته أفيري بشأن ذلك مسبقاً، وقالت إنها تحتاج إلى مساعدته، وطلبت منه التحلي باللطف. لكنه كان سيفعل ذلك على كل حال. فهي ابنته الوحيدة، وبالرغم من كونه والداً مهملاً، فإنه في الأساس رجل حنون.

قال ببساطة، فيما ارتشف القليل من القهوة: "أشعر بالإطراء لأنك تطلبين مني ذلك. لست واثقاً من أنني أعرف أكثر منك حول إدارة المعرض

الفني، بل ربما أقل منك. لكني أودّ كثيراً أن أكون شريكك غير المتضامن في الوقت الحاضر". أخبرته عن مقدار المال اللازم لإرضاء تود، ولم يكن مبلغاً كبيراً، لكنه أكثر مما تملك. قال بنبرة واثقة: "يمكنك دوماً التخلي عن شراكتي حين ينجح المعرض الفني. لستِ ملزمة بي إلى الأبد".

قالت، وهي تشعر بارتياح حقيقي: "شكراً أبي". كانا يشبهان بعضهما كثيراً فيما جلسا يبتسمان إلى بعضهما البعض. شعرت بالكثير من الامتنان لمساعدته، وتلألأت الدموع في عينيها. لقد ساعدها للتو في إنقاذ المعرض الفني الذي عملت بكدّ لإنجاحه طوال أربعة أعوام.

تلقت اتصالاً من أفيري بعد الغداء كان بمثابة الخطوة الأولى في إنقاذ المنزل. فالمعرض حيث يعرض والدها أعماله تحمس كثيراً للوحات الفنية التي تريد بيعها. يملك زبائن لثلاث منها على الفور وظن أنه يستطيع بيع اللوحتين الباقيتين في ميامي في شهر ديسمبر. فإن مال اللوحات الثلاث الأولى سيسعد تود في الوقت الحاضر.

ذهب والدها لرؤية وكيل أعماله في معرضه الفني، فيما توجهت فرانشيسكا نحو محطة القطارات للعودة مجدداً إلى وسط المدينة، وشعرت كما لو أنها حصلت للتو على عفو من الإعدام بالمقصلة. بفضل والدها، واللوحات الفنية التي أعطاها لها على مر السنوات والتي ازدادت قيمتها كثيراً، ستتمكن من الاحتفاظ بالمعرض الفني والمنزل اللذين تحبهما كثيراً. هذا أفضل مما كانت تجرؤ على الحلم به. فيما نزلت درج محطة القطار بسرعة، ابتسمت فرانشيسكا ابتسامة عريضة. إنها بداية جيدة، ولم يعد الانفصال عن تود يبدو سيئاً كثيراً الآن. ثمة أمل. لا تزال تملك عملاً ومنزلاً، ووالداً لطيفاً جداً.

الفصل الثالث

اتصلت فرانشيسكا بتود في مكتبه لإطلاعه على الأخبار، ما إن وصلت إلى المنزل. أخبرته أنها تتوقع الحصول على المال، أو جزء كبير منه لدفعه له خلال الأسابيع القليلة المقبلة. وعدها والدها بأن تكتب لها أفيري شيكاً بقيمة حصة تود في المعرض الفني في اليوم التالي. وقالت أفيري إن المعرض الفني سيعطيها شيكاً بثمن اللوحات الثلاث الأولى خلال هذا الشهر. شعر تود بالكثير من الارتياح لسماع ذلك.

قال بحزن عبر الهاتف: "أظن أن هذا يعني ضرورة شروعي في البحث عن شقة. سأتحقق من بعض الشقق المعروضة في عطلة نهاية الأسبوع"، فشعرت وكأن سكيناً ينغرز في قلبها. فبالرغم من حديثه عن مغادرة المنزل منذ أشهر عدة، وعدم تواجده أبداً في عطلات نهاية الأسبوع، بدا كل شيء حقيقياً جداً الآن. لقد انتهى كل شيء.

قالت بهدوء: "لا داعي للعجلة". لقد أحبا بعضهما، واعتقدا أنهما سيبقيان معاً إلى الأبد، وحزنا لما آلت إليه الأمور. من الأسهل التركيز على تفاصيل العمل المرتبطة بالمعرض الفني والمنزل بدل التحدث عن خسارتهما؛ إنها نهاية حلم. لقد تغلبا على ألم علاقات أخرى فاشلة قبلاً، لكن أياً منهما لم يعش مع أي شخص آخر. فجأة، بدا الأمر أشبه بطلاق وليس بانفصال. تساءلت عما سيفعلانه بكل الأشياء التي اشترياها معاً – الأريكة، المصابيح، الأطباق، سجادة غرفة الجلوس التي يحبانها. من المؤلم التفكير في ذلك الآن. لكن عاجلاً أم آجلاً، سوف يضطران إلى مواجهة فصل حياتهما المشتركة. تكره هذه الفكرة. ولم يكن مسروراً بها أيضاً.

قال لها: "سأخبرك بما أجده". وكان مرتبطاً باجتماع، فاضطر إلى إنهاء المكالمة بسرعة. تساءلت متى سيبدأ بمواعدة امرأة أخرى، أو متى سيلتقي بامرأة أخرى، أو إذا كان التقى أصلاً بواحدة. لا تسأله عما يفعله في عطلات نهاية الأسبوع، لكنها لا تظن أنه يواعد امرأة. يأتي في وقت متأخر من الليل، وينام في غرفة الضيوف في طابق آخر.

التحدث إليه ذكّرها بأنه يجدر بها البدء بالبحث عن مستأجرين، لأنها ستحتفظ بالمنزل. لا يكرهان بعضهما البعض، وإنما لا يتفقان مع بعضهما، وأرادا حياتين مختلفتين. لقد قال شيئاً عن الانتقال إلى ضواحي المدينة، فهناك عالمه أكثر مما هو عالمها. انتقل إلى وسط المدينة من أجلها، وها هو الآن يعود إلى عالمه القديم المألوف. لقد كان والدها محقاً، فقد كان مجرد سائح في حياتها، مثل الانتقال إلى بلد آخر لبضع سنوات، ومن ثم الحسم بأنك تريد العودة إلى وطنك مجدداً. لا تلومه، وإنما تشعر فقط بالأسى لفشل علاقتهما.

تحدثت مطولاً عن الموضوع مع أفيري تلك الليلة. كانت حكيمة جداً.

خاطبتها أفيري قائلة: "إنه يريد كل الأشياء التي لا تريدينها أو هكذا يقول. الزواج، الأولاد الآن قبل أن يكبر في السن، وول ستريت، القانون وليس الفن، وعالماً وحياة أكثر تقليدية".

أجابتها فرانشيسكا بهدوء: "أعرف، لكنني حزينة. سيكون الأمر صعباً حين يغادر المنزل". لكن الوضع كان صعباً أيضاً طوال العام الماضي، إذ كانا يتشاجران طوال الوقت. الوضع الآن أفضل من ناحية أنهما لا يتجادلان، مثلما فعلا طوال أشهر عدة. بالكاد يتحدثان إلى بعضهما البعض، إلا عن تفاصيل دفن العلاقة التي كانت بينهما. بدا الأمر أشبه بموت أكثر من طلاق. خلال الأعوام الخمسة الماضية، نسيت كم يكون انتهاء العلاقة صعباً. شعرت أفيري بالأسف عليها، وفرحت لأن هنري وافق على مساعدتها في المعرض الفني.

أخبرتها فرانشيسكا أنها تريد البحث عن فنانين جدد حين يتسنى لها الوقت. هناك الكثير من الأمور التي تريد فعلها لتطوير المعرض الفني،

وشعرت أنها مسؤولة تجاه والدها، بالرغم من تأكيده لها أن شراكته بالمعرض هي عرضية وهو على استعداد لفض الشراكة حالما يصبح المعرض بغنى عن أمواله. إنه مشغول، ويحضر الآن لمعرض لأعماله في الربيع. سيدعمها، لكنه لا يرغب أبداً في الانخراط بعمق معها. تعرف تماماً ماذا تفعل، وعرفا أن المعرض يحتاج لوقت قبل أن يبدأ بدرّ الأرباح. تقبل هذا الأمر بصورة أفضل من تود، الذي أراد رؤية النتائج. المعارض الفنية تحتاج للوقت قبل أن تتحول إلى أعمال تجارية مربحة. لقد كان والدها محقاً. فتود كان مجرد زائر إلى عالمها. وهو الآن يعود إلى عالمه.

نظرت إلى الإعلانات في الجريدة تلك الليلة، وبحثت في شبكة الإنترنت عن مستأجرين، ولم تعجبها أياً من المواصفات المعروضة. ثم قررت وضع إعلان خاص بها. لقد قررت قبلاً أنها تريد تقسيم المنزل في شارع تشارلز إلى طوابق منفصلة. في الطابق الأعلى، ثمة غرفة جلوس صغيرة مشمسة مع غرفة نوم أصغر وحمام صغير، لكنها مساحة كافية ليعيش فيها شخص ما. في الوقت الحاضر تود يستخدم هذا الطابق. في الطابق ما تحت العلوي، توجد غرفة نومها التي تشاركتها قبلاً مع تود. ثمة غرفة للملابس وحمام رخامي صمماه معاً، مع مكتب منزلي صغير قرب غرفة النوم، حيث تعمل عند تواجدها في المنزل.

أسفل الطابق الذي تعيش فيه، توجد غرفة الطعام، التي ستحولها إلى غرفة جلوس، ولحسن الحظ أنها تشتمل على حمام للضيوف، ومكتبة تستطيع تحويلها إلى غرفة نوم لمن يريد استئجار ذلك الطابق.

وفي الطابق الرئيس، توجد غرفة الجلوس الرئيسة التي تنوي الاحتفاظ بها لنفسها. المطبخ يقع في طابق واحد في الأسفل، على مستوى الحديقة. إنه مطبخ كبير ومشمس مع مساحة مريحة لتناول الطعام تستطيع استخدامها مع كل المستأجرين. بالقرب منه، توجد غرفة واسعة للتخزين حيث يحتفظ تود بمعداته الرياضية. تطل تلك الغرفة على الحديقة، وفيها حمام جيد، ويمكن استعمالها بمثابة استوديو صغير للمستأجر الثالث.

سيكون المنزل مزدحماً، لكن توجد مساحة كافية للأربعة معاً، شرط أن يكونوا محترمين ومهذبين. تستطيع تأجير الطابق العلوي والطابق الموجود تحت غرفة نومها، إضافة إلى الاستوديو الموجود قرب المطبخ. إنها مصممة على إنجاح ذلك.

كتبت وصفاً لكل مساحة من تلك المساحات على كمبيوترها تلك الليلة، وقامت بوصف المنزل. فكّرت في تأجير المنزل إلى إناث فقط، لكنها لم تشأ حصر نفسها في ذلك، لأنها بحاجة إلى كل الأشخاص المؤهلين الذين تستطيع العثور عليهم. لذا، لم تذكر أنها تريد إناثاً فقط وقررت رؤية ما ستحصل عليه استجابة لإعلانها.

كانت تراجع الوصف للمرة الأخيرة عندما طرق تود على باب مكتبها، ووقف هناك بتعبير جدي سألها: "هل أنت بخير؟". كان قلقاً عليها. إنه يعتقد أنها لا تستطيع تدبر أمورها لوحدها، ورأى أنه يجدر بها بيع المنزل. لكنه عرف أنها لن تفعل ذلك، لا بل إنها مصممة بعناد على إنجاح الأمر، حتى لو عنى ذلك إدخال غرباء إلى منزلها. بدا له الأمر بمثابة حماقة كبيرة وكان قلقاً عليها.

قالت، وهي تبدو متعبة: "نعم، أنا بخير. وأنت؟".

"لا أعرف. يبدو الأمر غريباً، أليس كذلك؟ انفصالنا عن بعضنا. لم أتوقع أن يكون الأمر مؤلماً إلى هذا الحدّ". بدا هشاً وحزيناً. ذكّرها ذلك بكل شيء أحبته فيه، مما جعل الأمور أسوأ.

أجابته بصراحة: "بالفعل إنه أمر مؤلم جداً". لكن أياً منهما لا يتخيل إعادة العلاقة إلى سابق عهدها. لقد وصل الخلاف إلى مرحلة متقدمة، ولا تزال كل الاختلافات موجودة. اختلافات لا يمكن تسويتها. لكن الأمر مؤلم حقاً، مهما كان الوضع سيئاً خلال العام الماضي. "أكره رؤيتك تغادر، قد أذهب إلى منزل والدي في كونيكتيكوت كي لا أضطر لمشاهدة رحيلك". أومأ ولم يتفوه بكلمة. إنه مستعد للانتقال، لكنه حزين لتركها. لا تزال جميلة مثلما كانت قبل خمسة أعوام، وجذابة وحلوة، لكنهما أصبحا شخصين مختلفين

الآن. لا ينتميان بعد الآن إلى بعضهما البعض، وأصبحا جزءاً من ماضي بعضهما.

"لا تتأخري عن طلب مساعدتي بعد أن أغادر إن وجدت ضرورة لذلك". لقد مل العمل في المنزل، ولكنه على استعداد لمد يد العون لها، لعل الأمر المؤلم والمفرح في الوقت ذاته أنهما يفترقان من دون كره أو ضغينة. وعدها قائلاً: "سأترك لك معداتي". فرح لتركها وراءه وعدم الحاجة إلى استعمالها مجدداً.

قالت: "شكراً. يجدر بي تعلم استعمالها بسرعة".

سألها: "ماذا لو كان أحد المستأجرين لديك مجنوناً أو مجرماً أو فتاناً غريب الأطوار أو سارقاً؟". لكن بالرغم من قلقه، عرف أن فرانشيسكا امرأة قوية، وهي واعية تماماً لما تريده. لقد صمدت ثلاثين عاماً من دونه قبل أن يأتي. لذا، افترض أنها تستطيع تدبر أمرها بعدما يغادر. إلا أنه سيشتاق إليها. تبين أنها ليست المرأة المناسبة له، لكنه أحبها لكونها شخصاً مميزاً دخل حياته. سيهتم دوماً لأمرها، وأمل في أن تكون بخير. وتمنت له الشيء نفسه.

ردّت عليه بصرامة: "إذا كانوا مجانين، سأطلب منهم الرحيل".

صعد حينها إلى الأعلى إلى الغرفة حيث ينام. وأنهت هي كتابة الإعلان. تنوي تسليمه إلى الجريدة، ووضعه على شبكة الإنترنت في اليوم التالي. ويعلم الله حينها من سيتصل. يصعب تخيل العيش في المنزل مع ثلاثة غرباء. سيكون عالماً جديداً تماماً. تنوي التحقق من وضع الأشخاص عن كثب، علماً أنه لا يمكنهم الانتقال للسكن إلا حين يعثر تود على شقة. لكن بدت فكرة جيدة الشروع في البحث عن مستأجرين الآن. لا تعرف كم سيطول الوقت قبل العثور على ثلاثة أشخاص للعيش في المنزل معها.

شعرت بالكثير من الغرابة فيما خلدت إلى السرير تلك الليلة. إنها قلقة على رحيل تود. من المؤلم جداً انتظار مغادرة الشخص الآخر. والأكثر غرابة هو التساؤل عمن سينتقل للعيش في المنزل. 44 شارع تشارلز على وشك أن يصبح مكاناً مختلفاً جداً، وكذلك حياتها من دون تود.

الفصل الرابع

الاستجابات لإعلان فرانشيسكا كانت كثيرة، ومعظم المتصلين كانوا مروعين. ذهلت بما رغب معظم الأشخاص في قوله عن أنفسهم. بعضهم كانوا خارجين للتو من إصلاحية وقالوا إنهم لا يشعرون بالاستعداد لاستئجار شقة، ولذلك سيفرحون بالعيش معها. بدا أن الجميع أحبوا وصف المنزل. اتصل عدد من الأزواج بشأن الإعلان، وأخبرتهم فرانشيسكا بصراحة أن المساحات التي تنوي تأجيرها صغيرة جداً لا تستوعب أكثر من شخص واحد، ولا تشعر أنها مستعدة للعيش مع أكثر من ثلاثة أشخاص في المنزل. اتصل زوجان لديهما ولدان وأرادا استئجار اثنتين من المساحات الثلاث المعروضة، لكنها لم تجد ذلك مناسباً أيضاً. كانا يملكان صبيين في الثالثة والخامسة من العمر، وخشيت أن يدمرا منزلها. قال شخصان إنهما خرجا حديثاً من السجن، واعترف أحدهما أنه مغتصب، فيما قال الآخر إنه تمت إدانته بجريمة لم يرتكبها. أرادت أربع شابات استئجار المنزل مع بعضهن وسألنها إذا كانت مستعدة لترك المنزل لهن، لكنها لم تقبل طبعاً. فهذا يعارض الهدف الإجمالي لما تحاول القيام به من أجل الاحتفاظ بالمنزل. وكان ثلث إلى نصف المتصلين على الأقل يملكون حيوانات، والعديد منها بالحجم الكبير. لم تكن مستعدة لتحمل ذلك أيضاً. وبدأت تتساءل ما إذا كان سيتصل بها شخص طبيعي وسهل، من دون شريك، أو ولد، أو حيوان. بدأت تفقد الأمل وتتساءل ما إذا كان تود وأمها محقين.

قبل يومين من مناسبة الشكر، تلقت اتصالاً من امرأة شابة قالت إن اسمها إيلين فلاندرز. قالت إنها تخرجت حديثاً من لويولا ماريماونت في لوس

أنجلوس في شهر مايو، وهي بالأصل من سان دييغو، وحصلت للتو على عمل ووصلت إلى نيويورك. إنها أستاذة متخصصة في تعليم الأولاد المصابين بمرض التوحد. لم تقل أي شيء عن خضوعها لإعادة التأهيل، ولم تذكر أنها أمضت وقتاً في السجن، وقالت إنها لوحدها، ولا تملك أولاداً. إنها بداية مشجعة. لم تكف فرانشيسكا عن التساؤل ما إذا كان جسمها مغطى بالأوشام، لكن المحادثة الأولية عبر الهاتف كانت جيدة جداً. قالت إنها تأمل في الانتقال للعيش في المنزل بسرعة، لكنها تمكث حالياً في مسكن جماعي وتستطيع البقاء هناك لبضعة أسابيع إضافية، عندما شرحت فرانشيسكا أن المكان لن يكون متوافراً قبل الأول من يناير.

عثر تود على شقة في شارع إيست 81، قرب النهر. ينوي توضيب أغراضه والانتقال في الأسبوع الأخير من السنة، وقال إنه سيكون خارج المنزل في الأول من يناير. لذا، لا تريد استقبال أحد قبل هذا التاريخ. من المؤلم جداً لكليهما معاً العيش كالغرباء في المنزل، فيما يعانيان من الكرب العاطفي نتيجة تركه المنزل. قالت إيلين إنها لا تبالي، وأضافت أنها ستذهب لرؤية عائلتها في سان دييغو خلال عطلة رأس السنة. بدا الأمر جيداً لغاية الآن، وحددت فرانشيسكا موعداً مع إيلين لتأتي إلى المنزل بعد ظهر اليوم التالي.

في اليوم التالي، ارتاحت فرانشيسكا كثيراً عندما فتحت الباب ورأت إيلين واقفة أمام الباب الرئيس. كانت إيلين تنتعل حذاء رياضياً وسروال جينز، مع معطف أحمر بأربطة جلدية وقلنسوة، وقفازات بيضاء في يديها، وأغطية للأذنين. بدت مثل طفلة على بطاقة معايدة. كانت امرأة صهباء بشعر أحمر ونمش على الوجه وعينين زرقاوين، وكشفت عن أسنان بيضاء مثالية عندما ابتسمت. لم تكن تضع الماكياج، وبدت كأنها في الخامسة عشرة، وكانت متوترة فيما انتظرت للدخول إلى المنزل.

دعتها فرانشيسكا للدخول، وتحدثتا بعفوية في الردهة الرئيسة. نظرت إيلين من حولها، وعلّقت على مدى جمال المنزل. ثمة نافذة من الزجاج

الملون فوق الباب الرئيس، ودرج لولبي ضيق وإنما جميل يفضي إلى الأعلى. لمحت أيضاً مدفأة رخامية عبر الباب المفتوح لغرفة الجلوس، فيما شرحت فرانشيسكا أنها ستحتفظ بهذه الغرفة لاستعمالها الخاص. قالت إيلين إنه ما من مشكلة في ذلك، فيما أخبرتها فرانشيسكا أن بعض المفروشات الموجودة في المنزل ستنتقل، عندما يغادر رفيقها الحالي في المسكن، لكنها ستستبدلها بأسرع ما يمكن. الغرفة في الطابق العلوي كانت مفروشة بأشياء لا يريدها تود. وهي مستعدة لفرش الغرف الأخرى عند الضرورة.

رافقت إيلين إلى الطابق العلوي، حيث تبعثرت بعض ملابس تود على الأرض لأنه ينام هناك. أعجبت إيلين بالمنظر المطل على حدائق الجيران خلف المنزل، ثم ألقت نظرة على الحمام والخزانات وبدا أنها أحبت ما رأته. واستلطفتها فرانشيسكا. بدت امرأة مرتبة ونظيفة، فتاة من قرية صغيرة منتقلة إلى المدينة الكبيرة. قالت إنها البنت البكر بين ستة أولاد، وسألت ما إذا كانت توجد دار عبادة في الجوار. إنها كل ما تمنته فرانشيسكا في نزيل في منزلها. إنها مثال الجارة الودودة واللطيفة، فما من شيء مقلق أو مقرف فيها.

رافقتها فرانشيسكا بعد ذلك إلى الطابق الموجود تحت طابقها، وشرحت لها أنه سيتم تحويل غرفة الطعام والحجرة الصغيرة المجاورة لها إلى غرفة نوم. إنها أكبر من الطابق الأعلى وإنما مظلمة أكثر منه، لقد قامت وتود بطلاء الجدران بلون أخضر داكن، مناسب لغرفة طعام، لكنه ربما يكون مناسباً لغرفة نوم، أو قد يكون ذكوري الطابع بالنسبة لغرفة تقطنها أنثى. ولم تحب إيلين القسم الموجود بمحاذاة الحديقة. قالت إنها تخشى أن يأتي أحدهم إليها عبر الأبواب الانزلاقية. أضافت أنها تشعر بأمان أكثر في الطابق الأعلى. وأحبت المطبخ الريفي الصغير الذي قامت فرانشيسكا بتركيبه مع تود. أو بالأحرى، هو من قام بتركيبه وراقبته فرانشيسكا، وأعطته الأدوات، وحضرت له القهوة. إنها غرفتهما المفضلة في المنزل، وكذلك هي بالنسبة إلى إيلين.

قالت إيلين: "يبدو أن حباً كبيراً كان ينمو بين جدران هذا المنزل، فأومأت فرانشيسكا، وهي لا تعرف ماذا تقول. لم ترغب في أن ترى إيلين الدموع المتلألئة في عينيها. لقد نما الكثير من الحب في 44 شارع تشارلز، والكثير من الأمل. لكن كل تلك الآمال تبددت، وها هي تقف الآن مع هذه الفتاة الصغيرة من سان دييغو بدل تود. إنها الحياة، وهي دائماً غير منصفة. عقدت فرانشيسكا الصلح مع نفسها حيال هذا الموضوع خلال الأشهر الماضية، لكن الفراق صعب. والتحدث إلى إيلين بشأن انتقالها للعيش هنا حوّل الأمر إلى حقيقة يتوجب على فرانشيسكا مشاهدتها. إنها لغاية الآن أفضل مرشحة قابلتها فرانشيسكا. وإذا تم التأكد من صحة رصيدها ومراجعها، سترغب فرانشيسكا في تأجيرها الطابق الأعلى. أخبرتها عن بدل الإيجار المطلوب، ولم تتفاجأ إيلين. ليس مبلغاً كبيراً، لكنه كافٍ لتغطية ربع قيمة قسط الرهن الذي يتوجب على فرانشيسكا تسديده.

"أظن أنني أستطيع تدبر ذلك. ظننت أنني أستطيع الحصول على شقة خاصة بي، مع رفيقة لي في المسكن. لكن كل ما رأيته لغاية الآن لم يعجبني قطّ. إنه مبلغ كبير عليّ، لكنني سأتدبره، لقد أحببت فكرة العيش مع أشخاص آخرين. يشعرني ذلك بأمان أكثر ويخفف من وحدتي". هذا ما رأته فرانشيسكا أيضاً. "من هما المستأجران الآخران؟".

أخبرتها فرانشيسكا بصراحة: "أنت أول شخص رأيته لغاية الآن"، ثم أخبرتها أنها انفصلت عن الشخص الذي سيترك المنزل، وهذه هي المرة الأولى التي ستعيش فيها مع مستأجرين في هذا المنزل.

قالت إيلين بنبرة متعاطفة: "أنا آسفة. انفصلت عن شخص في لوس أنجلوس. لهذا السبب، تركت ذلك المكان. بدأنا نتواعد مباشرة بعد تخرجي، وتبين أنه مجنون. طردني عندما قلت له إنني أريد بعض المساحة لنفسي، تسلق إلى نافذتي ذات ليلة وحاول خنقي. تركت وظيفتي وجئت إلى نيويورك في اليوم التالي. حصل ذلك قبل شهر، وكنت محظوظة فعلاً بالعثور على وظيفة هنا". بدت مرتاحة فيما قالت ذلك، وشعرت فرانشيسكا بالأسف عليها.

بدت لطيفة وبريئة جداً، بحيث يصعب تخيل أي شخص يرغب في خنقها أو إخافتها.

قالت فرانشيسكا فيما خرجتا من المطبخ إلى الردهة الرئيسة: "من الجيد أنك ابتعدت. يوجد الكثير من المجانين هناك". فقد تحدثت مع العديد منهم بصفة مستأجرين محتملين هنا. "عليك توخي الحذر أيضاً في مدينة مثل نيويورك. هذه الضاحية آمنة جداً. أذهب إلى عملي سيراً على القدمين. فأنا أملك معرضاً فنياً على مسافة مبانٍ قليلة من هنا".

بدت إيلين متحمسة لسماع ذلك. "كم هذا مثير، أحب الذهاب إلى المعارض الفنية في عطلات نهاية الأسبوع".

أعطت فرانشيسكا حينها تفاصيل بطاقة اعتمادها، ورقم هاتف صاحب المنزل حيث سكنت في لوس أنجلوس. لقد عاشت هناك خلال عامها الأخير في جامعة لويولا ماريماونت ولمدة خمسة أشهر بعد تخرجها. عملت في ملجأ للأطفال بعد دوام الجامعة، وفي مركز للرعاية النهارية للأولاد ذوي الاحتياجات الخاصة بعد تخرجها. كل شيء فيها متكامل ولطيف. وعدتها فرانشيسكا بالاتصال بها ما إن يتحقق من كل شيء. ونظراً لحلول مناسبة الشكر خلال عطلة نهاية الأسبوع، ذكّرتها أنها لن تتمكن من فعل ذلك قبل الاثنين، لكنها ستفعل ذلك حتماً. أجابت إيلين إنه لا مشكلة في ذلك، وأملت في أن تسمح لها فرانشيسكا بالانتقال للعيش معها. أحبت إيلين منزل فرانشيسكا كما أحبتها، فقد شعرت بالدفء كمن يعيش في منزله، بدا هذا مثالياً لهما. إنها بالضبط من نوع المستأجرين الذين أرادتهم فرانشيسكا، أي الذين لا تضطر إلى القلق بشأنهم. نادراً ما يمكن العثور على شخص مستقيم ونظيف بهذا القدر. رأت فرانشيسكا أنها ستكون محظوظة إن كان كل المستأجرين لديها مثل إيلين.

عثور فرانشيسكا على أول مستأجر لديها رفع من معنوياتها خلال عطلة مناسبة الشكر. أدركت أن المناسبة لن تكون سهلة عليها هذه السنة، فهي المرة الأولى التي تمضي فيها المناسبة من دون تود منذ خمس سنوات،

فهو سيذهب لتمضية العطلة مع عائلته في بالتيمور، فيما ستمضي هي العطلة في منزل والدها، وهي تعرف أن أمها ستكون في بالم بيتش مع أصدقائها.

التقت فرانشيسكا بتود ذلك الصباح في الردهة قبل مغادرتهما المنزل. تبادلا نظرة ألم طويلة وصامتة، ثم عانقها.

قالت له بهدوء: "استمتع بالحبش اللذيذ".

أجابها: "وأنت أيضاً". وطبع قبلة سريعة على وجنتها، ثم خرج مسرعاً. فشعرت بالغرابة مجدداً فيما تنهدت وخرجت إلى سيارتها المركونة في شارع تشارلز. شعرت وكأن عملية الانفصال طالت جداً، وبدا لها أن الانفصال وألمه لن ينتهيا، وشعرت بالحيرة هل أن طول مدة الانفصال هي لصالحها أم لا من الناحية العاطفية.

فكّرت في إيلين مجدداً فيما توجهت إلى كونيكتيكوت، وكانت مسرورة جداً لأنها وجدتها. بدت مثالية تماماً بالنسبة إليها. أملت في أن تكون حسابات بطاقة اعتمادها إيجابية، وكذلك المراجع من صاحب المنزل حيث كانت تعيش.

عندما وصلت فرانشيسكا إلى منزل والدها عند الظهر، كان هناك عشرة أشخاص تقريباً يشربون الشراب ويجلسون قرب المدفأة، فيما تولت أفيري وطاهٍ تنظيم الأمور في المطبخ. بدا الحبش مذهلاً بلونه الذهبي الغامق. تنوي فرانشيسكا تمضية الليل معهما بعد العشاء بحيث لا تضطر إلى العودة بسرعة إلى المدينة. معظم المدعوين الآخرين كانوا فنانين أو من السكان المحليين. حضر أيضاً جيرانهم، الذين يملكون مزرعة جميلة، ووكيل أعمال هنري في نيويورك. إنهم مجموعة فنية مثقفة ومثيرة وحيوية. تعرف فرانشيسكا معظمهم، ولطالما استمتعت مع أصدقاء والدها وأفيري. لم يكن والداً حقيقياً بالنسبة إليها، إلا في الأونة الأخيرة، لكنه رفيق جيد، ويعاملها بمثابة صديقة عزيزة أكثر من ابنة. لم يعد يزعجها الأمر، لكن لطالما شعرت أنها مخدوعة به حين كانت صغيرة، وأرادت والداً حقيقياً، مثل كل الآخرين، وليس والداً

غريب الأطوار مع حلقة متبدلة باستمرار من الصديقات في عمر الثانية والعشرين. لقد تحسنت الأمور كثيراً عندما تزوج أفيري، لكن فرانشيسكا أصبحت في الخامسة والعشرين حينها. في الخامسة والثلاثين، تقبلته مثلما هو، رجلاً موهوباً، طيب القلب، غير مسؤول، وممتع الرفقة. وشعرت بالامتنان لمساعدته في المعرض الفني مؤخراً.

أخبر الجميع خلال الغداء أنه أصبح الآن شريكها في المعرض الفني. بينما بلّغها وكيل أعماله بهدوء بعد الغداء أنه باع للتو لوحة أخرى من لوحات والدها التي تخصها، بسعر مذهل، وستتمكن بالتالي من دفع قسط جديد إلى تود. بفضل اللوحات الفنية الأربع، استطاعت تقريباً تسديد كامل المبلغ له. يكفيها بيع لوحة أخرى إضافية. ويتيح لها ذلك الاحتفاظ بلوحة واحدة. لقد تمّ كل شيء على ما يرام، وخلال وقت قصير جداً. كل ما عليها فعله الآن هو العثور على مستأجرين آخرين لدفع أقساط الرهن معها.

أمضت الليل في منزل والدها وأفيري، وعادت إلى المدينة بعد ظهر يوم الجمعة. أغلقت المعرض الفني ليومين، لكنها تنوي إعادة فتحه يوم السبت. يأتي الكثير من الأشخاص لمجرد النظر إلى اللوحات يوم السبت، إضافة طبعاً إلى الشارين المحتملين. إلا أن ذلك السبت كان يوماً حافلاً لحسن الحظ، ودخل العديد من الأزواج الشبان. تجولوا في المعرض بعصبية في البداية، خشية أن تكون أسعارها باهظة جداً عليهم، ثم تحمسوا عندما اكتشفوا أن الأسعار تناسب ميزانيتهم. هذا هو الهدف الأساسي من عملها. أرادت جمع هواة الفن الشباب مع فنانين مبتدئين. باعت ثلاث لوحات جميلة جداً لاثنين من الأزواج. اللوحات كانت كبيرة، بأسعار معقولة، ومناسبة لمنزلهما. كانت الأسعار منخفضة جداً بحيث لم تحقق الكثير من الربح المادي، لكن بيع اللوحات الثلاث جعلها ترقص فرحاً وعرفت أن الفنانين الثلاثة الشباب سيتحمسون بقدر الأشخاص الذين اشتروا لوحاتهم. الفن الذي يبيعونه جميل، وكانت فخورة به وبكل واحد من الفنانين. الأشخاص الذين اشتروا منها اللوحات الفنية في عطلة نهاية الأسبوع كانوا مسرورين جداً. هذه

هي الحال دوماً. تتحرق شوقاً لإخبار الفنانين، الذين هم جميعاً بحاجة ماسة إلى المبيعات. تشعر كأنها أم حاضنة لكل واحد منهم. وفي اليوم السابق، امتلأت حيوية بعد التحدث إلى أصدقاء والدها، علماً أن بعضهم من الفنانين المهمين والمشهورين جداً. تحب كل شيء في حياتها في عالم الفن، وتحب كونها جزءاً من هذا العالم. إنها الرابط بين المبتكرين، وبعضهم من الموهوبين جداً، وهواة جمع فنهم. هذا هو بالضبط ما أرادت فعله، وما تعرفه جيداً. إنها تعيش ذلك وتتنفسه. تملك عيناً ثاقبة على الفنانين الجدد، وتعطيهم نصائح مهمة، وتعرف جيداً ما هي اللوحات التي تباع. لهذا السبب كانت مقتنعة أنها إذا منحت نفسها وقتاً كافياً، سيحقق المعرض الفني نجاحاً كبيراً. غالباً ما تمضي ساعات في الاستوديو مع فنانيها، تتحدث عن عملهم أو ترشدهم إلى مرحلة جديدة من عملهم. لذا، يكنّون لها احتراماً كبيراً.

أمضت نهار الأحد وهي تنظف الخزانات، وتجهز الطابق الأعلى لمستأجرتها الجديدة. صباح يوم الاثنين، اتصلت بصاحب المنزل حيث كانت تسكن إيلين في لوس أنجلوس، وبدأت التحقق من بطاقة اعتمادها. قال صاحب المنزل إنها امرأة شابة لطيفة، ولم تسبب له أية مشاكل، وكانت تدفع إيجارها في الوقت المحدد. وبعد ثلاثة أيام، جاءت نتيجة التحقق من بطاقة اعتمادها نظيفة. لا تملك أي تاريخ من الدعاوى القضائية، أو الإفلاس، أو الاعتمادات السيئة، أو الفواتير غير المدفوعة. اتصلت بها فرانشيسكا وأخبرتها أنها تستطيع الانتقال للعيش معها في 2 يناير، بعد يوم واحد من مغادرة تود، فطارت إيلين من الفرح. كل ما يتوجب الآن على فرانشيسكا فعله هو العثور على مستأجرين جديدين. وحسبما تبين لها الشهر الماضي، لن يكون الأمر سهلاً. إيلين بمثابة جوهرة نادرة بالنسبة إلى المرشحين الذين تقدموا. لكن لا بد أن يكون هناك شخصان آخران مثلها، أو قريبين منها، في مكان ما في نيويورك. لا تزال تعرض الإعلان، لكنها لم تحصل في الأسابيع القليلة التالية إلا على عجائب وغرائب. وفي بعض الأحيان، كان المتصلون سيئين جداً بحيث كل ما استطاعت فعله هو الضحك بعد إنهاء المكالمة.

في عطلة نهاية الأسبوع التالية لمناسبة الشكر، تناولت العشاء مع أمها في مطعم فرنسي صغير تحبانه، وأخبرتها – بانتصارها – أنها وجدت إيلين. لا تزال أمها تظن أنها مجنونة، لكنه رأي كوّنته فرانشيسكا عنها طوال أعوام عدة. فهي لا تقبل أن تكون أمها رفيقتها في المسكن أيضاً.

أخبرت تاليا ابنتها عن كل المناسبات الاجتماعية التي شاركت فيها في بالم بيتش. تملك دوماً حياة اجتماعية ناشطة بقوة، مع ولع كبير بالمنتجعات السياحية الراقية في بالم بيتش، وسان تروبيز، وسردينيا، وسان موريتز، وغستاد، وسان بارتس في الشتاء. لم تعمل أبداً في أية وظيفة، وبفضل أزواجها السابقين، تستطيع تحمل نفقات ما تريده. إنها امرأة تدلل نفسها إلى أقصى الحدود، ورأت فرانشيسكا أنها تفرط في الدلال. لا تفكر في أحد إلا في نفسها. لقد ذهبت إلى حفل مذهل للمبتدئات في عطلة نهاية الأسبوع السابقة في بالم بيتش وكانت تصف لفرانشيسكا ما ارتدته بالتفصيل الممل. بدت ملابسها أنيقة جداً، لكن فرانشيسكا لا تبالي. إنها معتادة على إصدار الأصوات الصحيحة واختيار التعابير المناسبة للتظاهر بالانتباه. لا تتخيل كيف اتفق والداها مع بعضهما، بالرغم من أن والدها كان شاباً وجذاباً جداً في أيامه، وأصبحت أمها مدللة ومتفاخرة بنفسها بعد ذلك.

لا تزال امرأة جميلة لافتة، طويلة ونحيلة، شقراء مثل ابنتها، مع عينين خضراوين كبيرتين، أما بشرتها فناعمة. لا تزال تحافظ على لياقتها بمساعدة مدرّب، وهي تنتبه كثيراً إلى ما تأكله. ارتدت معطفاً من الفرو أثناء الغداء، ووضعت أقراطاً من الياقوت الأزرق في أذنيها، تناغماً مع فستان صوفي كحلي أنيق من ديور. وانتعلت حذاء جذاباً ذا كعب عالٍ. يحوم الرجال دوماً حولها كما يحوم النحل حول الأزهار، ولا يزالون حتى اليوم، لكن أياً منهم لم يأخذها على محمل الجد منذ وقت طويل. إنها مخبولة قليلاً، متطرفة نوعاً ما، وتبدو مدللة جداً. وعند الإشارة إلى أن أمها "ملونة" أرادت فرانشيسكا القول إنها مجنونة قليلاً. سوف تذهب إلى منتجع سياحي متخصص في إنقاص الوزن بعد العطلة للحفاظ على رشاقتها، وتريد شفط الدهون من بطنها

في فصل الصيف. لا تزال تبدو رائعة في البيكيني. وكذلك هي فرانشيسكا، لكنها نادراً ما تملك الوقت لارتدائه. ولم تستطع إلا الضحك على أقدامهما تحت الطاولة، عندما سحبت فوطتها التي انزلقت عن حضنها. كانت أمها تنتعل الحذاء ذا الكعب العالي من الجلد الأسود اللماع هو أروع ما رأته عينيها. أما فرانشيسكا فقد سلّمت لوحتين فنيتين لزبائنها قبل الغداء وكانت ترتدي سروال جينز وتنتعل حذاء رياضياً. لا تشبه المرأتان بعضهما على الإطلاق.

سألت تاليا فرانشيسكا بابتسامة مشرقة: "ماذا ستفعلين خلال العطلة؟". كما لو أنها ابنة امرأة أخرى، أو ابنة أختها التي تراها مرة واحدة في السنة. السؤال أوضح جلياً أن تاليا لا تنوي قضاء العطلة معها. لم تفعل ذلك يوماً. تذهب عادة للتزلج في سويسرا، أو إلى سان بارتس في الكاريبي، خصوصاً إذا دعاها أحدهم إلى يخته، وهذا ما يحصل غالباً. حياة تاليا بمثابة إجازة مستمرة طوال السنة.

قالت فرانشيسكا بغموض مجيبة عن سؤال أمها: "قد أمضي العطلة مع والدي".

قالت أمها وقد اكفهر وجهها: "ظننت أنه ذاهب للتزلج في أسبن. هذا ما قالته أفيري حسبما أعتقد. لقد مضى وقت على آخر حديث بيننا".

"إن كانا يخططان لشيء من هذا القبيل أبقى حينها في المنزل. سأبقي المعرض الفني مفتوحاً خلال ذلك الأسبوع على أية حال، وسينقل تود أغراضه".

"هذا مؤسف جداً. كان يجدر بكما الزواج. كنتما بقيتما مع بعضكما".

أجابت فرانشيسكا ببديهية: "لم ينجح الزواج يوماً في إبقاء اثنين مع بعضهما عندما يفشل".

ابتسمت لها أمها ابتسامة عذبة: "هذا صحيح. يبدو دوماً أنني أقع في غرام شخص آخر". لم تذكرها فرانشيسكا أن هذا لم يحصل منذ وقت طويل.

أضافت بتعبير حالم ومتفائل: "قد ألتقي ربما بأحدهم في سان بارتس". تأمل دوماً الوقوع في الغرام مجدداً والزواج. بالنسبة إلى تاليا، الحياة من دون زوج هدر للوقت. إنها تسعى دائماً وراءه.

بدّلت فرانشيسكا الموضوع، وأخبرتها حينها عن المستأجرة الجديدة لديها، وقطّبت أمها وجهها دليل عدم الموافقة. "لا أبالي إذا كانت فتاة كشفية وتبدو مثل بو بيب الصغير. ما زلت أعتقد أنك مجنونة للعيش مع غرباء. لا تعرفين من هم أولئك الأشخاص، أو ماذا سيفعلون".

"لا أملك أي خيار آخر، ماما، إذا أردت الاحتفاظ بالمنزل".

"من الأفضل أن تعيشي في شقة صغيرة بمفردك".

"لا أريد شقة. أحب منزلي".

"لا يمكنك العيش في منزل من دون رجل. ليس هذا آمناً".

قالت فرانشيسكا برقة: "قد يكون أحد المستأجرين لديّ رجلاً"، وهي تفكر في الأشخاص الذين تحدثت إليهم، وكم كان معظمهم غير ملائمين، لكنها لم تخبر أمها بذلك.

قالت تاليا: "أنت بحاجة إلى زوج فرانشيسكا، وأنا أيضاً"، ثم ضحكت. لا توافق فرانشيسكا على كلا الأمرين لكنها لم تقل ذلك. فأمها تقول دوماً مثل هذه الأشياء ولم تعد تقبل عرضها. لا جدوى من ذلك.

سألتها: "متى ستغادرين إلى سان بارتس ماما؟". في محاولة للانتقال إلى مواضيع حيادية.

"في الثاني أو الثالث والعشرين من الشهر. أتحرق شوقاً لذلك. لقد سئمت جداً من الشتاء. سأذهب للتزلج في سويسرا مباشرة بعد ذلك. يجدر بك محاولة الذهاب بعيداً في العطلة". تعيش أمها في كوكب آخر، كله حفلات وعطلات، ولم تدرك يوماً كم تعمل فرانشيسكا بكدّ. كل الذي تملكه فرانشيسكا، حققته لوحدها، وصنعته من الصفر. دفع والدها أقساط تعليمها، وأعالت نفسها منذ ذلك الحين. والمال الذي حصلت عليه أمها كنفقة من أزواجها السابقين احتفظت به لنفسها. تشعر أنه حق لها.

غادرت فرانشيسكا بعد الغداء وهي تشعر بالشيء نفسه الذي تحس به كلما رأت أمها، أي بفراغ عاطفي. ما من شيء مرضٍ في أحاديثهما الخالية دوماً من أي شيء عميق أو ذي معنى. على الأقل، لقاءاتها مع والدها ممتعة.

جاء إلى المعرض الفني ذلك الأسبوع، واشترى لوحة صغيرة لأفيري رأى أنها ستحبها. حسمت له مبلغاً بصفته شريكاً، مما جعل اللوحة زهيدة جداً، لكنه أحب العمل الذي تبيعه. تأثر لذهابها باستمرار إلى معارض فنية في مدن أخرى لاكتشاف فنانين جدد وتمضية ساعات في محترفات فنانيها، تناقش أعمالهم الجديدة معهم. ورأى أن معظم ما تملكه في المعرض الفني جيد جداً. أحس بقوة أن واحداً أو اثنين من الفنانين الذين تعرض لهم سيكون لهما مستقبل زاهر يوماً ما. أخبرته أن الفنان الذي اشترى للتو لوحته يبيع جيداً، وقد باع عدة لوحات أكبر حجماً منذ مناسبة الشكر، رغم أن والدها رأى أن أسعارها منخفضة جداً، وعادلة جداً. قالت إن الأشخاص يرغبون على ما يبدو في إنفاق مالهم بشكل صحيح في العطلات. فرح والدها كثيراً لأنه باع للتو لوحة مهمة جداً. ينوي شراء سيارة جديدة لأفيري، من نوع رانج روفر، من بعض المال الذي ادخره. لطالما أرادت واحدة، وبالرغم من نجاحها، لا تزال تقود سيارة تويوتا قديمة بصرّ هزري على أنها غير آمنة، لكنها ترفض السماح له باستبدالها. سوف يفاجئها بالسيارة قبل أن يغادرا إلى أسبن.

صعقت فرانشيسكا عندما أغلقت المعرض الفني ليلة الكرسمس لأن أياً من والديها لم يهتم لما ستفعله في الليلة. يملكان دوماً مشاريعهما الخاصة. لقد أحست بمعنى الكرسمس فقط في السنوات التي أمضتها مع تود، إلا أنه يملك هذه السنة مشاريعه الخاصة، فيما لا تملك أي مشروع. هناك أصدقاء وفنانون يمكنها الاتصال بهم، لكنها لا تحب ذلك. كما أنها رفضت دعوتين. تشعر باليأس هذه السنة وتريد أن تكون بمفردها. سوف يغادر تود المنزل بعد أيام قليلة، وكانت صناديقه مكدسة في الردهة عندما وصلت إلى المنزل.

شاهدت الأفلام وتناولت عشاء صينياً جاهزاً. لم تقم بالتحضيرات السنوية للمناسبة أرادت أن تمر بأسرع ما يمكن. ومع مطلع العام الجديد، يمكنها بدء حياة جديدة، بمفردها مجدداً.

اتصل بها والداها وتمنيا لها السعادة، ورأت تود أثناء خروجه من المنزل يوم الخامس والعشرين من ديسمبر. لوّح لها، وابتسم، وكان يتحدث عبر هاتفه الخلوي فيما غادر. لاحظت أنه يرتدي بذلة رسمية، وتساءلت إلى أين يذهب ومع من؟ يصعب التصديق الآن أنهما عاشا يوماً مع بعضهما، أو كانت بينهما أشياء مشتركة.

قامت بنزهة طويلة حول ويست فيلاج بعد ظهر ذلك اليوم، وابتسمت للأزواج الذين رأتهم يتنزهون مع أولادهم. بعضهم كانوا يحملون كدسات من الهدايا إلى منزل أحد ما، إنه من الغريب أن تكون بمفردها في مثل هذا اليوم لكنها لم تمانع ذلك. فهذا أسهل من الادعاء أنها سعيدة. فكرت في أمها على اليخت في جزر الكاريبي، على أمل اللقاء برجل، ووالدها وأفيري في أسبن، وفرحت لكونها لوحدها هذه السنة. خلدت إلى النوم باكراً تلك الليلة وفرحت لأن اليوم انتهى.

أخيراً جاء اليوم الذي خشيت منه منذ أشهر. خلدت إلى السرير في التاسعة مساء ليلة رأس السنة، وكانت نائمة نوماً عميقاً بحلول منتصف الليل، وفي الصباح استطاعت سماع تود يتحرك على السلالم صعوداً ونزولاً، بنقل صناديقه. استأجر شاحنة، وأحضر معه صديقين لمساعدته. دخلت فرانشيسكا إلى غرفة الجلوس في الوقت الذي كانوا يرفعون فيه الأريكة. لقد اتفقا قبلاً على ما سيحتفظ به كل منهما، وقد دفع هو ثمن الأريكة. كانت قطعة مفروشات جميلة من الجلد البني، تناغمت بشكل جيد مع ديكورهما، وعرفت أنها ستضطر لشراء أريكة جديدة. وافق على أن تحتفظ هي بالسرير ومعظم الأشياء الموجودة في غرفة نومهما، بالرغم من أنه دفع ثمنها أيضاً. إلا أنه أراد الأريكة وكرسيين كبيرين يتناغمان معها، لوضعها في شقته الجديدة. حاولت فرانشيسكا ألا تشعر بالانقباض في معدتها فيما رأتهم

يغادرون. شعرت كأنه يتم تقطيع أنحاء جسمها وتوضيبها في علب منفصلة، فيما قلبها موجود في مكان ما بين فقاعات النايلون والفلين.

انتهى كل شيء بحلول بعد ظهر يوم رأس السنة. امتلأت الشاحنة كلها بالصناديق، وجاء تود للبحث عنها، فرآها واقفة في المطبخ، محطمة، تنظر خارجاً إلى الحديقة.

قال بهدوء: "سأغادر"، فيما استدارت لمواجهته، ورأى الدموع تنهمر على وجنتيها. أخذها بين ذراعيه، وكان يبكي هو أيضاً. "أعرف أن هذا غباء الآن، لكني أحبك. أنا آسف لما آلت إليه الأمور".

"وأنا أيضاً. أنا أحبك أيضاً". لكن مهما كان الأمر مؤلماً، ومهما كانا يهتمان لأمر بعضهما، عرفا أن هذا الانفصال هو لصالحهما. لم تنجح علاقتهما.

"اتصلي بي إذا احتجت إليّ. سآتي لمساعدتك في أي وقت". أومأت، عاجزة عن التفوه بكلمة أخرى. بعد ذلك، قبّل جبينها واستدار، وصعد على السلالم، فيما وقفت في المطبخ وبكت. سمعت الباب الأمامي ينغلق بعد دقائق قليلة. لقد ذهب. شعرت وكأن قلبها انسلخ منها، وعرفت أنه يعاني كما تعاني. يصعب تصديق ذلك، لكنه حصل في النهاية. المنزل لها، وأيامه في 44 شارع تشارلز انتهت. كل ما تستطيع فعله الآن هو المضي قدماً. عرفت أنه فعل ذلك قبلها.

الفصل الخامس

في اليوم التالي لمغادرة تود، أحضرت فرانشيسكا الأزهار لكل غرفة تقريباً. نظفت المطبخ والممرات، وجالت في الطابق العلوي للتأكد من أن كل شيء مرتب، وعندما وصلت إيلين عند الظهر، بدا المنزل كله رائعاً. ابتسمت ابتسامة عريضة فيما دخلت، وكانت فرانشيسكا مستعدة لاستقبالها. أحضرت إيلين أربع حقائب معها وعدة صناديق، وثلاثة أكياس تسوق مليئة بالأحذية. أشارت إليها بإحراج فيما ساعدتها فرانشيسكا على نقلها إلى الطابق العلوي.

"أنا آسفة. جنّ جنوني خلال العطلة. شعرت بالكثير من الاكتئاب بحيث اشتريت الكثير من الأحذية. لم تتسع لها حقيبتي".

ابتسمت لها فرانشيسكا. "لا داعي للقلق. أنا معتادة على ذلك. أمي مولعة أيضاً بالأحذية. أنا مدمنة على أحذية نايك الرياضية. أما أمي فتنتعل الكعب العالي الذي يسبب لي الدوار".

اعترفت إيلين قائلة: "أنا أحبها أيضاً" فيما وضعتا أغراضها في غرفة النوم في الطابق العلوي، ونزلت مجدداً إلى الأسفل لإحضار مجموعة جديدة.

سيطر شعور مختلف تماماً على المنزل بعد ظهر ذلك اليوم. في اليوم السابق، كانت تبكي، وها هي اليوم متنبهة وتشعر بالحرية. لقد سقط القناع أخيراً. رحل تود، وحزنت لرحيله، لكنها ليست محطمة مثلما كانت عندما رأته ينقل أغراضه إلى الشاحنة ويغادر. لقد انتهى الأسوأ. عدم وجوده لن يحدث الكثير من الفرق، لأن حياتهما انفصلتا منذ أشهر. فكرت أنه من الممتع رؤية فتاة في المنزل، عندما رأت إيلين في المطبخ لاحقاً بعد ظهر ذلك اليوم. إنه يوم الأحد وبالتالي فإن المعرض الفني مغلق، وبقيت فرانشيسكا في المنزل.

ابتسمت إيلين ابتسامة عريضة عندما رأتها. تتصرف مثل طفلة صغيرة.

"أحب غرفتي. إنها جميلة جداً. وشكراً لك على الأزهار". وضعت فرانشيسكا وعاء من القرنفل الوردي والورد في غرفة نومها. بدت إيلين مسرورة جداً. "أشعر أنني وصلت أخيراً إلى المنزل. أنا أعيش مع الحقائب منذ أن وصلت إلى هنا. سيكون رائعاً حصولي على مكان خاص بي". ولم تمانع تسلق السلالم العالية للوصول إلى الطابق العلوي. لاحظت وجود كمبيوتر على طاولة المطبخ وبدت متفائلة. "هل تمانعين إذا تحققت من بريدي الإلكتروني؟ لا أملك جهاز كمبيوتر محمول بعد".

"لا بأس". لم تمانع فرانشيسكا. إنه كمبيوتر محمول تتركه دوماً في المطبخ ونادراً ما كانت تستعمله مع تود، لكن بدا جيداً وجود واحد هنا. لديها كمبيوترها الخاص في مكتبها.

"لن آخذ أكثر من دقيقة واحدة". دخلت إيلين إلى حسابها في البريد الإلكتروني وابتسمت فيما قرأت رسائلها الإلكترونية. ضحكت بصوت عالٍ عند قراءة إحداها، وابتسمت فرانشيسكا فيما غادرت المطبخ، وعادت إلى الأعلى. من الجميل وجود أحد في المنزل. أصبح المنزل أكثر حيوية وسعادة مما كان طوال أشهر عدة. شعرت بالأسف تقريباً لأنها مضطرة للعثور على مستأجرين آخرين في المسكن. فمن الممتع ربما مشاركة المنزل مع إيلين فقط، لكنها لا تستطيع تحمل نفقة ذلك. عليها إيجاد مستأجرين آخرين، لكن لم يظهر أي واحد محترم بعد إيلين. فالمجانين وغريبو الأطوار ظهروا مجدداً استجابة لإعلاناتها قبل العطلة. اتصلت امرأة واحدة محترمة انتقلت للتو من أتلنتا إلى نيويورك، لكنها عثرت على مسكن آخر قبل أن تأتي حتى لرؤية المنزل في شارع تشارلز. وتوجّب على فرانشيسكا العثور على نزيل سريعاً. لا يمكنها تحمل نفقة أقساط الرهن بمجرد الإيجار الذي تدفعه إيلين.

أخذت فرانشيسكا قيلولة صغيرة بعد ظهر ذلك اليوم، علماً أنها نادراً ما تفعل ذلك، لكنها لا تزال متعبة بعد الإرهاق العاطفي نتيجة وداع تود في

اليوم السابق. وعدها بالاتصال، لكنها لا تعرف ما إذا كان سيفعل ذلك فعلاً، أو ما إذا كانت تريده حتى أن يفعل ذلك. لا تريد خسارة الاتصال به، لكنها لا تريد أن تكون أيضاً على اتصال دائم به. يجدر بهما المضي قدماً ليشق كل منهما طريقه.

نزلت فرانشيسكا إلى المطبخ في وقت العشاء، وكانت إيلين هناك. كانت تتناول طبقاً من الحساء، وجالسة أمام الكمبيوتر. اعتذرت ما إن دخلت فرانشيسكا إلى المطبخ، وسكبت لنفسها كوباً من الحليب وأمسكت تفاحة. الحساء الذي حضرته إيلين كان خاصاً بها- حرصت على عدم تناول أي شيء من طعام فرانشيسكا. رأت فرانشيسكا أن هذه علامة جيدة بأنها ستكون رفيقة محترمة في السكن.

جلست أمام الطاولة، ورأت أن إيلين متصلة بأحد مواقع المواعدة عبر الشبكة، وتنظر إلى صور فوتوغرافية على الشاشة.

سألتها فرانشيسكا: "هل جربت هذا يوماً؟ أنا أحبه. الأمر أشبه بطلب شبان بدل طلب الطعام. بدأت أفعل ذلك في الجامعة. التقيت ببعض الشبان الرائعين في لوس أنجلوس وسان دييغو. خرجت مع واحد منهم لمدة عام تقريباً، إلى أن انضم إلى المارينز".

"لا أظن أن الأشخاص ما زالوا يفعلون هذا، لم أواعد أحداً عبر شبكة الإنترنت. يبدو هذا خطراً جداً. أخاف من الشخص الذي قد ألتقي به. فما من عملية فحص مسبقة". فكرة لقاء الرجال عبر شبكة الإنترنت تخيفها فعلاً. بدا الأمر يائساً جداً بالنسبة إليها. تشعر بأمان أكثر عند التعرف إلى رجال عبر أصدقاء، بالرغم من أنها تعرف العديد من الأشخاص الذين التقوا برجال، وحتى بأزواجهم، عبر شبكة الإنترنت.

"تطورين حاسة سادسة بشأن حقيقة أولئك الرجال. التقيت فقط بواحد أو اثنين مروعين".

سألتها فرانشيسكا باهتمام: "هل تفعلين ذلك غالباً؟". فاجأها أن تكون شابة جميلة ومحترمة وحيوية مثل إيلين راغبة أو محتاجة إلى لقاء الرجال

عبر شبكة الإنترنت. يمكنها الحصول على أي رجل تريده. لكن فرانشيسكا عرفت أيضاً أنه من غير السهل التعرف إلى رجل عازب محترم، ولذلك وجدت خدمات المواعدة عبر شبكة الإنترنت.

"ليس تماماً. إنه مصدر لهو جيد حين لا أملك شيئاً آخر لفعله". جعل فرانشيسكا تتساءل ما إذا كانت بحاجة إلى تحديد نوع من الضوابط بشأن إحضار أشخاص إلى المنزل، لكنها أدركت أنها لا تملك الحق في ذلك. إنها مؤجرة المنزل وليست المستشارة في مسكن للفتيات، أو أمها. كلاهما راشدتان ولكل منهما حياتها، ومن تحضر إيلين إلى المنزل هو من شأنها الخاص وليس من شأن فرانشيسكا. لذا، لم تقل أي شيء. صعدت إلى الأعلى وهي تأكل تفاحتها، وتركت إيلين وحدها في بحثها. إذا التقت بالرجال عبر شبكة الإنترنت، فهذا عائد لها، سواء بدا الأمر حكيماً بالنسبة إلى فرانشيسكا أم لا.

لم تفكر فرانشيسكا في المواعدة حتى الآن، ولا تريد ذلك. ليست مستعدة. إيلين مليئة بالحياة، وتحاول التعرف إلى أشخاص في مدينة جديدة. أما فرانشيسكا فهي أكبر سناً وأكثر حذراً. خدمات المواعدة عبر شبكة الإنترنت لم ترق لها يوماً. إذا التقت برجل، سيكون ذلك وفق الطريقة التقليدية القديمة، عبر الأصدقاء، أو في لقاء اجتماعي معين، أو في المعرض الفني. لكنها لا تريد حتى اللقاء برجل في الوقت الحاضر، ولا الشروع في المواعدة. لا تملك الوقت على كل حال، والشيء الوحيد الذي تريده عبر شبكة الإنترنت هو العثور على مستأجرين جديدين في المسكن.

أخيراً، حصل ذلك بعد أسبوعين، في منتصف شهر يناير. حصلت على جواب من رجل بدا عاقلاً. قال إنه مصمم هندسي يعمل من المنزل في معظم الأوقات، ويسافر بين الحين والآخر بداعي العمل، وقال إنه قادر على تسديد الإيجار، ويبحث عن مسكن مثل ذلك الذي تعرضه. أضاف أنه مطلّق حديثاً، ولا يملك أثاثاً، ويحتاج إلى غرفة نوم ومكتب صغير ليضع فيه طاولة الرسم وجهاز الكمبيوتر. الطابق الثاني غير المأهول حالياً، حيث كانت غرفة الطعام، بدا مناسباً له. حددا موعداً لكي يأتي ويرى المنزل. ذكر أنه في

الثامنة والثلاثين، وعندما جاء للقائها، أخبرها أن لديه ابناً في السابعة من عمره، يمضي معه العطلة كل أسبوعين.

سأل، وهو يبدو قلقاً: "هل من مشكلة في ذلك؟". فقد عثر قبلاً على العديد من المساكن المماثلة، لكن أياً لم يقبل باستقبال الأولاد. ترددت فرانشيسكا برهة قبل أن تجيب ثم أومأت برأسها.

"أعتقد أنه لا مشكلة في ذلك طالما أنه لن يكون موجوداً هنا طوال الوقت". عطلتان لنهاية الأسبوع يمضيانها معاً، في الشهر أمر عاديّ بالنسبة إليها، وبدا كريس هارلي مرتاحاً. كان رجلاً طويلاً ونحيلاً، مع شعر أشقر وعينين رماديتين وتعابير جدية. بدا شاحباً جداً وكأنه لم ير الشمس منذ أعوام. كان وسيم المظهر لو أنه لم يكن كئيباً هكذا.

تحدث قليلاً خلال لقائهما، باستثناء سؤاله عن ابنه. نظر إلى الغرف، وبدا راضياً، وقال بصوت خافت وهادئ: "سأستأجر المكان". لم يقل آآآه وأوووه مثلما فعلت إيلين. ولم يعلّق أبداً. بدا منعزلاً جداً بالنسبة إلى فرانشيسكا، لكنها لم تمانع ذلك أيضاً. ليس هذا موعداً غرامياً، ولا حاجة إلى أن يستلطفا بعضهما البعض، ويتعرفا إلى بعضهما البعض ويصبحا صديقين. كل ما تحتاج إلى معرفته هو ما إذا كان شخصاً مسؤولاً وقادراً على دفع الإيجار. بعدما أرته غرفه، رافقته إلى الأسفل لإلقاء نظرة على المطبخ، والاطلاع على القسم الواقع بمحاذاة الحديقة. لكنه قال إنه أحب القسم الموجود في الطابق الثاني. القسم الموجود بمحاذاة الحديقة بدا صغيراً جداً بالنسبة إليه، ولم يشأ أو يرغب في أن يكون قريباً جداً من المطبخ. عرض شراء مفروشات غرفة النوم، وبدا هذا مناسباً لها.

كانت إيلين في المطبخ عندما نزلا لرؤيته، وكانت جالسة أمام الكمبيوتر مجدداً، مثلما تفعل معظم الوقت، ليس فقط للبحث عن مواعيد غرامية محتملة، وإنما أيضاً لكتابة الرسائل الإلكترونية. نظرت إلى الأعلى وابتسمت عندما رأت كريس. ومثلما قالت لفرانشيسكا لاحقاً، وجدته "ظريفاً". بدأت فرانشيسكا ترى أن إيلين أشبه بصبي صغير مجنون. تخرج كثيراً في

الليل، ولكن لم يأتِ أي من عشاقها المحتملين إلى المنزل أو يسبب مشكلة لفرانشيسكا. بدا كريس هارلي مستأجراً ممتازاً، رغم أنها لا تعرف أي شيء عن حياته الشخصية سوى أنه مطلق ورسام هندسي يستطيع دفع الإيجار. هذا كل ما تحتاج إلى معرفته، وما إذا كان سجل بطاقة اعتماده جيداً.

سألته عن بعض التفاصيل التي طرحتها على إيلين أيضاً. أخذت فرانشيسكا معلومات عن بطاقة اعتماده، وفيما نظرت إليه، أحست أن وجهه مألوف. شعرت أنها رأته يوماً ما في مكان ما. أو أنه مجرد انطباع. على كل حال، تصافحا، وقالت فرانشيسكا إنه بعدما تتحقق من بطاقة اعتماده في الأيام المقبلة، يستطيع الانتقال إلى هنا في أي وقت إذا كان كل شيء جيداً، وكلما أسرع كان ذلك أفضل. وإذا سارت الأمور على ما يرام، سيكون المستأجر الثاني.

بدا كريس هارلي راضياً عن الترتيبات حين غادر المنزل في شارع تشارلز بعد ظهر ذلك اليوم. ووعدته فرانشيسكا بالاتصال به ما إن تحصل على نتائج التحقق من بطاقة الاعتماد. لكن لا يبدو أن لديه مشكلة في تسديد إيجاره أو دفع فواتيره. بدا موثوقاً ومحافظاً ومهذباً. قال إنه يصمم التوضيب الصناعي وأعطاها بطاقة عمله. راود فرانشيسكا إحساس جيد بشأنه. تثق بفطرتها. بدا رجلاً محترماً ومتكاملاً، سيكون جميلاً وجوده معهما.

قالت ذلك أمام إيلين فيما نظفتا المطبخ. قالت فرانشيسكا بعفوية: "إنه وسيم أيضاً" وهزّت إيلين كتفها.

"إنه تقليدي جداً، ومضجر جداً. ليس مناسباً لي". أرادت فرانشيسكا سؤالها عن الشخص المناسب لها، غير مجموعات الرجال الذين ترى صورهم على شبكة الإنترنت. "بالإضافة إلى ذلك، سيكون من الغباء التورط في علاقة مع شخص يعيش هنا. فهذا غير مريح كثيراً". وافقتا على هذه النقطة.

"إذا لم تنجح الأمور بيننا، سيجبر أحدنا على الانتقال. لذا، أفضل الخروج مع رجال ألتقي بهم خارجاً، أو عبر شبكة الإنترنت". تملك نصف

دزينة من المرشحين المحظوظين في الوقت الحاضر تتبادل معهم الرسائل الإلكترونية، ولا تعرف فرانشيسكا أبداً من هم الرجال الذين التقت بهم إيلين، ومن الذين لم تلتق بهم.

فرحت فرانشيسكا كثيراً عندما اتضح أن سجل بطاقة اعتماد كريس ممتاز بعد التحقق منه. إنه جيد ليكون المستأجر الثاني في منزلها، بالرغم من أنها لم تلتقِ بابنه وشعرت أنها لا تحتاج إلى ذلك. فما مدى السوء الذي يمكن أن يكون عليه ولد في السابعة من عمره؟ وأربعة أيام في الشهر ليست بالوقت الطويل، ولا داعي للقلق بشأنها. اتصلت بكريس على رقم المكتب الذي أعطاه لها، وأخبرته أنه يستطيع الانتقال إلى المنزل ساعة يريد.

قال بسرور: "هذا رائع. أستطيع الانتقال في عطلة نهاية الأسبوع. لا أملك الكثير من الأغراض. سأحضر ما أحتاج إليه لغرفة النوم غداً".

شعرت بالقليل من الفضول حيال سبب عدم امتلاكه شقة خاصة به لكنها لم تسأله. بل فرحت لأنه لا يملك واحدة. قال بعد ذلك إنه تخلى عن كل شيء يملكه لزوجته السابقة. قال إن كل ما يملكه في الوقت الحاضر هو ملابسه، وكدسة من الكتب، ولوحتان. ترك كل شيء آخر في شقته مع زوجته وابنه، وهو يمكث حالياً في فندق. قال إنه هناك منذ شهرين. وأحب فكرة وجوده في منزل وليس في شقة.

عندما انتقل، بدّل كريس الإحساس في المنزل مجدداً. أضاف شيئاً صلباً. كان جدياً جداً وهادئاً جداً بحيث وثقت فرانشيسكا بأنه لن يسبب لها أية مشاكل، وستكون الحياة سهلة معه. إنه بالضبط ما أرادته فرانشيسكا من نزيل أو رفيق في المسكن. وبدت إيلين غير متأثرة عندما قالت فرانشيسكا ذلك.

قالت إيلين من دون اهتمام كبير: "إنه هادئ جداً". إنه كبير جداً عليها على كل حال. أعلنت أنها تحب الشبان من عمرها، معظمهم يتخرجون للتو من الجامعة، تماماً مثلها. بدا كريس ناضجاً جداً في الثامنة والثلاثين، وفي بعض النواحي أكبر حتى من تود. شكت فرانشيسكا في أن إنجابه الطفل

جعله هكذا، أو الطلاق. رأت فرانشيسكا أنه يبدو مثل شخص راشد مسؤول، وهذا هو بالضبط ما أرادته من المستأجر لديها.

انتقل في عطلة نهاية الأسبوع التالية مع طاولة الرسم ولوازمه الفنية. رتبها بعناية، بالترافق مع مجموعة من الأثقال الخاصة بالتمارين الرياضية، وشاشة تلفزيون مسطحة، ونظاماً صوتياً، وملابس. تم إيصال مفروشات غرفة نومه في اليوم السابق، وذهلت حين رأت أنه يملك سريرين فوق بعضهما، مما بدا غريباً قليلاً. افترضت أن السرير الآخر هو لابنه.

بقي وحده بعدما انتقل للعيش في المنزل ولم تره فرانشيسكا طوال اليوم، لأنها كانت في المعرض الفني. وعندما وصلت إلى المنزل، كان قد رتّب أغراضه وحضّر لنفسه شيئاً ليأكله، وعاد إلى طابقه للعمل. وكانت إيلين خارج المنزل خلال عطلة نهاية الأسبوع. بدا المنزل مرتباً وهادئاً. لم تره حتى يوم الأحد، عندما التقت به في المطبخ، يحضر إبريق قهوة. سألته إذا كان كل شيء على ما يرام، فقال نعم. جلس بهدوء أمام طاولة المطبخ، وشرب قهوته، وقرأ الجريدة، وسكب لنفسه كوباً ثانياً من القهوة، ثم صعد إلى الأعلى. لم ينخرط في أي حديث معها، ولاحظت أن هناك حزناً في عينيه. مهما كانت قصته، لا يرغب في مناقشتها. بدا كريس غير مهتم في عقد صداقات. إنه لطيف ومهذب، وبارد تماماً مثلما كان معها عندما التقيا في أول مرة. هذا مناسب تماماً لفرانشيسكا.

أخبرت فرانشيسكا أفيري عن انتقاله إلى المنزل عندما اتصلت بها تلك الليلة.

قالت أفيري: "يبدو مثل المستأجر المثالي. حدود جيدة، تصرفات جيدة، اعتماد مالي جيد. هل التقيت بولده؟".

"ليس بعد. أظن أنه سيكون هنا في عطلة نهاية الأسبوع التالية".

"فلنأمل ألا يكون مزعجاً".

"لا يبدو كريس من نوع الرجال الذين يقبلون بذلك. ليس مرحاً كثيراً. ثمة شيء حزين فيه. إنه هادئ جداً".

"ربما يواجه أوقاتاً صعبة. ليس كل الرجال ساحرين ومثرثرين مثل والدك". أضافت أفيري فضحكتا. "هل من طلبات على القسم الموجود في الأسفل؟" تأثرت أفيري بمدى سهولة تأجير القسمين الآخرين، وبدا كأن فرانشيسكا وقعت بمستأجرين مثاليين. الأولى لطيفة ومرحة، والثاني جدي وهادئ. ما من شيء أفضل من هذا. "هل من أخبار جديدة عن تود؟".

"اتصل على رقم المعرض الفني قبل أيام عدة، لكنني كنت خارجاً، في زيارة فنان واختيار بعض الأعمال الجديدة". لتوفير المال وإبقاء سقف الأسعار منخفضاً، تنجز كل الأعمال البسيطة بنفسها. "ترك لي رسالة يقول إنه يأمل في أن أكون بخير. أكره قول ذلك، لكنني أشتاق إليه. أشتاق إلى العلاقة التي كانت بيننا في البداية، وليس مثلما كانت خلال العام الماضي. الحياة هادئة جداً. كل ما أفعله هو العمل، والعودة إلى المنزل ليلاً، وتناول الطعام، ومشاهدة التلفزيون، والخلود إلى النوم".

"سوف تتحسن الأمور مجدداً. عليك الخروج، والذهاب إلى بعض الافتتاحات والحفلات". لكن فرانشيسكا لا مزاج لها في ذلك. أخبرت أفيري عن فنان جديد تعرفت إليه عبر أحد فناني المعرض، في بروكلين. تحدثا عن والدها لبضع دقائق، وكان يعمل بكدّ تحضيراً لمعرضه المقبل، وقالت أفيري إن عمله الجديد مذهل. إنها مولعة جداً بفنه. وبعدما أنهيتا الاتصال، أطفأت فرانشيسكا الأنوار واستلقت في السرير في العتمة. استطاعت سماع التلفزيون في غرفة إيلين، وتحرك كريس في الأسفل. من المطمئن نوعاً ما ألا تكون وحدها في المنزل. أحبت الإحساس، رغم أنها بالكاد تعرفهما، ولن تعرفهما أبداً ربما. فيما فكرت في ذلك، خلدت إلى النوم.

في الأسبوع التالي، أقامت فرانشيسكا معرضاً لفنان في معرضها الفني. التحضير للمعارض يبعث على التوتر دائماً. عليها التأكد من وجود الأعمال الفنية في المعرض في الوقت المناسب، ما يعني غالباً الإلحاح على الفنانين للاستعداد، حتى الدقيقة الأخيرة، وإيصال الدعوات إلى

الزبائن، وتوسل النقاد الفنيين للمجيء إلى المعرض والكتابة عنه، وترتيب اللوحات وتنظيم الإنارة في المعرض بنفسها. وعندما يتم افتتاح أبواب المعرض، تكون مرهقة.

الفنان الذي تقيم له المعرض هذه المرة صعب، وأصرّ على أن تغير كل شيء داخل المعرض. باعوا أربع لوحات في الليلة الأولى، وبقيت لأسابيع عدة مشغولة جداً للتحقق من الاستجابات الواردة على إعلانها. كانت تنوي ذلك وإنما تنسى دوماً، تحتاج إلى مستأجر آخر في المسكن لكنها لا تملك الوقت لمتابعة المسألة. ولا ترى أبداً كريس أو إيلين. الترتيب مناسب تماماً. بعد مرور ثلاثة أسابيع على انتقال كريس للعيش في منزلها، التقت أخيراً بابنه. كانت جالسة في المطبخ تتحقق من بريدها الإلكتروني، عندما سمعت صوتاً، فذهلت ونظرت إلى الأعلى. رأت صبياً صغيراً يرتدي كنزة حمراء وسروال جينز، يحدق إليها باهتمام.

"أحب منزلك" كان أول شيء قاله، ثم ابتسم. يملك شعراً داكناً، وعينين زرقاوين كبيرتين، ولا يشبه والده أبداً. قال بتهذيب: "أنا إيان" ومدّ يده لمصافحتها. كان ظريفاً جداً ويبدو مثل ولد في إعلان.

"أنا فرانشيسكا. هل ترغب في تناول شيء ما؟" إنها الساعة الثامنة صباحاً، ولا أثر لوالده. ارتدى إيان ملابسه ونزل إلى الأسفل وحده.

"حسناً. هل أستطيع تناول موزة؟". تملك عدداً من الموزات المكدسة في وعاء فوق البراد، فمدت يدها لإحضار واحدة وأعطتها له، فشكرها.

"هل تريد بعض الحبوب أيضاً معها؟" هزّ رأسه، وسكبت له بعض الكورن فلاكس في وعاء، مع الحليب، وأعطته طبقاً للموزة.

قال: "أحضر فطوري بنفسي كل يوم. تحب أمي النوم لوقت متأخر. تخرج كثيراً في الليل"، ولم تعلق فرانشيسكا. لم تعرف ماذا تقول. ليست معتادة على الأولاد في عمره.

سألته: "في أي صف أنت؟" فيما قضم الموزة مرتين، وانتفخت وجنتاه، فابتسمت له. احتاج إلى دقيقة للإجابة.

"الثاني. غيّرت المدرسة هذه السنة. أحببت مدرستي القديمة أكثر، لكن أمي تقول إنها بعيدة جداً". فيما قال ذلك، دخل كريس إلى الغرفة وشارك في المشهد. ابتسم ما إن نظر إلى ابنه، ومن ثم إلى فرانشيسكا عندما رأى أنها تطعمه. لم تره بهذه السعادة منذ أن انتقل للعيش هنا. بدا فجأة مسترخياً وودوداً وحنوناً. من الواضح أنه مولع جداً بابنه، وفخور جداً به.

"شكراً لك على إطعامه. خرج من الغرفة فيما كنت أستحم".

طمأنته فرانشيسكا قائلة: "نحن نمضي وقتاً جميلاً جداً"، وبدا إيان مسروراً. إنه يقضي وقتاً جيداً أيضاً. بدا مكتفياً ذاتياً ومرتاحاً تماماً مع الكبار.

قال إيان لفرانشيسكا: "سنذهب إلى حديقة الحيوانات. أحضروا دباً قطبياً جديداً وكنغر".

أجابت فرانشيسكا بعفوية: "يبدو لي هذا ممتعاً"، فيما حضّر كريس بعض البيض الذي اشتراه، وقلى بيضة واحدة أيضاً لإيان.

سألها إيان بفرح: "هل تودّين المجيء؟" وابتسمت.

"أودّ ذلك، لكن عليّ العمل".

سألها إيان: "ماذا تعملين؟".

شرحت له: "أملك معرضاً فنياً على بعد بضعة مبانٍ من هنا. أبيع لوحات فنية. يمكنك زيارته إذا أردت".

قال كريس "ربما قد نفعل ذلك" فيما سكب البيضة في طبق أمام إيان، وجلس قربه مع طبق البيض الخاص به أيضاً. وعادت فرانشيسكا إلى قراءة بريدها الإلكتروني فيما تناولا فطورهما. تلقت جواباً جديداً عن الإعلان، من امرأة في فيرمونت قالت إنها تبحث عن مسكن أرضي في نيويورك، وهي مهتمة في رؤية الغرفة التي ستؤجرها فرانشيسكا. أعطتها رقم هاتفها، وقالت إنها تأمل في أن الغرفة لا تزال متوافرة وأن تتصل بها فرانشيسكا. دوّنت فرانشيسكا رقم الهاتف على ورقة قرب رقم آخر، لكن المرأة من فيرمونت بدت أفضل، ولا يبدو كأنها ستتواجد في المنزل طوال الوقت، وهذا أمر جيد.

الوضع مريح جداً كما هي الأمور الآن". وأضاف إيان فرحة إلى المجموعة بوجوده معهم. إنه ولد لطيف.

تحدثت معه مجدداً لبضع دقائق، وتمنت لهما وقتاً ممتعاً في حديقة الحيوانات، وصعدت إلى الأعلى. وخرجت بعد أن غادرا.

كان يومها محموماً في المعرض الفني وباعت لوحة أخرى. إنها تبيع جيداً منذ أشهر عدة– لكن المشكلة أن أسعارها غير عالية كفاية لتحقيق الكثير من الربح. باتت تفكر في رفع الأسعار مجدداً، وأصرّت أفيري على ضرورة فعل ذلك.

حلّ بعد الظهر حين تذكرت فرانشيسكا المرأة في فيرمونت التي أجابت عن إعلانها. طلبت الرقم، وأجابت امرأة شابة. بدت بعمر فرانشيسكا تقريباً، وكانت مرحة ولطيفة على الهاتف. أخبرتها فرانشيسكا أن الغرفة لا تزال متوافرة ووصفتها لها بأفضل طريقة ممكنة، من دون تفخيمها. قالت إن الغرفة صغيرة، وهي بمثابة استوديو، مع منظر جميل على الحديقة، وقريبة من المطبخ، ولها حمامها الخاص.

اسم المرأة ماريا دايفيس، وقالت إن المكان يبدو مثالياً لها. لا تحتاج إلى الكثير من المساحة، وقالت إنها تحب استعمال المطبخ كثيراً، فهل هذه مشكلة؟

"لا، أنا أعمل حتى السابعة كل مساء، ستة أيام في الأسبوع، ولا أتواجد كثيراً في المنزل، تماماً مثل المستأجرين الآخرين. الأول يعمل في المنزل بعض الأوقات، لكنه منطوٍ على نفسه. والمستأجرة الثانية تخرجت للتو من الجامعة، وهي معلمة، وتخرج كل ليلة تقريباً. المنزل هادئ جداً، ولا يستعمل أي منا المطبخ كثيراً. أكون متعبة جداً للطبخ وأكتفي بتحضير سلطة، أو أشتري شيئاً من المطعم وأنا في طريق عودتي إلى المنزل. ويفعل الآخران الشيء نفسه تقريباً، وبالتالي فإن المطبخ كله لك". لم يحضر أي من المستأجرين العشاء منذ أن انتقلا للعيش هنا، وبالكاد تراهما.

"سيكون هذا رائعاً. أستطيع المجيء من فيرمونت الأسبوع المقبل للاطلاع على المسكن، إذا كان هذا يناسبك. هل تعتقدين أن المكان سيبقى متوافراً حتى ذلك الحين"، سألت ماريا وبدت قلقة، فضحكت فرانشيسكا.

"ما من أحد يطرق بابي. تلقيت اتصالاً من شخص آخر اليوم، لكن بما أني تحدثت إليك أولاً، سأعطيك الأفضلية. متى تريدين المجيء؟".

سألت بتفاؤل: "هل يناسبك يوم الأربعاء؟".

"سيكون هذا رائعاً". حددا موعداً، ودونته فرانشيسكا على ورقة كي لا تنساه إذا انشغلت. ثم أنهتا المكالمة. بدت المرأة لطيفة جداً عبر الهاتف. والمرأة التي اتصلت بها بعد ذلك عثرت على مسكن آخر. أصبحنا في أوائل فبراير، وقد احتاجت إلى كل ذلك الوقت للعثور على مستأجرين جيدين، والثالثة الآن. لم تتوقع أن يستغرق الأمر كل هذا الوقت. لكنها كانت حذرة جداً لناحية قبول الأشخاص، ولم يناسبها أحد باستثناء إيلين وكريس، والآن هذه المرأة التي تريد مسكناً أرضياً. ذكرت أنها ترملت حديثاً وتريد تمضية الوقت في نيويورك، فالشتاء في فيرمونت قاسٍ جداً.

نسيت فرانشيسكا أمرها وتذكرت الموعد ليلة الثلاثاء. رأت ابن كريس مجدداً لوقت وجيز قبل أن يغادر ليلة الأحد. أحضرت عود سكاكر من المعرض الفني إلى المنزل لتعطيه إياه. تحتفظ هناك بعلبة من عيدان السكاكر للأولاد. طلبت الإذن من كريس قبل أن تعطيه، فلم يعارض. يبدو أن زيارتهما للدب القطبي كانت ناجحة جداً، وثمة جرو نمر صغير أيضاً في حديقة الحيوانات. أحب إيان عود السكاكر، ولوّح لها مودعاً حين غادر. كان فعلاً ولداً ظريفاً. رؤية أولاد مثله لم تجعلها أبداً ترغب في أن تنجب أولاداً بنفسها، وإنما أحبت فقط الأولاد الذين التقت بهم. لديها خمسة عشر فناناً للقلق بشأنهم بدل الأولاد. وهذا أكثر من كافٍ بالنسبة لها، في الوقت الحاضر على أية حال، وربما إلى الأبد. خصوصاً مع عدم وجود رجل في حياتها. مصادفة أولاد مثل إيان هو كل ما تحتاج إليه من الأولاد. لا تحتاج إلى المزيد. لكنها لاحظت بسهولة كم أن كريس مفتون بابنه. تشرق عيناه كلما نظر إلى إيان.

وصلت ماريا إلى المنزل في شارع تشارلز قبل خمس دقائق من موعدها المحدد في اليوم التالي. كانت ترتدي سروال تزلج، وجزمة ثلج، ومعطفاً مع قلنسوة، وكان يوماً بارداً في نيويورك أيضاً. امتلكت شعراً أشيب بقصة قصيرة أنيقة، ولم تكن أبداً مثلما توقعت فرانشيسكا. كانت أكبر سناً مما بدت عبر الهاتف. ذكرت أنها في التاسعة والخمسين وفقدت زوجها مؤخراً بعد معاناته لفترة طويلة مع المرض. غير أنها بدت إنسانة مرحة وسعيدة. كانت رشيقة القوام مع طلة شابة، بالرغم من ذهول فرانشيسكا حين أدركت أنها بعمر أمها تقريباً لكنها تختلف عنها تماماً.

بدت أكثر اهتماماً في التحقق من المطبخ بدل رؤية غرفتها، التي ألقت نظرة سريعة إليها وقالت إنها تبدو جيدة لها.

قالت فرانشيسكا، وهي تبتسم لها: "أعتقد أنك تحبين الطهو".

"نعم، صحيح. هذا شغفي منذ أن كنت فتاة صغيرة. أنا محظوظة جداً لتمكني من فعل ما أحبه. لا أشعر أبداً أنه مملّ". حينها، أدركت فرانشيسكا فجأة من تكون، وكم غاب الأمر عن بالها. إنها ماريا دايفيس، الطاهية المشهورة. لقد أعدّت نصف دزينة من كتب الطهو الشهيرة، وتملك فرانشيسكا اثنين منها على رف المطبخ. إنها واحدة من أنجح الطهاة، ومتخصصة في المطبخ الفرنسي، وتحضر الطعام للمجموعات والأشخاص المشغولين. برعت بامتياز في بعض الأطباق الفرنسية المشهورة، وأعدّت كتاباً كاملاً عن السوفليه. وها هي الآن في مطبخ فرانشيسكا في شارع تشارلز، تتأمل المطبخ وتجلس أمام الطاولة. شرحت قائلة: "أعمل على تأليف كتاب جديد. ورأيت أنه من الممتع تمضية بعض الوقت هنا أثناء التحضير للكتاب. المكان هادئ جداً حيث أعيش، خصوصاً أنني أصبحت الآن وحدي". لم تكن كئيبة عندما قالت ذلك، وإنما حزينة نوعاً ما.

سألتها فرانشيسكا، وهي تشعر بالفضول حيالها: "هل كان زوجك طاهياً أيضاً؟" امتلكت عينين فرحتين، وابتسامة كبيرة، وبدت واحدة من أكثر الأشخاص لطافة وودية الذين التقت بهم فرانشيسكا. لم تكن متعجرفة البتة،

وبدت مرتاحة تماماً في مطبخ فرانشيسكا. وإذا انتقلت للعيش هنا، أدركت فرانشيسكا فوراً أنه سيكون هناك بعض الطعام الرائع الممكن أكله.

ضحكت جواباً عن سؤال فرانشيسكا حول المرحوم زوجها. "كان مصرفياً، وليس طاهياً، وإنما أحبّ الأكل، ولاسيما الطعام الفرنسي. كنا نمضي شهراً في البروفانس كل سنة، فيما أجرب وصفاتي الجديدة. استمتعنا كثيراً بوقتنا معاً. أشتاق إليه، ولذلك فكرت أنه من الجيد القيام بشيء مختلف والانتقال إلى هنا لبعض الوقت. لكني أحتاج إلى العودة إلى فيرمونت بين الحين والآخر للتحقق من المنزل، خصوصاً وأن المكان جميل جداً هناك في أواخر الربيع. لكن بما أنني لم أعد أمارس التزلج الآن، أفضل التواجد هنا في أشهر الشتاء". والدة فرانشيسكا لا تزال تمارس رياضة التزلج في الثانية والستين، وكانت المرأتان بالعمر نفسه تقريباً لكنهما لا تشبهان بعضهما أبداً. ماريا دايفيس امرأة صاحبة موهبة، وجوهر، ودعابة، وعمق. أما تاليا فلا تملك أياً من هذا. واستمتعت فرانشيسكا كثيراً بالتحدث إلى ماريا. إنها امرأة لطيفة، وتحمست فرانشيسكا للقائها ولفكرة عيشها معها في المنزل. لقد كانت محظوظة في مستأجريها الثلاثة.

تحدثتا عن التفاصيل لبضع دقائق إضافية. رأت ماريا السعر مناسباً، والغرفة هي كل ما تحتاج إليه، وفرحت كثيراً لوجودها قرب المطبخ. إنه المسكن المثالي بالنسبة إليها.

قالت بخجل: "أتمنى أن تسمحي لي بتجربة بعض وصفاتي الجديدة في منزلك"، وبدت فرانشيسكا مسرورة.

"سيكون هذا شرفاً كبيراً لي سيدة دايفيس". ابتسمت فرانشيسكا لها بحنان. كانت لطيفة جداً بحيث رغبت في معانقتها.

"أرجوك ناديني ماريا، وإلا ستجعلينني أشعر أنني عجوز جداً. أفترض أنني عجوز أصلاً. سأبلغ الستين السنة المقبلة". بدت أقل من عمرها بعشر سنوات على الأقل، وكانت بسيطة ومتواضعة جداً، وشعرت فرانشيسكا

بالراحة والقرب منها. تتحرّق شوقاً لانتقالها والعيش معها. تنوي العودة إلى فيرمونت بعد ظهر اليوم، ووعدتها بالعودة بعد أيام قليلة.

عانقتها ماريا أمام الباب فيما غادرت، وكانت فرانشيسكا تبتسم فيما صعدت إلى الأعلى وصادفت إيلين.

"تبدين سعيدة".

"نعم. ماريا دايفيس، الطاهية المشهورة ومؤلفة العديد من كتب الطهو استأجرت للتو الغرفة التي في الأسفل. أنا متحمسة، وقالت إنها ستطهو لنا الطعام عندما نريد. سنكون حقل اختبارها خلال السنة المقبلة".

قالت إيلين، مع ابتسامة عريضة: "كم هذا رائع. أكره الطهو".

وافقتها فرانشيسكا الرأي. "نعم، وأنا أيضاً". لم يكن هذا يوماً من هواياتها، كان تود طاهياً أفضل منها. "حسناً. لقد انتهينا. أصبح المنزل مليئاً الآن"، أضافت فرانشيسكا، وهي تبدو مسرورة ومرتاحة. سيتم تغطية أقساط الرهن بالكامل من دون تود. وكانوا مجموعة جيدة. إيلين، كريس، والآن ماريا. لقد كانت محظوظة جداً في رفقاء المسكن الذين عثرت عليهم، على عكس توقعات أمها المتشائمة، وحتى مخاوفها الخاصة، ومخاوف تود.

الوضع مثالي. المنزل في شارع تشارلز حيوي وممتلئ. كلهم أشخاص لطفاء، وكانت ماريا إضافة رائعة. 44 شارع تشارلز يضجّ بالحياة. سوف يتناولون أيضاً طعاماً شهياً ما إن تنتقل ماريا للعيش معهم. ما من شيء أفضل من هذا.

الفصل السادس

انتقلت ماريا إلى المنزل يوم الرابع عشر من فبراير، وحضّرت قطعاً رقيقة من بسكويت الزنجبيل على شكل قلب للجميع قبل أن تباشر حتى في ترتيب أغراضها. كان كريس يصمم مشروعاً في المنزل ذلك اليوم. إنه لأحد الزبائن الصناعيين المتطلبين، ما يجعله دوماً أمام تحدٍّ كبير، ويحتاج إلى التركيز، لكن روائح البسكويت وصلت إلى الأعلى بحيث بات عاجزاً عن التركيز على عمله، فنزل إلى الأسفل للتحقق من الأمر. وجد ماريا في المطبخ، ترتدي مئزراً مطبعاً بالمربعات وتدندن وحدها. بالرغم من علمه بانتقالها للعيش في المنزل، لم يلتق بها بعد. استدارت نحوه مع ابتسامة عريضة، ووضعت صينية بسكويت جانباً، وصافحته.

قال، وهو ينظر إلى الفرن: "لم أشمّ في حياتي شيئاً لذيذاً هكذا". أعطته طبقاً واختفت خمس قطع بسكويت على الفور وذابت في فمه.

قالت بتواضع: "إنها وصفة قديمة تذكرتها"، وحين أصبح في المطبخ، استطاع كريس شمّ بقية الروائح اللذيذة أيضاً. كانت تجرب بعض الوصفات الجديدة، وتحضّر واحدة قديمة، وفكرت في تحضير بعض الطعام لهم في حال قرر أيٌّ منهم البقاء في المنزل تلك الليلة. قال كريس إنه باق. دعته للعودة لاحقاً وتناول أي شيء يحلو له. قالت: "من الرائع وجودكم جميعاً هنا لأطهو لكم". لقد شعرت بوحدة كبيرة بعد موت زوجها. إنه مسكن مثالي لها، وتحمست لانتقالها إليه. لا تزال حقائبها غير مفتوحة في غرفتها. لم تستطع مقاومة رغبتها في تجربة المطبخ ما إن وصلت، الأمر الذي أفرحه. قالت ماريا: "سمعت أن لديك صبياً

صغيراً رائعاً"، فيما سكب كريس لنفسه كوباً من الحليب من البراد. ابتسم عند سماع كلماتها.

"إنه ولد جيد. يكون معي مرة كل أسبوعين في عطلة نهاية الأسبوع، وأصطحبه عادة لتناول الطعام بعد المدرسة يوم الأربعاء. إنه يعيش مع أمه".

"أتحرق شوقاً للقائه". لا تملك ماريا أولاداً. لم ينجح الأمر أبداً، وبما أنها في أواخر الخمسينيات، عاشت في حقبة لم تكن فيها الخيارات العديدة المتوافرة اليوم لمواجهة العقم. لذا، قبلت هي وزوجها بقدرهما، وكرّسا نفسيهما لبعضهما. ملأ الفراغ في حياتها الذي أصبح الآن أكبر بعد موته. لذا، فإن العيش مع ثلاثة رفقاء في المسكن في شارع تشارلز سيجعل حياتها أكثر سعادة مما لو بقيت في المنزل الموحش في فيرمونت الذي لا تزال تحبه. إلا أنها أرادت التواجد مع أشخاص آخرين. فرحت كثيراً لانتقالها إلى نيويورك، وتتحرق شوقاً لزيارة المتاحف والمطاعم والأصدقاء. إنها متحمسة لكل ذلك، ولديها موقف مرح ومتفائل حيال الحياة.

عاد كريس إلى الأعلى لإنهاء مشروعه، وبعد لحظات التقت ماريا بإيلين عندما عادت إلى المنزل من عملها وذهبت لاستعمال الكمبيوتر في المطبخ للتحقق من بريدها الإلكتروني. استطاعت إيلين شمّ رائحة طهو ماريا ما إن فتحت الباب الرئيس.

قالت إيلين فيما دخلت إلى المطبخ: "واو!" ووجدت نفسها تنظر إلى ماريا. إنها امرأة أنيقة، وبرزت جلياً قامتها النحيلة والرياضية حتى في المنزر الذي وضعته. "ما هذه الرائحة الطيبة؟". لم تعرف ما إذا كانت رائحة حلويات أو طعام لذيذ. لقد وضعت ماريا دجاجة في الفرن لكي يأكلوها جميعاً، وتحضر الآن الهليون وتنوي تحضير سوفليه الجبنة عندما يصلون جميعاً إلى المنزل. حضرت كيك بالشوكولا على شكل قلب لتناوله بعد العشاء.

"لا أعرف إذا كان أيٌ منكم سيتناول العشاء الليلة في المنزل، لكني فكرت في المجازفة". إنه عذر جيد لتحضير وجبة طعام رائعة.

ابتسمت إيلين فيما تحققت من بريدها الإلكتروني، ورأت أنها تملك موعداً غرامياً الليلة. إنه الموعد الأول مع رجل تراسله بالبريد الإلكتروني منذ أيام عدة. لقد التقت لغاية الآن ببعض الشبان اللطيفين، وببعض الحمقى. تخلصت من الحمقى بسرعة كبيرة، وأحضرت فقط رجلين إلى المنزل. انزعجت فرانشيسكا من الأمر لكنها لم تقل أي شيء لإيلين. ترى أنها لا تملك الحق في ذلك. فإيلين امرأة راشدة، وهذا منزلها، ولا تستطيع فرانشيسكا التحقق من مواعيدها الغرامية. إلا أن وجود غرباء خلال الليل في المنزل بدا أمراً خطيراً بالنسبة إليها. لم يحصل أي شيء كريه لغاية الآن، لكن بما أن إيلين تتعرف إليهم جميعاً عبر الإنترنت، أدركت فرانشيسكا أنها لا تعرف أياً من الرجال جيداً. لهذا السبب، لا تحب فرانشيسكا أبداً التعرف إلى الرجال عبر الإنترنت. كانت محظوظة في رفقائها في المسكن، لكنها تحققت منهم بعناية عبر مراجعهم وبطاقات اعتمادهم. أما فحص المواعيد الغرامية فهو أصعب بكثير، ويبدو أكثر خطورة، ولا تزال غير راغبة أصلاً في مواعدة أي كان. غادر تود المنزل قبل ستة أسابيع فقط. لا تزال تشتاق إليه وتحاول الاعتياد على الفكرة، إنه رحل إلى الأبد من حياتها. وهذا صعب جداً في بعض الأحيان. لم تخسر فقط الرجل الذي أحبته، وإنما أيضاً أفضل صديق لها وشريكها في العمل، ما يجعل الخسارة ثلاثية. الأشخاص الآخرون في حياتها هم فقط الفنانون الذين تمثلهم. لقد عملت بكدّ لإنجاح عملها خلال الأعوام الأربعة الماضية حيث إن الأشخاص الوحيدين الذين تراهم هم الفنانين والزبائن، وتود.

كانت فرانشيسكا آخر من يعود إلى المنزل تلك الليلة. أغلقت المعرض الفني في الساعة السابعة، ومشت المسافة القصيرة الفاصلة بين المعرض الفني والمنزل. باعت لوحتين صغيرتين اليوم وشعرت بالإحباط طوال بعد الظهر. نسيت أن ماريا ستنتقل إلى المنزل هذا اليوم، وعندما وصلت، وجدت كل رفقائها الثلاثة في المسكن يتحدثون في المطبخ ويتشاركون قنينة شراب إسبانية فتحتها ماريا لهم. أحضرت معها بضع قنانٍ من فيرمونت، وهم يجربون الآن واحدة منها، وقد أعجبتهم كثيراً.

قالت لفرانشيسكا مع نظرة مرحة: "أهلاً بك في المنزل". ارتفعت معنوياتها فجأة لرؤيتهم جميعاً. كانت تخشى العودة إلى منزل فارغ. لطالما اهتم تود كثيراً بهذا العيد، واصطحبها لتناول عشاء لذيذ كل سنة. لم تسمع أي شيء منه طوال اليوم، وعرفت أن هذا أفضل، لكنها شعرت بالإحباط في أية حال. ابتسمت بفرح فيما أعطتها ماريا كأساً من الشراب الاسباني. أصبح العشاء جاهزاً حينها. لم تكن تنوي تناول العشاء، وقالت إيلين إنها خارجة للسهر، لكن ثلاثتهم جلسوا أمام طاولة المطبخ والتهموا العشاء اللذيذ الذي قدمته ماريا. الهليون والصلصة الهولندية رائعان، وسوفليه الجبنة كانت أروع من الوصف، فيما الدجاج محمر بطريقة مثالية مع حشوة فطر لذيذة. ثمة سلطة وجبنة فرنسية، تناولوا الكيك بالشوكولا فيما تحدثوا بحيوية حول المائدة عن الطعام، والأسفار، وتجارب الحياة والأصدقاء. لقد وصلت ماريا للتو لكن يبدو أنها أنعشت حياتهم جميعاً، ولم تر فرانشيسكا كريس بهذه الودية والثرثرة منذ أن انتقل للعيش هنا. لا تصدق فرانشيسكا كم هي محظوظة، وقالت ماريا إنها تشعر بأنها محظوظة للعيش في منزل فرانشيسكا، وبأن هذه نعمة كبيرة. استمتعوا كثيراً بوقتهم لدرجة أن إيلين كادت تنسى موعدها، وخرجت مسرعة من المنزل من دون تغيير ملابسها. انتعلت فقط حذاء عالي الكعب ورشت العطر، ولوّحت لهم، واختفت، فيما جلست فرانشيسكا مع كريس وماريا أمام الطاولة لإنهاء آخر الوجبة. قدمت القهوة، والبسكويت بالزنجبيل ومن ثم الترافل. قال كريس باقتناع إن هذه أفضل وجبة طعام تناولها في حياته، ووافقته فرانشيسكا الرأي.

ساعدت فرانشيسكا وكريس ماريا على تنظيف المطبخ، لكن ماريا كانت قد رتبت الأشياء أثناء تحضيرها الأطباق، ولم يكن هناك الكثير من الفوضى. ذهبت ماريا بعدها لترتيب أغراضها، وصعد كريس وفرانشيسكا السلالم إلى الأعلى.

اعترفت فرانشيسكا: "كنت أخشى هذا اليوم. لكن تبين أني استمتعت كثيراً بوقتي الليلة، بفضل ماريا".

أومأ كريس برأسه بصمت، وبات الآن أكثر تحفظاً فيما أصبح وحيداً معها. يكون دوماً حذراً جداً عندما يتحدث إلى فرانشيسكا أو إيلين ما لم يكن إيان معه. لقد أخرجته ماريا فعلاً من قوقعته. ولم تكف فرانشيسكا عن التساؤل عما حصل معه لجعله منطوياً هكذا. بدأت تفكر أن الأمر ليس مرتبطاً بشخصيته بقدر ما هو مرتبط بصدمات حصلت معه.

علقت فرانشيسكا قائلة: "اليوم صعب على ماريا أيضاً. إنها امرأة لطيفة. أنا مسرورة لأنها انتقلت للعيش هنا. طعامها مذهل. سوف نصاب جميعاً بالبدانة إذا حضرت لنا أطباقاً كهذه كل ليلة". ابتسم كريس لما قالته.

"أظن أنها مجرد مناسبة خاصة".

تمنيا لبعضهما ليلة سعيدة أمام باب غرفة كريس، التي كانت قبلاً غرفة طعام ومكتبة وتحولت الآن إلى مسكنه. لم تزر الغرفتين منذ أن انتقل للعيش فيهما ولا تملك سبباً لفعل ذلك، لأنه استأجرهما منها. صعدت السلالم ببطء للوصول إلى غرفة نومها، وشعرت بالوحدة مجدداً.

أحسّت فرانشيسكا بوصول إيلين في وقت لاحق تلك الليلة، وأن هناك شخصاً معها، وأملت في أن تكون بخير. ثقتها وبراءتها حيال الرجال الذين تلتقي بهم عبر الإنترنت أقلقتا فرانشيسكا كثيراً، لكنهما كانا يتهامسان ويضحكان فيما مرّا أمام باب فرانشيسكا، ورأته في المطبخ أثناء الفطور في اليوم التالي. تركت ماريا قطع كرواسان ولفافات خبز طازجة لهم وخرجت للقيام بنزهة. وصديق إيلين في الليلة الماضية كان يلتهم قطع الكرواسان بسعادة وبالكاد قال مرحبا لفرانشيسكا عندما دخلت. بدا غريب الأطوار قليلاً، لكن إيلين كانت تبتسم وبدت سعيدة وشابة فيما ضحكت له. انزعجت فرانشيسكا قليلاً لأنها اضطرت للتعاطي معه أثناء الفطور، ولم يكن كريس متحمساً أيضاً فيما سكب لنفسه كوباً من القهوة التي حضرتها ماريا قبلاً. وجبات الطعام في 44 شارع تشارلز أصبحت أكثر متعة بعد انتقال ماريا للعيش هنا.

"كيف تعرفتم جميعاً إلى بعضكم البعض؟ هل تشكلان أنتما الاثنين ثنائياً؟"، سأل صديق إيلين فيما وجه إليه كريس نظرة شريرة، وسكب لنفسه

وعاء من حبوب الفطور، ولم يزعج نفسه في الإجابة. اكتفت فرانشيسكا بالقول إنهما مجرد رفيقين في المسكن، ولم تضف أكثر من ذلك. كشف الرجل عن أوشام عدة وقد رفع كمّيه فظهرت ذراعاه. كانت الأوشام بألوان ساطعة، فيما شعره طويل جداً. قال إنه يعمل في التلفزيون، ثم شرح أنه مصوّر اسمه دوغ. وقد تعرفت إليه عبر الإنترنت طبعاً. يبدو أن هذا هو مصدرها الوحيد للتعرف إلى الرجال، مما أقلق فرانشيسكا. ثمة فتيات أخريات يتعرفن إلى رجال محترمين عبر الإنترنت، لكن يبدو أن إيلين ساذجة لدرجة الخطر. كان دوغ لا يزال في المطبخ عندما غادر الآخرون.

اعتذرت فرانشيسكا وقالت إنها تريد إجراء بعض الاتصالات في غرفتها، وقال كريس إنه عليه اللقاء بزبون عند العاشرة لتقديم المشروع الذي يعمل فيه منذ أسابيع. لقد انتهى أخيراً. إنه يصمم توضيبياً جديداً لماركة مشهورة. ترك المنزل مع ملف أعماله بعد دقائق قليلة، وكذلك فعلت إيلين. وعندما غادرت فرانشيسكا إلى المعرض الفني عند الحادية عشرة، كانت لوحدها في المنزل. خرجت ماريا أيضاً بعد تنظيف المطبخ بعدما عادت من نزهتها.

أصبح المنزل ممتلئاً ومزدحماً.

تدبرت فرانشيسكا مجيء شركة للتنظيف مرتين في الأسبوع، على أن يتشاركوا جميعاً الكلفة، بدل أن يضطروا إلى تنظيف المنزل بأنفسهم. كانت تفكر في إيلين فيما ذهبت مشياً إلى عملها تحت مطر فبراير الخفيف، وتساءلت ما إذا كانوا سيرون دوغ مجدداً. أملت ألا يحصل ذلك، ورأت أنه رجل فظ وأقل مما تستحقه إيلين. بدت أكثر اهتماماً في عدد الرجال الذين تستطيع اللقاء بهم، بدل النوعية وتضييق المجال لرجال أفضل يستحقونها أكثر. ذكّرت فرانشيسكا نفسها بأنها صغيرة ولا تزال ساذجة. كانت ستقلق عليها كثيراً لو كانت أختها الصغرى. لكن بصفتها مستأجرة أو رفيقة مسكن، ليس هذا من شأنها. إلا أن هواية الإنترنت مزعجة قليلاً. إنه عالم جديد تماماً بالنسبة إلى فرانشيسكا، ولا تريد استكشافه أبداً، بالرغم من تحمس العديد من

الأشخاص بشأنه وزعمهم بأنهم التقوا بأناس جيدين بهذه الطريقة. بدا الأمر خطراً بالنسبة إلى فرانشيسكا وأملت في أن تبطئ إيلين وتيرتها قليلاً وتتوخى الحذر.

توجب على فرانشيسكا التحضير لمعرض فني جديد بعد ظهر اليوم. إنه معرض جماعي تحضر له منذ أشهر، لرسامين للفن التجريدي ونحات، ورأت أن أعمالهم تكمل بعضها البعض. من المهم العثور على عمل لا يطغى على بقية المعرض أو يسرق الانتباه منه. حضّر أحد الفنانين لوحات كبيرة جداً وسيكون صعباً عليها تعليقها وحدها. لعدم وجود تود لمساعدتها في تعليق اللوحات الآن، طلبت من أحد الفنانين أن يأتي ويساعدها إذا كان لديه وقت. إنه يعمل في تركيب اللوحات في العديد من المعارض الفنية لجني المال، وكان لطيفاً ومفيداً، وإنما غامض بشأن الوقت. كان أحد أول الفنانين الذين اتفقت معهم وتباع لوحاته بنسبة جيدة. وهو يعمل بكدّ وجدية كثيراً في فنه ومدرَّب جيداً. للمرة الأولى، وصل في الوقت المحدد، وشرحت له فرانشيسكا أين تريد تعليق اللوحات، فوقف على سلم طويل لساعات عدة لتعديل الأنوار بعد الانتهاء من تعليق اللوحات. كانت الساعة قد تجاوزت السادسة عندما انتهيا أخيراً، وكانا متعبين وإنما مسروران بالنتيجة. إنه أصغر منها بعشر سنوات، وهو رجل ظريف.

سألها بعفوية: "أين هو تود هذه الأيام؟". أخبرت معظم الفنانين شفوياً أنها اشترت حصته، لكنها لم ترسل لهم بعد رسالة رسمية في هذا الخصوص. لا تجرؤ على ذلك. وأدرك معظمهم أنه لم يعد يتواجد في المعرض الفني. سألها القليل منهم عنه، لكن معظمهم عرفوا أنه غادر عندما طال غيابه عن المعرض.

قالت فرانشيسكا بلامبالاة: "لقد اشتريت حصته. أصبح والدي الآن شريكي في العمل. عاد تود لممارسة مهنة المحاماة مجدداً". رأت أن هذا كل ما يحتاج إلى معرفته.

سألها: "هل لا تزالان معاً؟"، فيما وضع السلم جانباً.

أجابت فرانشيسكا: "لا، لقد انفصلنا"، واستدارت، وهي محرجة وحزينة من السؤال. لا تعرف لماذا، لكنها تشعر أنها فاشلة، كما لو أنها لم تتمكن من الاحتفاظ به أو إنجاح العلاقة. تكره هذا الإحساس وتساءلت ما إذا كان تود يشعر بالشيء نفسه أيضاً.

"تساءلت حول هذا الموضوع. لم أره هنا منذ وقت طويل. هل بعتما المنزل؟".

"لا، أصبح ملكي الآن، مع ثلاثة مستأجرين". هذه معلومات أكثر مما يحتاج إليها.

قال الفنان الشاب بابتسامة عريضة: "أنا مسرور لسماع ذلك. انتظرت ابتعاده عن طريقي أعواماً عدة. ما رأيك في تناول العشاء ذات ليلة؟" بدا متفائلاً فيما طرح السؤال. إنه معجب بفرانشيسكا لكثرة ما تعمل ولبراعتها في ما تقوم به. إنها متفانية بشدة من أجل فنانيها، وتفعل كل ما بوسعها للترويج لفنهم.

أخذت فرانشيسكا نفساً عميقاً قبل أن تجيب على دعوته إلى العشاء.

"لا أظن ذلك، بوب. لست متحمسة للخلط بين العمل والتسلية. لم أخرج أبداً مع أي من الفنانين قبلاً، ولا أظن أنه يجدر بي الشروع في ذلك الآن". حاولت أن تبدو مهنية فيما قالت ذلك، لكن بوب بدا غير مثبط.

قال بتفاؤل: "هناك دوماً مرة أولى".

"نعم، ربما، لكن لا أظن ذلك. شكراً لك في أية حال. لست فعلاً مستعدة للمواعدة الغرامية الآن. فهذا تعديل كبير بعد خمس سنوات".

"نعم... أنا آسف...". بدا خائب الأمل وغادر بعد دقائق قليلة، فيما أقفلت فرانشيسكا المعرض وعادت مشياً إلى المنزل. كانت تمطر بغزارة أكثر من الصباح، فتناغم الجو مع معنوياتها. اكتأبت لمجرد التفكير في مواعدة أي كان. سيكون صعباً الاعتياد على رجل جديد. لا تريد ذلك الآن. صعدت الدرج المؤدي إلى 44 شارع تشارلز، وهي حزينة جداً ومثقلة القلب.

توجهت مباشرة إلى غرفتها، من دون عشاء، وبكت حتى غفت تلك الليلة. أدركت حينها أنها لم تنس تود بعد، وتساءلت كم سيستغرق هذا الأمر.

شعرت فرانشيسكا بتحسن في الصباح، وابتسمت عندما دخلت إلى المطبخ. كان الوقت باكراً، وظنت أنها ستكون وحدها، لكنها وجدت بدل ذلك ماريا تحضر الفطائر المقلية لإيان. كانت أشبه بميكي ماوس، عندما وضعتها في طبقه مع حبة كرز على الأنف وحبتين من الزبيب للعينين. إنه يوم السبت، وعطلة نهاية أسبوع من تلك التي يقضيها إيان مع والده.

قلت فرانشيسكا بعفوية: "مرحبا إيان" كما لو أنهما صديقان قديمان. سألته: "فطائر رائعة، أليس كذلك؟" فهز رأسه مع ابتسامة عريضة فيما ابتسمت ماريا فوق رأسه. إنه طفل رائع مع ابتسامة كبيرة وعينين ذكيتين.

"ستحضر ماريا البسكويت معي لاحقاً. رقاقات البسكويت بالشوكولا. كنت أحضرها مع أمي. لكنها لم تعد تفعل ذلك. تمرض كثيراً، وتنام طوال الوقت. في بعض الأحيان، تكون لا تزال نائمة حين أعود من المدرسة". تبادلت المرأتان نظرة ولكن من دون التفوه بأية كلمة. تساءلت فرانشيسكا في نفسها إذا كانت مريضة، لكنها لا تريد السؤال.

أضافت فرانشيسكا لإضافة المرح إلى الجو: "أنا أيضاً أحب رقاقات البسكويت بالشوكولا"

قال إيان: "يمكنك تحضيرها معنا إذا أردت. وإلا سنحتفظ لك بالبعض منها إذا توجب عليك الذهاب إلى العمل"، دخل كريس في هذه الأثناء.

أجابت فرانشيسكا بحنان: "أودّ ذلك"، فيما دخلت إيلين مع المقرف دوغ الذي طلب الفطائر المقلية أيضاً. أسرعت فرانشيسكا إلى الإجابة. لم يتم توظيف ماريا هنا بمثابة طاهية، فهي طاهية عالمية تنجز لهم خدمة وتقدم لهم هدية بطهو أي شيء لهم. ليست طاهية حسب الطلب لتحضر لهم الفطور. أجابت فرانشيسكا بهدوء: "كل واحد يحضر فطوره بنفسه، باستثناء إيان". بدا دوغ منزعجاً، فهزّ كتفيه ثم سكب لنفسه كوباً من القهوة فيما نظرت

ماريا إلى فرانشيسكا بامتنان. انتبه كريس تماماً لما حصل، ولم يستلطف دوغ أيضاً. كان غبياً وفظاً، وأوضح للجميع ماذا كان يفعل مع إيلين الليلة الماضية. بدا أن إيلين لم تمانع قوله هذا، لكن الآخرين فعلوا ذلك نيابة عنها. إنها قلة احترام لها ألا تلاحظ أو تعارض ما حصل.

غافلاً عن المشهد حوله، أنهى إيان بسعادة فطائره المقلية، وشكر ماريا بتهذيب عندما شبع. شطف بعدها طبقه بعناية ووضعه في غسالة الأطباق. لاحظت فرانشيسكا ذلك وتساءلت ما إذا كان مضطراً للاهتمام بنفسه لأن أمه مريضة أو تنام طوال الوقت. بدا ولداً مستقلاً جداً بالنسبة إلى عمر السابعة.

كانوا لا يزالون جميعاً يتحركون في المطبخ عندما رنّ جرس البيت. صعدت فرانشيسكا إلى الأعلى لترى من هناك، وذعرت لرؤية أمها تقف خارجاً، تنتظر الدخول. كانت ترتدي بذلة رياضية من شانيل وحذاء رياضياً من ديور، فيما شعرها مربوط في جديلة خلفية، وبدت أكثر جمالاً من دون ماكياج، لكنها آخر شخص أرادت فرانشيسكا رؤيته هذا الصباح. لا ترغب أبداً في تعريفها إلى رفقائها في المسكن أو الاستماع إلى تعليقات أمها عنهم بعد ذلك.

قالت بتردد، وهي لا تعرف ماذا تفعل: "مرحبا ماما. ماذا تفعلين هنا؟". أملت في أن تغادر من دون الدخول، لكنها شكت في ذلك. فأمها عنيدة وفضولية جداً.

"أجرب طبيبة جلد جديدة في سوهو. سمعت أنها مشهورة، وفكرت في أن أمرّ لزيارتك قبل الذهاب إليها. هل أستطيع الدخول؟". بدت مترقبة ومتغطرسة، فابتعدت فرانشيسكا قليلاً وهي تشعر أنها طفلة وقعت في ورطة. عرفت أن أمها لن تحب المشهد في المطبخ.

قالت فرانشيسكا: "طبعاً" فيما خفق قلبها وهي تفكر في المجموعة الغريبة من الأشخاص الموجودين في مطبخها، وشكت في أن أمها ستصاب بصدمة، خصوصاً من دوغ وأوشامه.

قالت تاليا: "تفوح رائحة لذيذة"، فيما فكرت فرانشيسكا في مرافقتها إلى الأعلى إلى غرفة نومها، حيث السرير غير المرتب، أو إلى غرفة الجلوس حيث لا مكان للجلوس لأنه لم يتسنّ لها الوقت لاستبدال الأريكة والكراسي التي أخذها تود، أو إلى المطبخ حيث يتناول الفطور كل رفقائها في المسكن. تكره تعريفهم إلى أمها. إلا أن ماريا أخرجت للتو من الفرن صينية من الكرواسان، مما جعل الطريق جذاباً نحو المطبخ.

شرحت فرانشيسكا لأمها التي نزلت السلالم المؤدية إلى المطبخ من دونها: "إحدى رفيقاتي في المسكن طاهية مشهورة". لحقت بها أمها على مضض.

كان كريس أمام طاولة المطبخ مع ابنه ينجزان رسماً، فيما ماريا أمام الفرن تحمل الدفعة الجديدة من الكرواسان، ودوغ مع كل أوشامه الظاهرة ملتف حول إيلين مثل الأفعى، التي قهقهت وهي لا تزال ترتدي قميص نوم شفافاً قليلاً مع رداء مفتوح. ليس هذا هو المشهد الذي أرادت فرانشيسكا تقديمه لأمها. عرّفتهم جميعاً إليها بالقول ببساطة إنها أمها، فيما زمّت تاليا شفتيها وحدّقت إليهم جميعاً وصولاً إلى ماريا. بدت الشخص الوحيد المتحضر هنا، برأي تاليا.

قالت تاليا، وهي مصدومة قليلاً: "لا بد أنك الطاهية". فكرة عيش ابنتها مع كل أولئك الأشخاص لا تزال تزعجها. وانتبهت فوراً إلى دوغ وأوشامه ورأته مخيفاً.

"نعم. هل تودين تناول الفطور، سيدة ثاير؟"، سألتها ماريا بلطافة. ذهلت قليلاً بغطرسة والدة فرانشيسكا. حتى في الملابس الرياضية، بدت وكأنها ترتدي فستان سهرة.

أجابت تاليا بسرعة: "لست السيدة ثاير. أنا الكونتيسة دي سان جيوفاني"، باللهجة التي علّمها لها زوجها المرحوم. تستخدم فقط اللكنة الإيطالية لاسمها في المناسبات الرسمية، وليست هذه واحدة. إلا أنها طريقتها لإبلاغهم جميعاً بأنها أكثر أهمية منهم. فهموا الرسالة. نظر كريس إليها بسرعة فوق رأس إيان، ولم يقل أي شيء، ثم عاد للتحدث مع ابنه. كان دوغ

يشمّ عنق إيلين، التي لم تتوقف عن الضحك. ليس هذا ترحيباً جيداً برأي تاليا. كانت فرانشيسكا تنكمش خوفاً.

أجابت ماريا بتهذيب، من دون أن يرفّ لها جفن: "طبعاً أيها الكونتيسة. هل أقدم لك بعض الكرواسان والقهوة؟".

قالت تاليا: "أودّ ذلك كثيراً"، وجلست قرب إيان. نظر إليها باهتمام ثم عاد إلى رسمه. بعد برهة، وضعت ماريا طبق الكرواسان الساخن أمامها مع كوب من القهوة المغلية. جلست فرانشيسكا على الكرسي الوحيد الشاغر أمام الطاولة، قبالة أمها، متمنية لو أنها لم تأتِ.

استمر المشهد كما كان عندما دخلت، لبضع دقائق، ثم ذهب كل واحد إلى عمله. نظفت ماريا المطبخ، وصعد كريس إلى الأعلى مع إيان، وعاد دوغ وإيلين إلى غرفتها، وأبلغهم دوغ ما ينوي أن يفعله مع إيلين. صورة إيلين كفتاة مهذبة بدأت تختفي حتماً. بعد برهة، بقيت فرانشيسكا مع أمها أمام طاولة المطبخ فيما تحركت ماريا بحيوية حولهما.

قالت تاليا بذعر: "لا أصدق أنك تعيشين مع هؤلاء الأشخاص"، وبدت كأنها على وشك الانفجار في البكاء. أضافت: "بمَ تفكرين؟"، متجاهلة ماريا.

أجابت فرانشيسكا بصرامة: "أفكر أني بحاجة إلى دفع أقساط الرهن، وكلهم لطفاء"، فيما زعمت ماريا أنها لا تسمعهما وهي ترتب الأطباق.

"ذاك الرجل مع الأوشام؟".

"إنه لا يعيش هنا. إنه يواعد الفتاة التي تعيش في الأعلى. إنها تعلم الأطفال المصابين بالتوحد".

قالت أمها بنظرة غير موافقة: "لا يمكن معرفة ذلك عند النظر إليها". وليست مخطئة. فقد أصبحت إيلين أكثر تطرفاً مع اعتيادها على المكان، وباتت تنانيرها أقصر.

قالت فرانشيسكا: "إنها شابة" في محاولة للدفاع عنها، رغم أنها لا تستطيع الدفاع عن دوغ، وانزعجت أيضاً من نزول إيلين إلى الأسفل في قميص نوم ورداء. ليس هذا ذوقاً رفيعاً، لكنه ليس جريمة.

قاطعتها ماريا قائلة: "لكن الجميع متفقون هنا"، فيما ملأت كوب تاليا بالقهوة اللذيذة التي أحضرتها معها من فيرمونت. أضافت ماريا: "كلهم محترمون جداً"، ونظرت إليها تاليا بحزن، مرتاحة للعثور على صديقة وحليفة بينهم.

سألتها تاليا: "ألا يزعجك ذلك؟".

أجابت ماريا: "على الإطلاق. أنا مسرورة لوجودي هنا. كلهم أشخاص لطفاء. خسرت زوجي قبل بضعة أشهر، وأنا مسرورة جداً لوجودي معهم بدل العيش بمفردي في منزلي في فيرمونت".

سألت تاليا باهتمام: "لماذا توفي؟".

"ورم خبيث في الدماغ. بقي مريضاً لوقت طويل. كانت النهاية صعبة جداً. من الأفضل أنه ارتاح الآن، أعتقد أن تواجدي في نيويورك مفيد".

قالت والدة فرانشيسكا بفظاظة: "إنها مدينة صعبة للعثور فيها على رجل"، فشعرت فرانشيسكا بالصدمة والإحراج، ثم ضحكت. هذا كل ما تفكر فيه تاليا. أضافت: "خصوصاً في عمرنا" فضحكت ماريا. لم تزعجها تاليا على الإطلاق. لقد تعاطت مع زميلات أكثر تعجرفاً من تاليا. فالعديد من الطاهيات اللواتي عملت معهن كنّ نجمات مشهورات، وتصرفت بعضهن بفظاظة كبيرة معها على مرّ السنوات، بدافع الغيرة أو لأنهن فاسدات.

أخبرتها ماريا: "أنا لا أبحث عن رجل. لا أريد واحداً. كان معي أفضل رجل على الإطلاق، طوال ستة وثلاثين عاماً. لا يستطيع أي كان الحلول مكانه. أريد فقط تمضية وقت جيد، وإنجاز عملي، وعقد صداقات جديدة".

أحسّت تاليا أن ماريا تلقي خطاباً بليغاً. إنها امرأة جذابة جداً. لماذا لا تريد رجلاً؟ افترضت أنها تكذب. برأي تاليا، تحتاج كل امرأة إلى رجل.

قالت تاليا: "سيتبدل شعورك بعد أشهر قليلة"، ثم مدحت قهوتها الممتازة.

أجابت ماريا بصرامة: "لا، لن أفعل. لا أحتاج إلى رجل لكي أكون سعيدة. حصلت على رجل عظيم، وهذا يكفيني. لا أتوقع العثور على واحد

مثله، فلماذا أقبل بالأقل؟ سأكون وحيدة وراضية تماماً". بدت واثقة بذلك، وحدّقت إليها تاليا كما لو أنها اعتبرتها مجنونة.

نظرت فرانشيسكا إلى ساعتها حينها. لديها موعد مع زبون في المعرض الفني عند العاشرة، قبل افتتاح المعرض، بحيث يكون لديهما الوقت للاطلاع على اللوحات الفنية الموجودة في المخزن من دون أي إزعاج. "أكره قول ذلك، لكن عليّ الذهاب ماما".

أجابت أمها: "لا بأس عزيزتي"، وبقيت جالسة بثبات في كرسيها من دون أي رغبة في التحرك. "أستطيع البقاء هنا والتحدث مع ماريا. ما زال أمامي وقت قبل الموعد".

أومأت ماريا لفرانشيسكا، التي بدت مذعورة، ثم استدارت ماريا نحو تاليا. "أيتها الكونتيسة، هل ترغبين في كوب آخر من القهوة؟". قالت ذلك كما لو أنها تنادي سمو الأميرة، فابتسمت تاليا.

"أرجوك ناديني تاليا. لم أشأ أن يناديني الشباب هكذا، لكن لا حاجة أبداً لأن تستخدمي أنت لقبي". قررت أنهما متساويتان، لناحية الرصانة والعمر. "هل تعلمين أني أملك اثنين من كتبك؟ أحب كثيراً وصفتك للصلصة الهولندية. إنها سهلة جداً وحتى أنني أستطيع إعدادها".

قالت ماريا: "شكراً تاليا". وابتسمت ابتسامة عريضة ثم قدمت لها طبقاً جديداً من الكرواسان.

قالت فرانشيسكا بانزعاج: "أكره تركك أمي"، لكن الحقيقة هي أنها لا تثق بها. لا تعرف ماذا ستقول لماريا، أو كيف ستتصرف. ولا تريدها أن تزعج ماريا، التي بدت مرتاحة تماماً مع أمها.

"لا تكوني سخيفة حبيبتي. سأتصل بك لاحقاً". توقفت تاليا عن التذمر من بقية المستأجرين، وتوجب فعلاً على فرانشيسكا المغادرة. فالزبون الذي ستلتقي به أرسله لها زبون آخر. لم تلتق به قبلاً، ولا تريد أن تتأخر عليه.

ألقت فرانشيسكا نظرة قلقة على ماريا فيما غادرت، وصعدت السلالم بسرعة لإحضار محفظتها، وبعد برهة، كانت تمشي مسرعة في الشارع، تفكر

في أمها. إنها واثقة بأنها ستسمع الكثير من الشكاوى عنهم جميعاً في مرحلة ما، باستثناء ماريا، التي بدا أن أمها أحبتها.

في تلك اللحظة بالتحديد، كانت المرأتان تثرثران في المطبخ. تسلّت ماريا بها، لكن لم يظهر عليها ذلك. فهي تستطيع كبت نفسها مع أناس مثل الكونتيسة، وقد فعلت ذلك مع أناس أسوأ منها بكثير.

قالت تاليا لماريا: "لا تعرفين كم أنا قلقة عليها، خصوصاً في هذا القرار الجنوني. كان يجدر بها الزواج من تود بدل شراء عقار معه. لو تزوجته لحصلت على نفقة محترمة، ولكانت حصلت على المنزل مجاناً من دون أي عناء. فالعيش مع كل هؤلاء الأشخاص أمر يثير الجنون". بدت تاليا مكتئبة، وكانت ماريا هادئة جداً.

"يبدو أن الأمور جيدة. كريس محترم، ويبدو مثقفاً جيداً، وابنه لطيف. وأعتقد أن الفتاة الشابة في الأعلى صغيرة وسخيفة قليلاً. لقد تخرجت للتو من الجامعة. إنها متحمسة لوجودها في المدينة ولقاء الرجال. سوف تهدأ".

قالت تاليا، وهي على وشك البكاء: "يبدو صديقها كأنه خرج للتو من السجن". طمأنتها ماريا وخففت من كآبتها. وعندما غادرتها تاليا للذهاب إلى طبيبة الجلد الجديدة، كانت تشعر بتحسن. جلست ماريا في المطبخ لبضع دقائق، وهي تبتسم لنفسها بعدما غادرت. لا شك في أن الكونتيسة دي سان جيوفاني متعجرفة. لم تكف عن التساؤل كيف نجحت فرانشيسكا في أن تبقى طبيعية ومتواضعة إلى هذا الحد مع أم كهذه. لكن أكثر من أي شيء آخر، بدت لها تاليا امرأة حمقاء، ومعظم ما تحدثتا عنه كان توقها الشديد للعثور على رجل والزواج مجدداً. اعترفت من دون خجل أنها من دون رجل، لا تشعر أنها امرأة. هويتها الكاملة مرتبطة بالشخص الذي كانت متزوجة منه. ومن دون ذلك، لا تشعر أنها موجودة على الإطلاق. إنها عكس ماريا تماماً، التي كانت محترمة، وواثقة بنفسها، وتعرف تماماً من تكون، ولم تعد تعتمد على أحد لهويتها. المرأتان مختلفتان تماماً مثل الأسود والأبيض. وبرأي

فرانشيسكا، فإن هوس أمها الجلي في العثور على زوج آخر أخاف الرجال وأبعدهم طوال أعوام عدة.

وفي المعرض الفني، أخرجت فرانشيسكا كل لوحة فنية تقريباً تملكها في المخزن. تحتفظ بمجموعة جيدة من أعمال فنانيها في المخزن. الزبون الذي قابلته أراد شراء لوحة كبيرة، وقال إنه مولع بالفنانين الصاعدين، لكن بدا غير واثق مما أعجبه. ولم يشعر أن أي شيء ناسبه مهما كان الاتجاه الذي قادته إليه فرانشيسكا. قال إنه مطلق، ولطالما اختارت زوجته كل لوحاتهما الفنية. أراد اختيار شيء بنفسه الآن، لكنه لا يعرف ماذا. إنه طبيب أسنان في الخمسين من نيوجرسي، وشعرت فرانشيسكا أنها سئمت منه بحلول الظهر. بدا عاجزاً عن تحديد ما الذي يريده. وعدها أخيراً بأنه سيفكر في الأمر، ويتصل بها في الأسبوع المقبل إذا حسم قراره. قال إنه أحب كل اللوحات التي عرضتها أمامه، لكنه يخشى شراء الشيء الخطأ. من المزعج دوماً التعاطي مع زبائن مثله.

أعطته الصور الفوتوغرافية والمعلومات حول كل الفنانين الذين اهتم بهم، وبدا حينها أكثر ارتباكاً ثم نظر إليها.

سألها: "ألا ترغبين في التحدث عن الأمر خلال عشاء، مثلاً؟" بدا مهتماً فيها أكثر من فنها. لكن لم يعجبها أي شيء فيه، ولم تستلطفه، ولم تكن في مزاج جيد.

قالت، وهي تبتسم له: "أنا آسفة. لا أخرج مع الزبائن". إنه العذر المثالي.

قال بذكاء: "لم أشترِ أي شيء منك بعد. لست زبوناً". والواقع أنها تفضل بيعه شيئاً أكثر من الخروج معه. بدأت تتساءل ما إذا كان نظر إلى اللوحات الفنية كجزء من خدعة. وإذا كان هذا صحيحاً، يكون قد بدد وقتها ووقته.

"أنا آسفة. لا أستطيع". هزت رأسها.

سألها: "هل لديك صديق؟" وترددت، ثم قررت أن الكذب أفضل من الحقيقة. خصوصاً إذا كان ينقذها من موقف محرج معه.

قالت مع نظرة بريئة: "نعم".

أجاب: "هذا مؤسف" وبدا خائب الأمل، ثم توجه أخيراً نحو الباب، مما بعث الارتياح في نفسها. جلست على الكرسي وراء مكتبها، وشعرت بالإرهاق فيما لا يزال النهار في منتصفه. الفطور مع أمها، وساعتان مع زبون متردد دعاها لتناول العشاء معه، هما أكثر مما أرادت مواجهته في أي يوم من أيام الأسبوع.

اتصلت بماريا لترى إذا كانت نجت من براثن أمها، وأكدت لها ماريا أنها بخير.

قهقهت ماريا قائلة: "أمضيت وقتاً جميلاً جداً مع أمك. لا شك في أنها لا تشبهك أبداً". أحبت أسلوب تاليا، رغم أنها مدللة بإفراط، ومتطرفة نوعاً ما.

قالت فرانشيسكا، مبتسمة: "هذا ألطف ما يمكنك قوله. طوال حياتي، كنت مذعورة من أن أصبح مثلها".

طمأنتها ماريا: "على الإطلاق. طاب يومك. أراك الليلة". وفيما أقفلت فرانشيسكا الخط وعادت إلى العمل أمام مكتبها، راودها الإحساس أنها عثرت على صديقة جديدة في ماريا.

الفصل السابع

في الأسبوع التالي، كانت فرانشيسكا مشغولة جداً. ذهبت إلى محترفات ثلاثة فنانين، وأعادت تنظيم الرفوف حيث تكدّس اللوحات الفنية، وأعادت للفنانين أعمالهم القديمة التي لم تتمكن من بيعها، إفساحاً في المجال أمام أعمال جديدة. وحضّرت لائحة بالمعارض الجماعية التي تنوي القيام بها السنة المقبلة. إنه دوماً تحدٍّ كبير أن تختار الفنانين الذين يمكنها عرض أعمالهم بحيث تعزز بعضها البعض ولا تتناقض. جاء أربعة من فنانيها هذا الأسبوع للزيارة. تحاول دوماً أن تكون مرحبة، مثلما هي مع زبائنها، لكنها كانت مستعجلة كثيراً ولديها الكثير من الأعمال. وفي خضمّ كل النشاطات في المعرض الفني ذلك الأسبوع، باعت لوحات عدة. ولفتها أن طبيب الأسنان الذي جاء الأسبوع الماضي اتصل بها واشترى ثلاث لوحات. جاء زبائن جدد، أرسلهم زبائن قدامى، واتصل بها مستشارون فنيّون، وزارتها مهندسة ديكور مشهورة وأعجبها ما رأته. كانت فرانشيسكا مسرورة. عادت إلى المنزل في وقت متأخر ككل ليلة، ونادراً ما رأت المستأجرين. وتأثرت للعثور على ملاحظات قصيرة في المطبخ من ماريا، تخبرها فيها عما هو موجود في البراد. حلّت ليلة الجمعة قبل أن يتاح لفرانشيسكا الوقت للتنفس. اتصلت بها أمها مرات عدة خلال الأسبوع، للتعليق على المستأجرين، لكن فرانشيسكا لم تملك الوقت للتحدث إليها، مما بعث الارتياح في نفسها.

استلقت على سريرها ليلة الجمعة، وهي ممتنة لأنها ستعمل يوماً واحداً فقط، وتفكر في تمضية يوم الأحد في السرير مع كتاب جيد. ما من شيء آخر تريد القيام به، ولا تريد رؤية أحد. وعلى غير العادة، عرفت أن كل

مستأجريها سيكونون خارج المنزل في عطلة نهاية الأسبوع هذه. قال كريس إنه سيكون خارج المنزل. أعلنت إيلين يوم الجمعة أنها ذاهبة للتزلج مع رجل جديد، وقررت ماريا الذهاب إلى فيرمونت في عطلة نهاية الأسبوع للتحقق من وضع الأمور في منزلها. ليلة السبت، حين عادت فرانشيسكا إلى المنزل، كانت وحيدة تماماً. في البداية، كان ذلك رائعاً، لكنها ذهلت صباح الأحد أنها تشعر بالوحدة والاكتئاب. وجودهم بشكل يومي معها كان درعاً واقياً من أشباح ماضيها، علماً أن تود هو الأحدث. لم تسمع منه أي خبر منذ أكثر من شهر، مما أبلغها أنه تكيف مع الوضع بصورة أفضل منها. في اللحظات الهادئة، لا تزال تشتاق إليه. بدأت تتساءل ما إذا كانت ستبقى هكذا دائماً. حين تفكر في الأمر، لا ترغب في استعادة حياتهما معاً، لكنها تشتاق إليه في أية حال.

وبحلول بعد ظهر يوم الأحد، بدأت تشعر بالأسف على نفسها، واشتاقت إلى مستأجريها. لم تكف عن التساؤل ما إذا كان كريس في موعد غرامي، رغم أن هذا ليس من شأنها. لم يحضر أبداً النساء إلى المنزل وحافظ كثيراً على خصوصيته.

بحلول الساعة السابعة ليل الأحد، كانت لا تزال وحيدة. جعلها ذلك تدرك كم هي محظوظة بوجودهم هنا. كانت ستشعر بالتعاسة في المنزل وحدها، من دون أحد للتحدث إليهم، ومن دون دليل على الحياة.

كانت تحضر لنفسها البيض المخفوق للعشاء، وتفكر في طهو ماريا اللذيذ، عندما لاحظت فجأة تقطراً مطرداً للماء. لم تكن واثقة بمصدره، ونظرت حول المطبخ. إنه آتٍ من السقف بسرعة كبيرة. ثمة حمام صغير فوق المطبخ، وعندما صعدت إلى الأعلى للتحقق، لاحظت أن دفقاً كبيراً من الماء يخرج من السقف في الطابق العلوي، حيث حمام كريس. حصلت العديد من الارتشاحات قبلاً من هناك. صعدت السلالم بسرعة وكان الماء هناك في كل مكان، يتدفق مباشرة من الجدار، من قسطل مكسور ربما. نزلت إلى الأسفل بسرعة كبيرة للإمساك بمفتاح الربط الخاص بتود وأدواته، وبخوف كبير، أمسكت بهاتفها الخلوي واتصلت به. أجاب بعد الرنة الثانية.

"ماذا أفعل؟" صرخت بصوت عال عبر الهاتف، وحاول إخبارها. وضعت الهاتف جانباً، وجربت ما اقترحه، ولم ينجح أي شيء. كان دفق الماء قوياً أكثر من أي وقت مضى.

صرخ تود لها: "اقطعي الماء!". أخبرها عن مكان الصمام، وكانت مبللة بالماء من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها فيما حاولت القيام بذلك، ودخل كريس آنذاك وبدا مذهولاً بالمشهد في حمامه. كانت فرانشيسكا مبللة كلها، ووصل علو الماء إلى كاحليهما، مع نبع ماء حارّ متدفق من القسطل المكسور في الجدار. نظرت إليه بذعر، ودفعها جانباً برفق، وأخذ منها مفتاح الربط، وقطع الماء. على الفور، توقف تدفق الماء، فيما حدقت فيه بذهول.

قالت: "أنا آسفة. شكراً لك" وأبعدت شعرها عن عينيها. كان يبتسم لها وبدا مسروراً.

قال ممازحاً: "هل أمضيت كل عطلة نهاية الأسبوع هنا؟".

"اكتشفت الأمر للتو. كان الماء يتقطر من سقف المطبخ"، وفيما قالت ذلك، صرخت بصوت عال: "يا إلهي، تركت البيض على النار". نزلت السلالم مسرعة، ووجدت البيض قد تحول فحماً. لقد وصلت ماريا، وكانت تفرك المقلاة بهدوء. قالت فرانشيسكا باعتذار: "أنا آسفة جداً". لقد توترت كثيراً بسبب تدفق الماء، ثم تذكرت تود على الهاتف. تركته على المغسلة في حمام كريس. كان تود قد أقفل الخط حينها، لكنه أجاب فوراً عندما عاودت الاتصال به.

سأل بلطافة: "هل تريدين أن آتي للمساعدة؟".

"لا. أنا بخير. قام المستأجر بقطع الماء. عليّ إحضار سمكري غداً؟".

"أين حصل الارتشاح؟".

"في المكان نفسه الذي لم تتمكن أنت من إصلاحه. حمام المكتبة". أصبح الآن حمام كريس.

"عليك في يوم من الأيام تغيير كل قساطل هذا المنزل، وسيكلفك ثروة. عليك بيع المنزل قبل حصول ذلك". انزعجت مما قاله. لم يعد يحب المنزل

ربما، لكنها لا تزال تحبه. شكرته على رغبته في المساعدة. ساعدها كريس على مسح الأرض. كان لطيفاً وهادئاً بالرغم من الفوضى، على عكس تود الذي كان يتذمر بإفراط كلما حصل خطب في المنزل، خصوصاً في العام الماضي. لقد سئم من ذلك. يملك كريس طبيعة أكثر هدوءاً.

"يحصل هذا النوع من الأمور في المنازل القديمة. كنت أملك منزلاً قديماً قبل زمن طويل، عندما ولد إيان. أحببته، بالرغم من وجود الكثير من المشاكل فيه، لكن العمل على إصلاحه كان ممتعاً. أنجزت معظم التصليحات بنفسي". كان هذا أكثر ما قاله لغاية الآن عن حياته السابقة، ولم يتحدث أبداً عن والدة إيان. إنه شخص متكتم جداً، لدرجة الصمت التام وأحبت فرانشيسكا ذلك فيه.

قالت: "فعلنا الشيء نفسه هنا. كان المكان فوضوياً عندما اشتريناه. أنا أحببته. لكن الرجل الذي عشت معه لم يحبه".

"يصبح المنزل عتيقاً، لكني ما زلت أعتقد أن هذا ممتع. عندما كنت أصغر سناً، كنت أرمم المنازل القديمة لجني المال. كان عملاً مذهلاً، لكن سوق العقارات ارتفعت جداً لتحقيق ربح. ما زلت أشتاق إلى ذلك العمل".

قالت: "حسناً، يمكنك اللعب في هذا المنزل متى تشاء". فيما وقفا حافيي القدمين في إنشين من الماء، وضحكا عالياً.

أجاب بلطافة: "سأتذكر ذلك".

أرادت أن تسأله كيف كانت عطلة نهاية الأسبوع معه، لكنها لم تجرؤ. لا تريد أن يظن أنها تتجسس عليه. فعطلة نهاية أسبوعه ليست من شأنها. إنه مستأجر لديها وليس صديقها. ذكّرت نفسها بذلك فيما صعدت إلى الأعلى إلى غرفتها وسمعت إيلين تصل بعد دقائق قليلة. أقحمت رأسها عبر باب فرانشيسكا وقالت إنها أمضت عطلة نهاية أسبوع رائعة مع رجل رائع. قالت إن دوغ أصبح من الماضي، بعد أن التقت الآن بهذا الرجل. رأت فرانشيسكا أن هذا سريع جداً لتمضية عطلة نهاية أسبوع معه، لكن من هي لتحكم عليها؟ إيلين شابة، ومع فارق اثني عشر عاماً تقريباً بينهما، تعتبر

إيلين من جيل مختلف تماماً. إنها مبدئياً فتاة لطيفة، وإن كانت أكثر تحرراً مما كانت فرانشيسكا في عمرها. إلا أنها اعتبرت نفسها بطيئة نوعاً ما. كان تود أول حب حقيقي لها، في عمر الثلاثين، على رغم إقامتها علاقات عدة قبلاً.

فرحت فرانشيسكا لسماع أن دوغ رحل ولن يعود. تساءلت كيف هو الشاب الجديد، ولم تضطر إلى الانتظار كثيراً. لم تشعر فرانشيسكا بهما عندما حضرا معاً في وقت متأخر تلك الليلة، وإنما كان على الفطور معهم في صباح اليوم التالي. بدا ممتلئاً وقصيراً، ومحرجاً قليلاً للتواجد هنا. وافقت عليه فرانشيسكا، ثم ضحكت في قرارة نفسها، وهي تشعر كأنها أمها بحيث تحكم على كل من يكون معها.

أمضت أسبوعاً آخر محموماً. ذهبت إلى احتفالين في معارض فنية أخرى، وإلى افتتاح معرض مهم في متحف الفن المعاصر، كان حماسياً جداً. التقت بمصور فوتوغرافي في المتحف. اسمه كلاي واشنطن، وما فاجأها أنه حين دعاها لتناول العشاء معه، قبلت. إنها تحاول بذل جهد. أفيري محقة. لا تستطيع البقاء مسجونة في شارع تشارلز إلى الأبد. اصطحبها إلى مطعم صيني في شارع موت وأمضيا وقتاً جيداً. كان الحديث معه ممتعاً. لقد سافر كثيراً إلى آسيا وعاش في الهند وباكستان لأعوام عدة. كان ذكياً وجذاباً، وحاولت ألا تلاحظ كم هو مختلف عن تود. كلاي، المصور الفوتوغرافي، يشبهها كثيراً. كان تود يصنفه بمثابة غجري. إلا أنه جديد ومختلف. أوصلها إلى منزلها في سيارة أجرة بعد العشاء، ولم تدعه للدخول معها إلى المنزل. وعدها بالاتصال بها. لم تقع في غرامه، لكنها كانت أمسية لطيفة، وهذا كاف لغاية الآن.

اتصل بها بعد ثلاثة أيام، مثلما وعد، ودعاها لتناول الغداء. جاء إلى المعرض الفني، وتأمل بإعجاب اللوحات الفنية المعروضة حالياً، وتأثر حين أدرك أن والدها هو هنري ثاير. كل شيء فيه بدا مناسباً، سوى أنها غير منجذبة إليه، لكن هذا قد يحصل مع الوقت. قبّلها بعد الغداء في مطعم اسمه

بريد، وسمحت له، لكنها لم تشعر بأي شيء. شعرت أنها ميتة في الداخل، أو خدرة. لقد أخذ تود قلبها معه.

حاولت شرح الأمر لماريا في لحظة هادئة تلك الليلة.

"كان ذلك غريباً جداً. شعرت أنني أخون تود".

"يحتاج الأمر إلى الوقت للتحرر من شخص ما. قبل زمن طويل جداً، كنت مخطوبة من شخص آخر قبل أن ألتقي بزوجي. قتل في حادث بحري. لم أعد أنظر إلى أي رجل طوال عامين. لم يكن بوسعي فعل ذلك. حتى إنني فكرت في الذهاب إلى مُعتزل". ابتسمت فيما قالت ذلك. "كنت شابة جداً. ثم التقيت بجون ووقعت في غرامه، وعدت إلى الحياة مجدداً، أكثر من أي وقت مضى. تزوجنا بعد سنة. امنحي نفسك الوقت. وإذا كان الشخص جيداً، لا يعني بالضرورة أنه مناسب لك. سوف تعرفين ذلك عندما تجدينه. قد تصبحين أنت والمصور الفوتوغرافي مجرد صديقين". بدت هذه فكرة أفضل لفرانشيسكا، وشعرت بالامتنان لحكمة ماريا ونظرتها. إنها واثقة بأنها محقة.

عندما اتصل بها كلاي في المرة التالية، أخبرته أنها مشغولة. تنوي الذهاب إلى مزاد علني للفنون في كريستيز وفكرت في دعوته، لكنها أدركت أنها لا تريد ذلك. لذا، ذهبت بمفردها. فهذا أسهل من الذهاب مع الرجل غير المناسب. أمضت وقتاً جيداً في التحدث إلى مجموعة منوعة من الأشخاص بعد المزاد العلني، الذي كان حيوياً، وكانت تغادر عندما رأت شخصاً مألوفاً في البعيد. تعرفت إليه من طريقة مشيته وتحركه، ورأته ينحني ويتحدث إلى امرأة، فقفز قلبها في صدرها. إنه تود، يتحدث إلى امرأة جميلة جداً. شبكت ذراعها في ذراعه، وكان يبتسم أثناء تحدثه إليها، تماماً مثلما كان يفعل في البداية معها. أرادت فرانشيسكا الانبطاح على الأرض والاختفاء أو الزحف خارج الغرفة قبل أن يراها. شعرت أنها تتجسس عليه. ليس هذا صحيحاً، لكنها تسمرت مما رأته، وشعرت أن قلبها يقع أرضاً. إنها عاجزة عن الإحساس بأي شيء حيال رجل آخر، وها هو مع هذه المرأة الجميلة جداً،

إيلين من جيل مختلف تماماً. إنها مبدئياً فتاة لطيفة، وإن كانت أكثر تحرراً مما كانت فرانشيسكا في عمرها. إلا أنها اعتبرت نفسها بطيئة نوعاً ما. كان تود أول حب حقيقي لها، في عمر الثلاثين، على رغم إقامتها علاقات عدة قبلاً.

فرحت فرانشيسكا لسماع أن دوغ رحل ولن يعود. تساءلت كيف هو الشاب الجديد، ولم تضطر إلى الانتظار كثيراً. لم تشعر فرانشيسكا بهما عندما حضرا معاً في وقت متأخر تلك الليلة، وإنما كان على الفطور معهم في صباح اليوم التالي. بدا ممتلئاً وقصيراً، ومحرجاً قليلاً للتواجد هنا. وافقت عليه فرانشيسكا، ثم ضحكت في قرارة نفسها، وهي تشعر كأنها أمها بحيث تحكم على كل من يكون معها.

أمضت أسبوعاً آخر محموماً. ذهبت إلى احتفالين في معارض فنية أخرى، وإلى افتتاح معرض مهم في متحف الفن المعاصر، كان حماسياً جداً. التقت بمصور فوتوغرافي في المتحف. اسمه كلاي واشنطن، وما فاجأها أنه حين دعاها لتناول العشاء معه، قبلت. إنها تحاول بذل جهد. أفيري محقة. لا تستطيع البقاء مسجونة في شارع تشارلز إلى الأبد. اصطحبها إلى مطعم صيني في شارع مووت وأمضيا وقتاً جيداً. كان الحديث معه ممتعاً. لقد سافر كثيراً إلى آسيا وعاش في الهند وباكستان لأعوام عدة. كان ذكياً وجذاباً، وحاولت ألا تلاحظ كم هو مختلف عن تود. كلاي، المصور الفوتوغرافي، يشبهها كثيراً. كان تود يصنفه بمثابة غجري. إلا أنه جديد ومختلف. أوصلها إلى منزلها في سيارة أجرة بعد العشاء، ولم تدعه للدخول معها إلى المنزل. وعدها بالاتصال بها. لم تقع في غرامه، لكنها كانت أمسية لطيفة، وهذا كاف لغاية الآن.

اتصل بها بعد ثلاثة أيام، مثلما وعد، ودعاها لتناول الغداء. جاء إلى المعرض الفني، وتأمل بإعجاب اللوحات الفنية المعروضة حالياً، وتأثر حين أدرك أن والدها هو هنري ثاير. كل شيء فيه بدا مناسباً، سوى أنها غير منجذبة إليه، لكن هذا قد يحصل مع الوقت. قبلها بعد الغداء في مطعم اسمه

بريد، وسمحت له، لكنها لم تشعر بأي شيء. شعرت أنها ميتة في الداخل، أو خدرة. لقد أخذ تود قلبها معه.

حاولت شرح الأمر لماريا في لحظة هادئة تلك الليلة.

"كان ذلك غريباً جداً. شعرت أنني أخون تود".

"يحتاج الأمر إلى الوقت للتحرر من شخص ما. قبل زمن طويل جداً، كنت مخطوبة من شخص آخر قبل أن ألتقي بزوجي. قتل في حادث بحري. لم أعد أنظر إلى أي رجل طوال عامين. لم يكن بوسعي فعل ذلك. حتى إنني فكرت في الذهاب إلى مُعتزل". ابتسمت فيما قالت ذلك. "كنت شابة جداً. ثم التقيت بجون ووقعت في غرامه، وعدت إلى الحياة مجدداً، أكثر من أي وقت مضى. تزوجنا بعد سنة. امنحي نفسك الوقت. وإذا كان الشخص جيداً، لا يعني بالضرورة أنه مناسب لك. سوف تعرفين ذلك عندما تجدينه. قد تصبحين أنت والمصور الفوتوغرافي مجرد صديقين". بدت هذه فكرة أفضل لفرانشيسكا، وشعرت بالامتنان لحكمة ماريا ونظرتها. إنها واثقة بأنها محقة.

عندما اتصل بها كلاي في المرة التالية، أخبرته أنها مشغولة. تنوي الذهاب إلى مزاد علني للفنون في كريستيز وفكرت في دعوته، لكنها أدركت أنها لا تريد ذلك. لذا، ذهبت بمفردها. فهذا أسهل من الذهاب مع الرجل غير المناسب. أمضت وقتاً جيداً في التحدث إلى مجموعة منوعة من الأشخاص بعد المزاد العلني، الذي كان حيوياً، وكانت تغادر عندما رأت شخصاً مألوفاً في البعيد. تعرفت إليه من طريقة مشيته وتحركه، ورأته ينحني ويتحدث إلى امرأة، فقفز قلبها في صدرها. إنه تود، يتحدث إلى امرأة جميلة جداً. شبكت ذراعها في ذراعه، وكان يبتسم أثناء تحدثه إليها، تماماً مثلما كان يفعل في البداية معها. أرادت فرانشيسكا الانبطاح على الأرض والاختفاء أو الزحف خارج الغرفة قبل أن يراها. شعرت أنها تتجسس عليه. ليس هذا صحيحاً، لكنها تسمرت مما رأته، وشعرت أن قلبها يقع أرضاً. إنها عاجزة عن الإحساس بأي شيء حيال رجل آخر، وها هو مع هذه المرأة الجميلة جداً،

وبيدو مفتوناً بها. تلألأت الدموع في عينيها فيما ركضت خارج المعرض الفني وأوقفت سيارة أجرة وأعطت السائق عنوانها في شارع تشارلز. بكت طوال طريق العودة إلى المنزل، وأرادت الاختباء عندما وصلت. لم تشأ رؤية أحد. أرادت فقط الاستلقاء في السرير والموت.

إنه نداء استيقاظ لها. إنها تندب رجلاً كانت تعيسة جداً معه طوال عام، رجلاً أحبته لكنه ليس مناسباً لها. ليسا مناسبين لبعضهما البعض، حتى لو أحبا بعضهما. لقد انفصلا، وغادر المنزل، فيما لا تزال هي متشبثة بشيء ما- الذكريات، شبحه، العلاقة التي أراداها ولم يتمكنا من إنجاحها. ردة فعله كانت أفضل منها. إنه يعيش حياته، أما هي فلا. شعرت فجأة كأن أحداً رمى الماء البارد عليها. تساءلت إذا كان مغرماً بالفتاة التي رأتها معه، لكن سواء أكان مغرماً أم لا، فإن هذا لا يبدل شيئاً. لم يعد ينتمي إليها، ولن ينتمي أبداً، ولا يفترض به ذلك أصلاً. لا تريد الألم الذي عاشاه في النهاية. الرسالة تلك الليلة كانت واضحة: عليها المضي قدماً. لقد انتهى الأمر.

لا تزال غير راغبة في كلاي واشنطن، المصور الفوتوغرافي الذي التقت به في متحف الفن المعاصر، لكن في مكان ما يوجد رجل مناسب لها، ولديها الحق في العثور عليه. مهما كان تود لطيفاً معها لفترة من الوقت، لكنه لم يكن مناسباً لها. عليها العثور على حلمها في مكان آخر. لقد وجد هو حلمه ربما. لكن سواء أفعل ذلك أم لا، عرفت أنه عليها بدء العيش مجدداً، وليس فقط بين المعرض و44 شارع تشارلز. تحتاج إلى حياة جديدة وعالم أوسع. إلا أن رؤيته مع امرأة أخرى سرّعت الأمور بلا شك. كان ذلك مؤلماً جداً. فكرت في الأمر مطولاً تلك الليلة، وراودتها باستمرار الطلة على وجهه عندما استدار نحو المرأة التي كان معها. كانت لا تزال مصدومة من الأمر عندما نزلت إلى الأسفل في صباح اليوم التالي وجلست أمام طاولة المطبخ، تحدق بعينين زائغتين. لم تسمع حتى كريس وهو يدخل.

قال، ممازحاً: "بهذا السوء؟"، فيما حضّر إبريقاً من القهوة. لم ينهض أحد بعد.

"هم؟... ماذا؟... آسفة..." بدت شاردة ومنهكة. لم تنم جيداً وبدا ذلك بوضوح.

قال بصراحة: "تبدين وكأنك كنت ثملة"، وأعطاها كوباً من القهوة بعد دقائق قليلة. بدأت تنشأ صداقة عفوية بينهما كرفيقين في المسكن.

"طاردني شبح الماضي. رأيت صديقي السابق الليلة الماضية مع امرأة جديدة. أعتقد أن الأمر أزعجني أكثر مما يفترض. إنه رجوع إلى الحقيقة بالنسبة إليّ".

قال كريس فيما جلس قبالتها: "ومن يحدد القواعد لذلك؟ وكم تستغرق تلك الأمور. من يقرر كم ستنزعجين؟ إذا أزعجك الأمر، فليكن. لديك الحق في مشاعرك. لا شك في أن هذا الأمر مزعج". أحست أنه كان موجوداً هناك، مما قاله، لكنها لم تسأله. شعرت بالامتنان لكلماته اللطيفة، وشكرته فيما دخلت ماريا، وهي تبدو متألقة ومرحة كالمعتاد. تبدو دوماً في مزاج جيد، هذا تناقض واحد مع مشاعر فرانشيسكا، التي تمددت نحو الكمبيوتر الموضوع على الطاولة. لا يلمسه كريس أبداً، ولا تعرف ماريا كيفية استعماله، أما إيلين فهي أكثر من يستعمله معظم الوقت لأنها لا تزال تملك واحداً خاصاً بها.

شغلته فرانشيسكا، والشيء التالي الذي عرفته أن مشهداً مروعاً ظهر على الشاشة. أدركت فرانشيسكا ماذا حصل. كانت إيلين تشاهد فيلماً إباحياً، ربما مع صديقها الجديد، ولم تتخيل فرانشيسكا أبداً الأشياء التي يفعلانها، فيما عادت مجدداً إلى وعيها أوقفت عمله، وهي لا تزال مصدومة. كان كريس يضحك بصوت عالٍ، وقهقهت ماريا قليلاً. كلهم راشدون، وعرفت فرانشيسكا أنه لا يفترض بهم أن يكونوا مذعورين، لكن رؤية ذلك كانت مربكة فعلاً. بدا كريس مسروراً جداً، بالرغم من أنه لا يبدو من النوع الذي يشاهد أفلاماً إباحية، لكنه رأى أن تنافر ذلك على طاولة الفطور كان مضحكاً جداً.

قال: "أعتقد أن بو بيب الصغيرة ليست بريئة جداً مثلما تبدو". رأى ذلك غير مؤذٍ، ولم يزعجه، بالرغم من أنه لم يكن ليعتبر الأمر مضحكاً هكذا لو

ويبدو مفتوناً بها. تلألأت الدموع في عينيها فيما ركضت خارج المعرض الفني وأوقفت سيارة أجرة وأعطت السائق عنوانها في شارع تشارلز. بكت طوال طريق العودة إلى المنزل، وأرادت الاختباء عندما وصلت. لم تشأ رؤية أحد. أرادت فقط الاستلقاء في السرير والموت.

إنه نداء استيقاظ لها. إنها تندب رجلاً كانت تعيسة جداً معه طوال عام، رجلاً أحبته لكنه ليس مناسباً لها. ليسا مناسبين لبعضهما البعض، حتى لو أحبا بعضهما. لقد انفصلا، وغادر المنزل، فيما لا تزال هي متشبثة بشيء ما- الذكريات، شبحه، العلاقة التي أراداها ولم يتمكنا من إنجاحها. ردة فعله كانت أفضل منها. إنه يعيش حياته، أما هي فلا. شعرت فجأة كأن أحداً رمى الماء البارد عليها. تساءلت إذا كان مغرماً بالفتاة التي رأتها معه، لكن سواء أكان مغرماً أم لا، فإن هذا لا يبدل شيئاً. لم يعد ينتمي إليها، ولن ينتمي أبداً، ولا يفترض به ذلك أصلاً. لا تريد الألم الذي عاشاه في النهاية. الرسالة تلك الليلة كانت واضحة: عليها المضي قدماً. لقد انتهى الأمر.

لا تزال غير راغبة في كلاي واشنطن، المصور الفوتوغرافي الذي التقت به في متحف الفن المعاصر، لكن في مكان ما يوجد رجل مناسب لها، ولديها الحق في العثور عليه. مهما كان تود لطيفاً معها لفترة من الوقت، لكنه لم يكن مناسباً لها. عليها العثور على حلمها في مكان آخر. لقد وجد هو حلمه ربما. لكن سواء أفعل ذلك أم لا، عرفت أنه عليها بدء العيش مجدداً، وليس فقط بين المعرض و44 شارع تشارلز. تحتاج إلى حياة جديدة وعالم أوسع. إلا أن رؤيته مع امرأة أخرى سرّعت الأمور بلا شك. كان ذلك مؤلماً جداً. فكرت في الأمر مطولاً تلك الليلة، وراودتها باستمرار الطلة على وجهه عندما استدار نحو المرأة التي كان معها. كانت لا تزال مصدومة من الأمر عندما نزلت إلى الأسفل في صباح اليوم التالي وجلست أمام طاولة المطبخ، تحدق بعينين زائغتين. لم تسمع حتى كريس وهو يدخل.

قال، ممازحاً: "بهذا السوء؟"، فيما حضّر إبريقاً من القهوة. لم ينهض أحد بعد.

"هم؟... ماذا؟... آسفة..." بدت شاردة ومنهكة. لم تنم جيداً وبدا ذلك بوضوح.

قال بصراحة: "تبدين وكأنك كنت ثملة"، وأعطاها كوباً من القهوة بعد دقائق قليلة. بدأت تنشأ صداقة عفوية بينهما كرفيقين في المسكن.

"طاردني شبح الماضي. رأيت صديقي السابق الليلة الماضية مع امرأة جديدة. أعتقد أن الأمر أزعجني أكثر مما يفترض. إنه رجوع إلى الحقيقة بالنسبة إليّ".

قال كريس فيما جلس قبالتها: "ومن يحدد القواعد لذلك؟ وكم تستغرق تلك الأمور. من يقرر كم ستنزعجين؟ إذا أزعجك الأمر، فليكن. لديك الحق في مشاعرك. لا شك في أن هذا الأمر مزعج". أحست أنه كان موجوداً هناك، مما قاله، لكنها لم تسأله. شعرت بالامتنان لكلماته اللطيفة، وشكرته فيما دخلت ماريا، وهي تبدو متألقة ومرحة كالمعتاد. تبدو دوماً في مزاج جيد، هذا تناقض واحد مع مشاعر فرانشيسكا، التي تمددت نحو الكمبيوتر الموضوع على الطاولة. لا يلمسه كريس أبداً، ولا تعرف ماريا كيفية استعماله، أما إيلين فهي أكثر من يستعمله معظم الوقت لأنها لا تزال تملك واحداً خاصاً بها.

شغلته فرانشيسكا، والشيء التالي الذي عرفته أن مشهداً مروعاً ظهر على الشاشة. أدركت فرانشيسكا ماذا حصل. كانت إيلين تشاهد فيلماً إباحياً، ربما مع صديقها الجديد، ولم تتخيل فرانشيسكا أبداً الأشياء التي يفعلانها، فيما عادت مجدداً إلى وعيها أوقفت عمله، وهي لا تزال مصدومة. كان كريس يضحك بصوت عالٍ، وقهقهت ماريا قليلاً. كلهم راشدون، وعرفت فرانشيسكا أنه لا يفترض بهم أن يكونوا مذعورين، لكن رؤية ذلك كانت مربكة فعلاً. بدا كريس مسروراً جداً، بالرغم من أنه لا يبدو من النوع الذي يشاهد أفلاماً إباحية، لكنه رأى أن تنافر ذلك على طاولة الفطور كان مضحكاً جداً.

قال: "أعتقد أن بو بيب الصغيرة ليست بريئة جداً مثلما تبدو". رأى ذلك غير مؤذٍ، ولم يزعجه، بالرغم من أنه لم يكن ليعتبر الأمر مضحكاً هكذا لو

كان إيان موجوداً في الغرفة. لكان ذلك أزعجه كثيراً.

قالت فرانشيسكا بهدوء: "سأطلب منها عدم مشاهدة مثل هذه الأمور على كمبيوتر المنزل"، وفكرت في إيان أيضاً. أحب اللعب بالكمبيوتر وكان بارعاً في ذلك. لا تريده أن يقع على مثل هذه المشاهد، ولا تريد هي رؤيتها أيضاً. إنها تستلطف إيلين، لكنها شعرت في معظم الأوقات كأنها الأم المسؤولة في مسكن لطالبات الجامعة. بعض الرجال الذين تخرج معهم إيلين يبدون مقلقين بالنسبة إلى فرانشيسكا. إلا أن إيلين تجيد غربلة الوضع، بحيث تخرج معهم مرات قليلة ثم تنتقل إلى رجل آخر. الرجل الذي تراه في الوقت الحاضر يبدو جيداً، واستمرت معه لوقت أطول من الآخرين، لكن بعض السابقين كانوا غير مناسبين وفظين كثيراً. لا تلاحظ إيلين الفرق دوماً.

كان كريس لا يزال يقهقه على حادثة الفيلم عندما صعد مجدداً إلى الأعلى للعمل، تلك الليلة طلبت فرانشيسكا من إيلين ألا تشاهد مثل هذه الأشياء على كمبيوتر المنزل، كي لا تقع عينا إيان عليها في عطلة نهاية الأسبوع.

قالت إيلين، وهي تبدو مذعورة: "آسفة لن أفعل ذلك أبداً! لقد شاهدناه فقط لمجرد اعتقادنا أنه مسلٍ. أعتقد أنني نسيت الخروج من الموقع عندما خلدنا إلى السرير. لا شك في أنني شربت كثيراً الليلة الماضية. أنا آسفة فعلاً، فرانشيسكا". بدت نادمة جداً، ومثل طفلة بريئة جداً عندما قالت ذلك، بحيث شعرت فرانشيسكا بالأسف عليها. جعلها ذلك تشعر فجأة أنها ممتنة لعدم إنجابها الأولاد. تكره إخبار أياً كان ما يجب فعله، أو توبيخه على سلوكه. ليست مسؤوليتها إطلاع إيلين على كيفية التصرف. إلا أنها لا تريد أفلاماً من هذه النوعية على كمبيوتر المطبخ. عانقتها إيلين بعدما اعتذرت منها، وتنهدت فرانشيسكا فيما راقبتها تقفز على السلالم مسرعة. بدأت فرانشيسكا تشعر أنها بمثابة أختها الكبرى، ولم تكن واثقة ما إذا كانت تريد هذا الدور. إلا أنه يصعب مقاومة طيبة إيلين.

كان كريس لا يزال يقهقه لذلك في الليلة التالية عندما كان هو وفرانشيسكا وماريا يتناولون العشاء في المطبخ. حضرت لهم ماريا شرائح بقر مشوية مع الخضار وبودينغ يوركشاير. خرجت إيلين في موعد غرامي مع صديقها الجديد. قال كريس على سبيل المزاح: "ربما يجدر بنا أن نشتري لهما أفلام دي في دي". كان في مزاج جيد وتحدث أكثر من المعتاد فيما تناولوا الحلوى. تشاركت ماريا معهما إحدى أفضل قناني الشراب لديها، وكانت وجبة لذيذة.

خبزت ماريا حلوى ألاسكا، وكانت قد أشعلت اللهب للتو حين رنّ هاتف كريس الخلوي، وأخرجه من جيبه، وأجاب فيما تأمل بإعجاب الحلوى المذهلة. الأمر أشبه بالعيش في مطعم ذي أربعة نجوم مع وجود ماريا هنا، التي أحبت طهو الأطباق لهم. ناوبت بين وصفاتها القديمة المفضلة وأخرى جديدة.

كانت المرأتان تتحدثان فيما نهض كريس عن الطاولة مع تعبير جدي فجأة. توجه إلى الممر، وهو لا يزال ممسكاً بهاتفه الخلوي، واستطاعت فرانشيسكا سماعه يطرح الأسئلة بصوت مهذب، وبعد برهة أسرع إلى غرفته، وأمسك سترته، ولكنه بدا مذعوراً.

سألته فرانشيسكا: "هل أنت بخير؟"، وبدت قلقة. رغم أنهما ليسا صديقين مقربين، أصبحت حياتهما متقاطعة نتيجة العيش تحت سقف واحد.

أجاب وهو يحاول ارتداء سترته ويتوجه نحو السلالم: "لا، لست بخير".

سألته فرانشيسكا فيما أسرعت خلفه: "هل هو إيان؟".

"لا... نعم – لا أملك الوقت لشرح ذلك. إنها الشرطة. عليّ الذهاب لإحضاره".

"يا الله..." لا تريد تبديد وقته بالمزيد من الأسئلة، وصلّت ألا يكون الولد قد تعرض للأذى. جلست هي وماريا تحدقان إلى بعضهما البعض أمام الطاولة، ولم تأكل أي منهما الحلوى الجميلة. كل ما استطاعتا التفكير به هو الصبي الصغير الذي تحبانه.

نظفت ماريا بهدوء بقايا العشاء وساعدتها فرانشيسكا. لم تعرف أي منهما ما يجب قوله أو فعله. كان وجه كريس خالياً من اللون عندما خرج مسرعاً من المطبخ. بدا جلياً أنه مذعور على ابنه، وأملت المرأتان بشدة أن يكون الولد على ما يرام. لقد أحست فرانشيسكا منذ زمن طويل أن هناك أشياء مخيفة في حياة الصبي تجعل كريس قلقاً بشأنها، وهي مرتبطة ربما بمرض زوجته السابقة، التي يشير إليها إيان بين الحين والآخر، أو بشيء أسوأ.

ذهبتا إلى غرفتيهما بعد العشاء، وكانتا تفكران في كريس والصبي. كل ما تستطيعان فعله هو الانتظار. عند منتصف الليل، لم يكن كريس قد عاد إلى المنزل بعد، ولم يتصل أيضاً بأي منهما. عرفت فرانشيسكا أنه لا يدين لهما بأي تفسيرات. لقد استأجر منها الغرف، ولا يدين لها بأي شيء سوى الإيجار. تفاصيل حياته الخاصة ليست من شأنها، لكنها تشرح الكثير عنه، ولماذا هو هادئ ومنطوٍ إلى هذه الدرجة، ولا يتحدث أبداً عن ماضيه، ويتفوه بالقليل فقط. شكت في أن هنالك الكثير من الهموم في حياة كريس.

نامت عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وتركت باب غرفتها مفتوحاً كي تتمكن من سماعه عندما يصل، في حال احتاج إلى دعم معنوي أو مساعدة من أي نوع. إلا أنها لم تسمع أي شيء. كل ما عرفته أن بابه بقي مغلقاً في صباح اليوم التالي، ولم ينزل إلى الأسفل عندما غادرت إلى المعرض الفني عند العاشرة والنصف. لا تعرف أبداً ماذا حصل لإيان، أو كيف حلّ الأزمة بنفسه، أو ما إذا كان قد حلّها أصلاً. فكرت فيه فيما مرّت بهدوء أمام باب غرفته ونزلت السلالم مسرعة. ما حصل الليلة الماضية لا يزال غامضاً. يملك كل واحد منهم أحزانه وصدماته الخاصة التي لا علاقة لها أبداً بالآخرين، وتخصه وحده فقط.

الفصل الثامن

عندما عادت فرانشيسكا من المعرض الفني تلك الليلة، وجدت إيان جالساً بهدوء أمام طاولة المطبخ مع ماريا، يتناول طبق حساء. لم يكن والده في الغرفة، وأدركت فرانشيسكا فوراً أنه يوم الخميس، وهو يوم لا يرى فيه كريس إيان عادة. كما أنه يأتي إلى المنزل فقط في عطلات نهاية الأسبوع. ثمة خطب ما.

وضعت فرانشيسكا حقيبتها جانباً، وجلست على كرسي قرب إيان وابتسمت له. لم تعرف ماذا تقول. أرادت معانقته لكنها لم تشأ إرباكه. كانت ماريا تقرأ له قصة.

قالت فرانشيسكا بهدوء: "أنا مسرورة لرؤيتك إيان". ومررت يدها في شعره. نظر إليها بعينين حزينتين، مع ثقل العالم كله على كتفيه، وعندما نظر إليها كاد يحطم فؤادها.

قال بهدوء: "مرضت أمي الليلة الماضية. نامت ولم تستيقظ. حاولت إيقاظها لكني لم أنجح. كان هناك الكثير من الدم. ظننت أنها ميتة. اتصلت برقم النجدة". حاولت فرانشيسكا ألا تبدو مصدومة مثلما كانت فعلاً فيما أصغت وأومأت.

"لا بد أن هذا أخافك كثيراً". أومأ برأسه، ولم تشأ فرانشيسكا سؤاله ما إذا كانت أمه لا تزال على قيد الحياة أو أنها ماتت الليلة الماضية. فهذا يبرر تعبير الصدمة والحزن على وجهه. بدا مثل يتيم جالساً هنا، وأرادت وضع ذراعيها حوله، لكنه بدا ضعيفاً جداً بحيث لم تجرؤ.

"إنها الآن في المستشفى، إنها مريضة جداً. سأبقى هنا مع أبي".

قالت بهدوء: "أنا مسرورة لوجودك هنا".

أضافت ماريا: "وأنا أيضاً. يمكنك مساعدتي في إعداد الكثير من البسكويت. يمكنك أخذ البعض منها معك إلى المدرسة". أومأ مجدداً، ودخل والده إلى الغرفة، وبدا كريس مصدوماً بقدر ابنه. ثمة هالات داكنة تحت عينيه من الليلة السابقة.

جلس كريس أمام الطاولة وابتسم لإيان، كما لو أنهما خاضا الحرب معاً. ظنت فرانشيسكا أن هذا ما حصل فعلاً، نظراً لما سمعته للتو.

"كيف حالك أيها البطل؟".

أجاب إيان بهدوء: "بخير". تناول القليل جداً من الحساء.

"أظن أننا نحتاج إلى الخلود إلى السرير باكراً والنوم قليلاً. ما رأيك في ذلك؟" بدا كريس منهكاً تماماً.

قال إيان مجدداً: "حسناً". لم يكن الولد الحيوي والسعيد الذي يكون عليه في عطلات نهاية الأسبوع، لكن إذا شاهد أمه في بركة دم، يسهل فهم سبب انكساره هذا.

لمست ماريا ذراعه بتعاطف، فيما رفع كريس الصبي وحمله إلى الأعلى. نظر بامتنان إلى ماريا، التي كانت رائعة مع إيان طوال بعد الظهر. بقيت فرانشيسكا وتحدثت مع ماريا لبعض الوقت. لا تعرف أي منهما ماذا حصل بالضبط، لكن يبدو الأمر سيئاً، والرعب مرسوم على وجه الولد.

كانت فرانشيسكا تشاهد التلفزيون في غرفتها عندما صعد كريس إلى الأعلى لرؤيتها بعد أن نام إيان.

قال: "أنا آسف على كل ما حصل"، وبدا حزيناً جداً، فيما أشارت إليه للجلوس على كرسي في غرفة نومها ففعل. كانت ترتدي كنزة وسروال جينز، وهو أيضاً. "ليس هذا جديداً علينا، لكنها دوماً صدمة في أية حال. والدة إيان مدمنة على الهيروين. تناولت جرعة زائدة الليلة الماضية. أخبرتني أنها أصبحت نظيفة، لكنها لم تخبرني الحقيقة. لا أعرف ماذا حصل، وأعتقد أنها على علاقة برجل سيئ جداً في الآونة الأخيرة. حقنت نفسها، وشطبت

معصميها، ونزفت حتى الموت تقريباً أمام إيان. أنقذ حياتها واتصل برقم النجدة. كان لا يزال يضغط على شرايينها بأصابعه عندما وصلوا. كان مغطى بالدم، وكذلك هي، لكنه أنقذها. ستعود إلى مركز إعادة التأهيل مجدداً بعد خروجها من المستشفى. أنا آسف لإخبارك كل هذا فرانشيسكا. إنه أمر مزعج، وصعب جداً عليه. أنا انسحبت من حياتها، لكنها أمه ونملك حق الحضانة المشتركة.

"طالما أنها بعيدة عن المخدرات، نتشارك حضانته، وما إن تتحسن بعد هذه الحادثة، ربما سيعود إليها. أكره ذلك، لكن هكذا هي الأمور. إنها مقنعة جداً حين تتوقف عن التعاطي. والقضاة لا يحبون إبعاد الأولاد عن أمهاتهم، لذلك يعطونها دوماً فرصة أخرى، على الأقل لغاية الآن. يتم فحصها كل أسبوع للتحقق من عدم وجود المخدرات في دمها، ولذلك يتم منحنا حق الحضانة المشتركة إلى أن تنسف ذلك الحق، كما حصل الآن. وإيان يحبها جداً. إنها أمه. كلما يحصل مثل هذا النوع من الأمور، يجد نفسه ممزقاً، وأنا أيضاً بسبب اضطراره إلى هذه المعاناة. أردت قبلاً أن أقتلها بسبب ذلك. لكنني أريد الآن فقط إخراجه من هذه المحنة من دون أن يدمّر حياته. لقد دمرت حياتي ما يكفي. أودّ الحصول على حق الرعاية لي، لكنها بارعة جداً في الكلام، وتبدو مثالية في المحكمة عندما تتوقف عن التعاطي. يصدقها القضاة كل مرة". لاحظت فرانشيسكا كم هو منهار بسبب ما يحصل لابنه، وتخيلت حينها أن حياتهما الزوجية كانت على الأرجح هكذا. إنه آخر شخص تشك في تورطه مع مدمنة على المخدرات. فهو حساس ومستقيم جداً. لكن يبدو جلياً أنها على نقيضه. أدركت فرانشيسكا أن أحداً لا يعرف حقيقة الحياة الخاصة للأشخاص. يبدو جلياً أن حياته الخاصة كابوس، وها هو الآن إيان يعيشه. بدا كريس على وشك البكاء فيما تحدث إليها عن الموضوع.

"جئت للتحدث إليك لأنني لا أعرف كم من الوقت سيبقى إيان معي. يفترض بها أن تذهب إلى مركز لإعادة التأهيل حين تخرج من المستشفى.

إذا أرادت ذلك. تقول الآن إنها راغبة، لكنها قد تبدل رأيها حين تصل إلى هناك. لن يعود إيان للعيش معها إلا حين يتم فحصها والتأكد من أنها نظيفة فعلاً من المخدرات. يمكنها لملمة نفسها خلال شهر أو اثنين أو ثلاثة. أو قد تقتل نفسها في يوم من الأيام. أخبرتك قبلاً أن إيان سيكون معي مرتين فقط في الشهر خلال عطلات نهاية الأسبوع، لكن الحال لن تكون هكذا الآن لبعض الوقت. أردت أن أسألك إذا كنت تريدين مني المغادرة. لم تتوقعي وجود ولد هنا طوال الوقت، ولذلك سأبحث عن شقة لي ولإيان، إذا فضلت ذلك. لم أكن أظن أنني بحاجة إلى شقة عندما جئت للعيش هنا، لكن يبدو أنني بحاجة إليها الآن. يعود الأمر إليك، فرانشيسكا، وأفهم تماماً إذا كنت لا ترغبين في وجودنا هنا. أخبريني فقط ما الذي تريدين مني أن أفعله، وسأتدبر أمري بأسرع ما يمكن". بدا منهكاً تماماً فيما تطوع لمغادرة المنزل، ونظرت إليه بذعر.

"هل تمزح؟ هل تظن أنني سأطلب منك المغادرة مع كل ما يحصل لك ولإيان؟ إنه مرحّب به هنا، وأنت أيضاً. لا أفكر في أن أطلب منك المغادرة، ولا أريدك أن تفعل ذلك. نحن نحب إيان، وأود أن أكون موجودة لمساعدته أيضاً. لا بد أن هذه المرحلة صعبة جداً عليه". شعرت فعلاً بالأسف عليه.

قال: "وأنا أيضاً"، متذكراً منظر طفله المغطى بالدم عندما اصطحبه من المستشفى الليلة الماضية. "لا يجدر بأي ولد أن يعيش على هذا النحو. لو كانت تملك عقلاً أو حناناً في قلبها، لتخلت عن حضانته، لكنها لن تفعل ذلك. إنها تخشى من رد فعل أهلها، سيتوقفون عن دفع المال لها، لذلك تتشبث بحضانته إنها لا تستطيع الاهتمام به. لكنهم لا يريدونها التخلي عنه، وهذا مقرف. عليّ الذهاب إلى الجلسة غداً للحصول على حضانته مؤقتاً. سيعطونه لي الآن، لكن ما إن تتعافى مجدداً وتقنع القاضي، وتبدو نظيفة من المخدرات، سيعيد القاضي إيان إليها مجدداً ضمن حق الحضانة المشتركة. يحزنني جداً إرساله مجدداً إليها. إنها المرة الثالثة التي يحصل

فيها هذا، ويستمرون في إعادته إليها حين تبدو جيدة. والدها رجل صاحب نفوذ. ويؤثر كثيراً في قرار القاضي".

سألته فرانشيسكا بهدوء: "ماذا يريد إيان؟".

"يخشى ألا يكون موجوداً هناك لإنقاذ حياتها، فتموت. هذه هي المرة الثانية التي ينقذها فيها. لكن لن ينجح الأمر في يوم من الأيام، وستموت مباشرة أمامه مع إبرة مغروزة في ذراعها". انهمرت الدموع على وجنتيه فيما قال ذلك، فنهضت فرانشيسكا عن سريرها لمعانقته.

"هل تريدني أن أذهب معك إلى الجلسة غداً؟ ما من أحد قادر على تحمل كل ذلك بمفرده". هز رأسه علامة الرفض.

"أشكر تعاطفك، لقد سبق وذهبت بمفردي، لا أريد أن تمري بمثل هذه المحنة. إنها مشكلتي وليست مشكلتك. لكن شكراً على عرض خدماتك وعلى كونك صديقة جيدة. على الأقل قال القاضي إنه لا يجدر بإيان التواجد هناك. يفترض أن تكون الجلسة سريعة جداً، لكنها حضانة مؤقتة إلى أن تخرج من مركز إعادة التأهيل. لا يستطيع محاميها قول الكثير بعد كل ما حصل الليلة الماضية". إنه كابوس بالنسبة إليه وإلى إيان، ولاحظت فرانشيسكا ذلك في عينيه. فهمت الآن لماذا يمضي وقته بمفرده. لا يزال مصدوماً بوضوح من كل ما عاشه مع زوجته السابقة. قال إن كل ما يريده الآن هو التواجد مع إيان والعيش حياة مسالمة. لقد عاش ما يكفي من الجحيم حين كان معها، ولا يزال إيان يعيش ذلك الجحيم. لكن كريس عرف أنه إذا حاول إبعاده عنها بصورة دائمة، سيلوم الولد نفسه إلى الأبد لعدم وجوده هناك من أجلها. إنه كابوس بالنسبة إليه. أصبح إيان هو من يتولى الرعاية، وأمه الولد.

تحدثا لبضع دقائق إضافية، وطمأنته فرانشيسكا مجدداً بأنها ترحب بإيان في المنزل. كان ممتناً جداً، ثم عاد إلى غرفته للتواجد مع ولده. بالكاد ناما خلال الليلة الماضية، وعانى إيان من الكوابيس طوال الليل. استطاعت سماعه يصرخ عبر سقف غرفتها، ودمدمة الصوت الملطف لكريس. شعرت بالكثير من الأسف عليهما معاً.

اهتمت ماريا بإيان عندما ذهب كريس لحضور جلسة الحضانة المؤقتة في وقت باكر من صباح اليوم التالي. كان كريس يرتدي بذلة داكنة وربطة عنق. بدا أكثر جدية مما عرفته فرانشيسكا قبلاً، وانفطر فؤادها عليه عندما غادر في سيارة أجرة للقاء محاميه في المحكمة. لقد عاش هذه التجربة قبلاً، مرات عدة. يعرف إيان هذه التجربة جيداً أيضاً. شرح الأمر لماريا وفرانشيسكا فيما جلستا معه في المطبخ وحاولتا عبثاً صرف انتباهه. شرح أنه سيعيش مع والده الآن إلى أن تخرج أمه من المستشفى، وعليه من ثم العودة إليها للاهتمام بها، وإلا قد تموت. قال ذلك بالعينين الأكثر حزناً اللتين رأتهما فرانشيسكا. اعترف لها كريس الليلة الماضية أن إيان يزور معالجاً نفسياً مرتين في الأسبوع لتخطي الصدمة التي يعيشها بشكل يومي. رأت فرانشيسكا أن جعل ولد يعيش هذه التجربة هو بمثابة جريمة، وانتهاك لحقوق الطفل.

تحدث إيان إلى أمه في وقت باكر هذا الصباح عبر الهاتف، عندما سمح له كريس بالتحدث إليها. لكنهما عرفا أنه عندما تذهب إلى مركز إعادة التأهيل، لن تتمكن من الاتصال به إلى أن ينظف جسمها تماماً من المخدرات وتخرج من المركز. قد تمرّ أشهر عدة قبل أن يتمكن إيان من التحدث إليها مجدداً، وهذا أمر مؤلم له في كل مرة. بدا وكأنه في حداد حين جلس في حضن ماريا وحضنته، ثم استلقى قرب فرانشيسكا ونام. كان لا يزال نائماً عندما عاد كريس إلى المنزل في الحادية عشرة. لقد أعطاه القاضي حق الحضانة المؤقتة لإيان، مثلما توقع. همس شاكراً فرانشيسكا وماريا، وحمل ولده بين ذراعيه، وأعاده إلى غرفتهما في محاولة للتعافي من كل ما عاناه. كانت فرانشيسكا لا تزال مصدومة حين غادرت إلى المعرض الفني، وفكرت فيهما طوال اليوم. تمنت لو أنها تستطيع فعل شيء لمساعدتهما، لكن لا يوجد الكثير الممكن فعله. لقد أصبحوا أصدقاء بسرعة ويهتمون ببعضهم البعض. هذا أفضل مما تمنته فرانشيسكا عندما قررت إحضار رفقاء لها في المسكن. بدا أن سكان 44 شارع تشارلز أصبحوا عائلة الآن.

الفصل التاسع

بعدما انتقل إيان إلى المنزل للعيش بصورة دائمة، تبدل الجو في 44 شارع تشارلز بشكل كلي، تماماً كما حصل مع وصول كل واحد منهم إلى المنزل. أصبح المنزل وكأنه يضم عائلة، مع ولد وسطهم. حضرت ماريا الطعام واهتمت بإيان عندما كان كريس مشغولاً جداً للاهتمام به بعد المدرسة. اصطحبته فرانشيسكا معها إلى المعرض الفني وأخذته في نزهات خلال عطلات نهاية الأسبوع. أحب التسكع في المعرض الفني، ولقاء الفنانين الذين كانوا يأتون بانتظام، وأعجب كثيراً باللوحات الفنية. وأظهرت إيلين براعاتها التعليمية وشاركته في ألعاب رائعة، وعلمته كيفية صنع الطيور الورقية. وبتوجيه من إيلين، حضروا جميعاً الدمى المتحركة من الأوراق الملونة في إحدى عطلات نهاية الأسبوع وتحول المطبخ إلى فوضى عارمة لكن النتائج كانت جميلة وتحمس إيان كثيراً. تملك إيلين موهبة مذهلة مع الأولاد ولحق بها إيان مثل بيد بايبر. كان يصعد إلى غرفتها، حيث تقرأ له قصصه المفضلة لساعات طويلة. شعر كريس دوماً بالامتنان لها. وأحب إيان ذلك.

ابتسم كريس بفرح فيما راقب ابنه يترعرع بحنان، وكان يوماً مؤلماً عندما اضطر للعودة إلى المحكمة في شهر مايو حين زعمت والدة إيان أنها استعادت عافيتها، وخرجت من مركز إعادة التأهيل مجدداً. أرادت أن يعود إيان إلى المنزل. بدا كريس شاحباً جداً فيما غادر إلى المحكمة، وأسوأ حالاً عندما عاد. لقد فعلتها مجدداً بمساعدة والدها، وأقنعت القاضي. يتوجب على كريس إعادة إيان إليها في اليوم التالي، والعودة إلى برنامج الزيارات الذي

كانا عليه قبل تناولها جرعة زائدة. ها هو أسوأ كابوس له يعود مجدداً. بدت صالحة ونادمة في المحكمة.

بدا إيان متألماً جداً عندما ودعهن جميعاً.

ذكّرته ماريا: "ستعود مجدداً في عطلة نهاية الأسبوع. سوف نحضر البسكويت باللوز حينها. أراك قريباً إيان"، وقبّلته لوداعه، فيما شعرت فرانشيسكا بانقباض في حنجرتها عندما عانقته. أعطته إيلين دبها الصغير الوحيد ليأخذه معه. بكت النساء الثلاث عندما دخلن إلى المنزل بعدما غادر وكريس في سيارة أجرة. وبدا كريس محطماً عندما عاد إلى المنزل بعد إيصاله. بدا مريضاً، وعرفت فرانشيسكا أنه مريض فعلاً. صعد إلى الأعلى وخلد إلى السرير، وبقي هناك ليومين، فيما أحضرت له ماريا الطعام على صوانٍ لكنه رفض تناوله. كان مكتئباً جداً في عطلة نهاية الأسبوع وقلقاً جداً. ماذا لو حصل مكروه لإيان؟ أو عرضته للخطر؟ بالكاد استطاع كريس التفكير إلى أن عاد إيان مجدداً في عطلة نهاية الأسبوع التالية. ترك الولد فراغاً كبيراً، وبدا المنزل حزيناً عندما غادر ليلة الأحد.

من دون إيان، استعاد المنزل إيقاعه الراشد مجدداً. ذهبت ماريا إلى فيرمونت للتحقق من الأمور هناك. عادت إيلين إلى المواعدة بكثرة مجدداً، وخرجت كل ليلة تقريباً. أبطأت وتيرتها لبعض الوقت. أثناء وجود إيان هناك، بقيت في المنزل أكثر من المعتاد، واستمتعت بوقتها معه. لقد تعرفت إلى رجال عدة خلال الأشهر القليلة الماضية، وباشرت في مواعدة شخص جديد في شهر يونيو. وكانت فرانشيسكا تحاول إجبار نفسها على التفكير في المواعدة مجدداً. لقد توقف كل شيء في حياتهن أثناء عيش إيان معهن. ومن دونه، أصبحن راشدات عازبات مجدداً، ولكل منها حياتها الخاصة. لكن في عطلات نهاية الأسبوع التي كان فيها هنا، ركزن جميعاً عليه. تأثر كريس لذلك. كانت زوجته السابقة نظيفة من المخدرات حسب التحاليل، وتتصرف بمسؤولية مع إيان. لكن بالحكم على تاريخها الماضي، عرف كريس أن الأمر لن يدوم طويلاً.

شهر يونيو كان محموماً بالنسبة إليهم جميعاً. عملت ماريا بكدّ على تحضير كتابها الجديد. ثمة أطباق جديدة لتجربتها كل ليلة. أحب كريس ممازحة ماريا حيال ذلك. مع مرور الوقت، بدا أكثر ارتياحاً وأقل قلقاً على إيان، بالرغم من تشكيكه في قدرة زوجته السابقة على البقاء رزينة لوقت طويل.

قال لماريا مع ابتسامة عريضة: "إذا لم أعد إلى المنزل وأتناول وجبة من فئة خمس نجوم كل ليلة، أشعر بالحرمان. أعتقد أنني اكتسبت عشرة كيلوغرامات منذ انتقالي إلى هنا".

"أنت بحاجة إليها". ابتسمت له ماريا. وكانت تعلّم إيان الطهو أثناء وجوده معهم في عطلات نهاية الأسبوع مرتين في الشهر. لغاية الآن، لا تزال أمه تحسن التصرف، لكن كريس عرف أنها مجرد مسألة وقت قبل أن تفسد حياتها مجدداً. لقد عاش هذه التجربة معها طوال عشرة أعوام. اكتشف إدمانها على المخدرات قبل حملها بإيان. راقبها وهي تخضع مرتين لإعادة التأهيل، ثم حملت. المرة الوحيدة التي ابتعدت فيها تماماً عن المخدرات كانت أثناء حملها به. عادت إلى الإدمان مجدداً بعد ثلاثة أشهر من ولادته. لم يعد يظن أنها قادرة على البقاء بعيدة عن المخدرات لوقت طويل. إنه واثق من أنها ستعاود استعمالها مجدداً في أي يوم. أمل فقط أنه حين يحصل ذلك، لا يتكبد إيان نوعاً ما الكثير من الألم والخوف. كان كريس ينتظر سقوط القناع عن وجهها، وعرف أنها مسألة وقت. السؤال الوحيد هو متى؟

ظهرت إيلين مع صديقها الجديد، وحزنت فرانشيسكا لرؤية أنه واحد من أصحاب الأوشام والثقوب في الجسم. بدا أنها تتنقل بين الشباب المرتبين الذين يعملون في وكالات إعلانات أو مصارف، أو كانوا أساتذة مدرسة، أو يملكون وظائف تقليدية أخرى، وبين الرجال الأكثر غرابة الذين يعملون بمثابة طفيليات في الفنون أو المجالات الأخرى. إلا أنها تجاوزت الحدود أكثر هذه المرة، وكان رجلها الجديد ميكانيكياً للدراجات النارية. لم تستطع فرانشيسكا تحمله ووجدته فظاً ولا يطاق. كان وسيماً، ولا مجال لإنكار ذلك، وجذاباً،

بحيث لاحظت لباقته البدنية، لكن ثمة شيء باطني فيه جعل الجميع يشعرون بعدم الارتياح، وأراد التحكم في كل شيء تفعله إيلين. غضبت فرانشيسكا حين تحدثت إيلين عن ذلك. بدا وكأن رغبته في السيطرة عليها كانت بمثابة إطراء لها، وظنت خطأً أنه الحب. تذكرت فرانشيسكا حينها الاستغلال بشكل أوضح. ولم يتردد في إهانة إيلين أمامهم والسخرية منها. فعل ذلك ذات صباح، بعدما حضرت ماريا الفطور لهم جميعاً، وأطلق براد، صديقها الجديد، تعليقاً سيئاً جداً عن إيلين. انفعلت فرانشيسكا على الفور، لكنها لم تقل أي شيء. ثم فعلها مجدداً. هذه المرة، وبخته على ذلك، فيما بدت إيلين مذلولة وحدقت إلى طبقها. لا تحب إغضابه.

قالت له فرانشيسكا بتحدٍّ: "لماذا تقول مثل هذه الأمور لها؟". لقد رأته فقط مرات قليلة، لكنها لم تحب أي شيء فيه.

"وما شأنك أنت؟". حدق إلى فرانشيسكا بغضب عبر الطاولة، محاولاً إحراجها. لكنه لم ينجح. بل جعلها ذلك أكثر غضباً منه.

"هذا تصرف حقير. إنها امرأة رائعة، وهي لطيفة معك. نحن أصدقاؤها. لماذا تقول شيئاً كهذا عنها؟" قال عن إيلين إنها غبية، مرات عدة، ولا شك في أنها ليست هكذا، إلا من وجهة نظره.

تواجهت فرانشيسكا مع براد بعد دقائق قليلة أمام إبريق القهوة، حين أخذه بعيداً عنها، وهو لا يزال غاضباً مما قالته له. شعر بالذل. وتناثر القليل من القهوة الساخنة على يد فرانشيسكا، علماً أنه فعل ذلك عمداً. صرخت بصوت عالٍ عندما أحرقها، وأعطته إبريق القهوة.

سألها بسخرية مع ابتسامة عريضة: "أوه، هل أحرقتك؟ آسف عزيزتي"، فيما سكب القهوة في كوب وعاد إلى الطاولة، فمرّ أمام كريس، الذي وقف يحدق إليه والغضب في عينيه.

"لا تفعل مثل هذا الشيء مجدداً. لا تفكر حتى في ذلك. نحن عائلة هنا. ندافع عن بعضنا البعض، وأنت محظوظ لوجودك هنا. لذا، من الأفضل أن تكون لطيفاً مع الجميع، بما في ذلك إيلين. هل فهمت ذلك أيها السيد؟"

ذهلت فرانشيسكا عند رؤية النظرة التي تم تبادلها بين الرجلين. كان كريس يرتجف غضباً، ونظر إليه براد مرة جديدة، ثم رمى منديله أرضاً وخرج بسرعة من المطبخ. بقيت إيلين لتعتذر من الجميع، ثم ركضت مسرعة خلفه. استطاعوا سماعه يصرخ عليها عند الباب الرئيس، وبعد برهة، انطلق بعيداً في دراجته النارية.

قال كريس عبر أسنانه المطبقة: "لا أحب هذا الرجل. إنه خطير. لا أعرف ماذا تفعل مع رجل كهذا". لم يفهم أحد ذلك، لكنه رجل جذاب وهي صغيرة السن، وهو أيضاً. إنه مرض الشاب السيئ. إنها تخرج معه ربما فقط لأنها استطاعت ذلك، وتصورت أنها تستطيع تحمل الوضع. كانت فرانشيسكا تفكر في أن تطلب منها عدم إحضاره إلى المنزل مجدداً، لكنه منزل إيلين أيضاً. تساءلت إذا كان غضب كريس كافياً ليعرف حده، أو أنه ربما لن يرغب في العودة مجدداً. تأثرت بما قاله كريس، وأحبت شعور العائلة الذي يتشاركونه الآن.

بدأت فرانشيسكا تواعد أحداً هذا الشهر أيضاً. خرجت معه ثلاث مرات فقط، وبدا لطيفاً كفاية، بالرغم من أنها لم تكن مغرمة به. لكنه لطيف للخروج معه.

كان فناناً، ولكنها لا تمثل أعماله. أمضت وقتاً جيداً معه، بالرغم من أنها لم تكن جدية بشأنه. امتلك آراء يسارية متطرفة، واعتبر والدها خائناً لأنه أصاب قدراً من النجاح وأصبح يطلب مقابل لوحاته مبالغ كبيرة. رأى أنه يجدر بالفنانين إنجاز أعمالهم للشعب، الأمر الذي اعتبرته مبالغاً فيه نوعاً ما. إلا أنه كان ذكياً ومرحاً، وغير مسؤول نوعاً ما. ذكّرها في بعض النواحي بوالدها حين كان أصغر سناً. يملك شيئاً من طلته وجاذبيته، وكان غامضاً قليلاً تماماً مثلما كان والدها في شبابه. ثمة شيء مألوف جداً لديه. تعرف هذا النوع من الرجال، لكنها لا تملك صبر أفيري حياله. لا ترغب أبداً في إصلاحه. تناول العشاء معه كافٍ. أكثر من ذلك سيكون كثيراً جداً. لكنه كان فعلاً أول شخص تواعده بعد تود. إنه تمرين جيد، لكنها عرفت أنها لن

تفكر أبداً بجدية فيه. جعلها تضحك، وهذا لطيف، وتشعر أنها امرأة مجدداً، وليس هذا سيئاً أيضاً. إلا أنها لم تشعر بانجذاب نحوه، من أي نوع كان. كان ساذجاً وغير واقعي وبدا مثل ولد صغير بالنسبة إليها. لم تشأ مواعدة ولد، وإنما أرادت الخروج مع رجل، إذا قامت بتلك الخطوة مجدداً مع أي كان. تعرف هذا النوع. فالعديد من الفنانين الذين تعرفهم وتمثلهم يتصرفون مثل الأولاد. لا تريد أن تكون مثل أمه.

في اليوم التالي للمواجهة بين كريس وصديق إيلين الجديد في المطبخ، كانت ماريا تجرب وصفة جديدة. وعدوها جميعاً بالحضور إلى المنزل لتناول العشاء، وكانوا متشوقين لذلك. ومباشرة قبل جلوسهم أمام المائدة، اتصلت إيلين بفرانشيسكا على هاتفها الخلوي وقالت إنها تعاني من زكام قوي وحرارة مرتفعة. لم تنزل إلى الأسفل طوال اليوم، فقلقت عليها ماريا.

قالت ماريا: "المسكينة. سأرسل لها بعض الحساء". حضرت لها صينية طعام جميلة، وحملتها فرانشيسكا إلى غرفتها. طرقت على الباب وتفاجأت أنه مقفل، ولم تسمح لها إيلين بالدخول.

شرحت فرانشيسكا عبر الباب: "حضرت لك ماريا بعض الطعام"، لكن إيلين أجابت أنها مريضة جداً ولا تستطيع الأكل. قالت فرانشيسكا عبر الباب المغلق: "لا أستطيع إعادة الصينية إلى الأسفل. فهذا سيجرح مشاعرها".

أجابت إيلين من بعيد: "اتركيها أمام الباب. لا أريد أن أنقل إليك العدوى".

"لن تفعلي ذلك. أنا قوية مثل الحصان". لكن إيلين لم تفتح الباب. أصرت فرانشيسكا: "هاي... هل أنت بخير؟ أقلقتني. دعيني أدخل. لديّ بعض حبوب التايلنول لخفض الحرارة المرتفعة".

"اتركيها خارجاً على الصينية. سآخذها خلال دقيقة". سمعتها فرانشيسكا تبكي، وذعرت.

قالت، بنبرة صارمة: "أريدك أن تسمحي لي بالدخول"، وشعرت أنها متطفلة، لكنها أحست أن هناك خطباً ما. ولا تبدو إيلين أنها تعاني من

الزكام. ساد صمت طويل ولم تتحرك أي منهما على جهتي الباب، لكن فرانشيسكا قررت أنها لن تغادر. استطاعت سماع دوران القفل في الباب، لكن إيلين لم تفتح الباب. وضعت فرانشيسكا الصينية أرضاً وأدارت مقبض الباب بهدوء. كانت إيلين خلف الباب، تبكي بصمت، في قميص نومها، مع أسوأ سواد حول العينين ورضوض على الوجه رأتها فرانشيسكا في حياتها. وكانت هناك رضوض على جسمها أيضاً، وذراعيها وثدييها. ضربها شخص ما ضرباً مبرّحاً. وشكت فرانشيسكا في هوية ذلك الشخص. "هل فعل براد هذا بك؟". لم تجبها إيلين، ثم أومأت وبدأت تبكي بقوة.

"لا تخبري أحداً... عديني أنك لن تفعلي هذا... قال إني أذللته أمامكم جميعاً... ولم أدافع عنه".

قالت فرانشيسكا، وهي ترتجف فيما نظرت إليها: "أريدك أن تتصلي بالشرطة". فرؤية الحالة التي هي عليها جعلتها راغبة في البكاء أيضاً. وضعت ذراعيها حولها وأمسكت بها فيما بكت إيلين بشدة.

"قال إنه سيقتلني إذا اتصلت بالشرطة للإبلاغ عنه، وأظن أنه سيفعل ذلك. عديني أنك لن تفعلي أي شيء، فرانشيسكا. لن أراه مجدداً. أعدك".

"لا أريدك أن تحضريه مجدداً إلى هذا المنزل". لم تقل فرانشيسكا ذلك، لكن إذا أحضرته إيلين مجدداً إلى هنا، سوف تطلب منها المغادرة. براد إنسان خطير بوضوح، عليهم جميعاً، وليس فقط عليها. لقد أحرق يد فرانشيسكا عمداً، والله وحده يعلم ماذا كان يودّ أن يفعل بكريس، وسوف يفعل إذا أتيحت له الفرصة. أرادت فعلاً الاتصال بالشرطة لكنها لم تشأ تعريض إيلين لخطر أكبر. "هل تريدين أن أنقلك إلى قسم الطوارئ في المستشفى؟".

أجابت بتعاسة: "لا. قد يبلغون الشرطة. أنا بخير. لقد عانيت من ذلك قبلاً. اعتاد والدي على ضربنا أنا وأمي طوال الوقت عندما كنت صغيرة. كان سكيراً. لهذا السبب تركت المنزل".

قالت فرانشيسكا: "أنا آسفة جداً"، متمنية لو أنها تستطيع فعل شيء ببراد، كوضعه في السجن. "إيلين، لا يمكنك الاستمرار في لقاء مثل هؤلاء

الرجال. لا تعرفين من يكونون. قد يكون ممتعاً ومسلياً التعرف إليهم عبر الإنترنت، لكن بعضهم خطرون فعلاً. ولا يمكنك إحضار أي كان إلى هذا المنزل".

بكت فيما تشبثت بفرانشيسكا وقالت: "لن أفعل. أقسم لك. أرجوك لا تجبريني على الرحيل. أحب المكان هنا. إنه المنزل الحقيقي الوحيد الذي عرفته في حياتي". ما قالته فطر قلب فرانشيسكا.

"أريدك إذاً أن تتوخي الحذر من الآن وصاعداً".

"أعدك.. سأفعل..." ثم نظرت إلى فرانشيسكا نظرة مذنبة. "أخذ مفتاحي. حاولت منعه، لكنه أخذه وهرب بعيداً بعدما ضربني. قال إنه سيعود ويفعلها مجدداً إذا أخبرت أحداً".

قالت فرانشيسكا بتجهم: "سأغيّر الأقفال". قبّلتها برفق على الجبين، ووعدت بالعودة بعد العشاء، وصعدت مسرعة إلى الأعلى. غابت لمدة نصف ساعة.

"لماذا كل هذا التأخير؟"، سألها كريس عندما عادت. أصبحا في نصف الطبق الرئيس، لكن ماريا لم تشأ أن يبرد الطعام. "لا بد أنها مريضة جداً".

أكدت فرانشيسكا قائلة: "مريضة جداً"، لكنها لم تشأ إزعاجهما، ولم تعرف ماذا تقول. لم تتفوه تقريباً بأية كلمة خلال العشاء، ولاحظ كريس أنها منزعجة. أصبحوا يعرفون بعضهم جيداً. تحدث إليها بصوت خافت عندما ذهبت ماريا لإخراج سوفليه الشوكولا من الفرن، ثم حضّرت الكريم شانتيي والصلصة الهولندية مع تلك الحلوى. إنها وليمة جديدة.

سألها كريس بهمس: "ما المشكلة؟". ترددت فرانشيسكا لبرهة ثم قررت إخباره. أرادت نصيحته.

"لقد ضربها براد. بشدة. الرضوض تملأ وجهها وجسمها مع عينين سوداوين".

بدا كريس غاضباً. "عظيم. هل اتصلت بالشرطة؟".

هزت فرانشيسكا رأسها. "أخبرها أنه سيقتلها إذا أفشت الأمر أمام أي كان. لا يمكنها حتى الذهاب إلى العمل. تبدو في حال مأساوية".

سألها بطريقة عملية: "هل تظنين أنه يجدر بها مغادرة المنزل؟" فيما عملت ماريا على تحضير الكريما المخفوقة وأصدرت ضجة كبيرة بحيث لم تسمع ما كانا يقولانه.

"توسلتني ألا أفعل ذلك. أخبرتها أنها لا تستطيع إحضاره إلى هنا مجدداً. أخذ مفتاحها. سأغير الأقفال غداً. نستطيع وضع سلسلة حديدية على الباب الليلة".

تنهد كريس واتكأ إلى الخلف في كرسيه. "أتمنى ألا تكون مدمنة على هذا الرجل، أو على ضربه. فالاستغلال الجسدي هو بمثابة إدمان يصعب التخلي عنه، وأحد أسوأ الأنواع على الإطلاق". لكن حسب علمهما، لم يحصل ذلك قبلاً. تشجعت فرانشيسكا بذلك.

"أظن أنه مجرد رجل سيئ التقت به عبر الإنترنت. أتمنى لو تتخلى عن هذه الطريقة. لا تفعل ذلك قصداً، وهي شابة لطيفة، لكنها تعرضنا جميعاً للخطر معها". أومأ كريس برأسه، ووصلت ماريا مع الحلويات. تناولت فرانشيسكا القليل منه، والتهم كريس معظمه. كانت وجبة لذيذة. وصفة ماريا خالية من العيوب، لكن ما يحصل في الأعلى سبب الإزعاج لكل من فرانشيسكا وكريس. لم يخبرا ماريا، واتفقا على أنه لا حاجة لمعرفتها بذلك.

بعد مساعدة ماريا في تنظيف المطبخ، عادت فرانشيسكا إلى الأعلى لرؤية إيلين. بدت مريعة، لكنها أكلت بعض الطعام الذي أرسلته ماريا وشعرت بالتحسن. قدمت ألف وعد لفرانشيسكا، التي نزلت إلى الأسفل للتحدث إلى كريس. كانا منزعجين من براد، لكنهما أملا في أن يترك إيلين وشأنها بعد هذه الحادثة. أقسمت أمام فرانشيسكا أنها لن تراه مجدداً.

وضعت فرانشيسكا السلسلة حول الباب تلك الليلة، وقال كريس إنه سيتصل بصانع الأقفال في اليوم التالي لتبديل الأقفال فيما تكون في العمل. لا يمكنهما فعل الكثير، باستثناء توخي الحذر منه. وأخبرت فرانشيسكا إيلين

أنها ستتصل بالشرطة إذا جاء إلى المنزل مجدداً. بالكاد استطاعت فرانشيسكا النوم تلك الليلة، وهي تفكر في الرضوض التي على وجه إيلين، وتساءلت ما الذي يقصده كريس بالقول إن العنف الجسدي هو بمثابة إدمان يصعب التخلص منه. من هو يا ترى المدمن على العنف الجسدي؟ هذا غير منطقي. إنها واثقة بأن إيلين تعلمت درساً، وسوف تبقى بعيدة عن براد من الآن وصاعداً. فبعد رؤية ما فعله بها، لا تشك فرانشيسكا أبداً في ذلك.

الفصل العاشر

تدبر كريس مسألة تبديل الأقفال، فيما أخذت إيلين إجازة من العمل لمدة أسبوع. أخبرتهم أنها تعرضت لحادث سيارة، واعترفت في النهاية بما حصل أمام ماريا، التي صدمت. شعرت بالارتياح لأن فرانشيسكا بدّلت الأقفال، وأسفت كثيراً على إيلين، فهي شابة بريئة وغير مؤذية البتة. وحتى لو كانت حمقاء في لقاءاتها عبر الإنترنت، فإنها لا تستحق الضرب. ما من أحد يستحق ذلك. خطر في بال فرانشيسكا أن مشاكل إيلين ليست مع الإنترنت، التي هي وسيلة لها للقاء الرجال، مثل المقهى أو أي مكان آخر. مشكلتها الحقيقية تكمن في الحكم السيئ الذي تعطيه للرجال الذين تلتقي بهم، وانجذابها إلى الرجال الخاطئين.

احتاجوا جميعاً إلى بعض الوقت للهدوء بعد ذلك.

خرجت فرانشيسكا مع فنانها مجدداً، وبدت أقل تأثراً. إنه رجل لطيف، لكنهما لا يتشاركان أي شيء وهما مختلفان كثيراً. لا تريد ارتكاب الخطأ نفسه مجدداً، وقررت عدم المتابعة في العلاقة. تصرف مثل ولد غير مسؤول، على عكس تود، الذي كان رجلاً. لا جدوى من الإصرار، وأخبرته أنها لا تستطيع الخروج معه مجدداً. إنها راضية ببقائها وحيدة، بالرغم من تذمر أمها من الموضوع. لا تستطيع فهم رغبة فرانشيسكا في البقاء من دون رجل، واقترحت عليها العودة إلى الطبيب النفسي. ضحكت فرانشيسكا وقالت إنها على ما يرام. ليست مستعجلة للتورط في علاقة مجدداً؛ فقد كانت مع تود لوقت طويل جداً.

الصدمة التالية تلقتها من تود. اتصل بها في المعرض الفني، وسألها عن حالها، وتحدث معها لبضع دقائق، ثم أخبرها أنه مخطوب.

كانت مذهولة. "بهذه السرعة؟ غادرت المنزل قبل خمسة أشهر فقط. لمَ العجلة؟".

"أنا في الحادية والأربعين. أريد الزواج وإنجاب الأولاد". إنها في الخامسة والثلاثين ولا تشعر بأي شيء من ذلك.

"هل هي المرأة التي رأيتها معك قبل أشهر قليلة؟ إنها طويلة وشقراء. كنتما معاً في مزاد كريستيز". بدت فرانشيسكا حزينة. يصعب الاعتياد على فكرة وجوده مع امرأة أخرى.

"ربما. أنا أواعدها منذ شهر فبراير. سنتزوج أوائل العام المقبل. رأيت أنه يجدر بك أن تعلمي بذلك قبل أن نعلن الخبر للآخرين".

أجابت بهدوء: "شكراً". فرحت لأجله إذا كان هذا ما يريده. إلا أن سماع الخبر مؤلم. عرف ذلك. كانا شخصين مختلفين باحتياجات مختلفة. هذا ما فرّقهما عن بعضهما. وها هو الآن مخطوب. شعرت بالدوار طوال اليوم بعدما شكرته على إخبارها وتمنت له التوفيق.

كانت لا تزال تشعر بالإحباط عندما عادت إلى المنزل تلك الليلة. كان كريس يخرج من سيارة أجرة فيما توجهت إلى الدرج الأمامي للمنزل. لقد سلّم مشروع تصميم لمدير فني في ضاحية المدينة، وهذه المرة لعلبة تبدو كأنها من العصر الجديد، مصممة لاحتواء مسحوق غسيل. بدا سعيداً لرؤيتها.

سألها: "كيف كان يومك؟" فيما فتحت الباب الأمامي. من الجميل لكليهما وجود شخص لرؤيته عند العودة إلى المنزل. فكلاهما لا يملكان أحداً.

"ليس جيداً جداً. اتصل تود ليخبرني أنه خطب". يتشاركان الآن بعض الأسرار مع بعضهما، باستثناء آمالهما وأحلامهما، التي يبقيانها لنفسيهما. لكن بعد الحادثة المروعة مع والدة إيان، وتعرض إيلين للضرب، باتا يتحدثان عن كل ما يحصل معهما بشكل يومي، ويعتبران بعضهما صديقين، وكذلك ماريا وإيلين.

قال كريس: "هذا مؤسف"، فيما لحق بها إلى الردهة الأمامية. فاحت الروائح المذهلة من المطبخ كالمعتاد. أصبحا معتادين عليها الآن، ويحبانها، وإنما باتا أقل تأثراً، بالرغم من أن الروائح التي وصلت إليهما كانت رائعة جداً هذه الليلة. عرضوا جميعاً المساهمة في كلفة الطعام، لكن في أغلب الأوقات، أصرّت ماريا على توفير الطعام بنفسها. إنها هديتها النفيسة إليهم التي قدّروها بشدة. أحضروا جميعاً هدايا صغيرة لها كلما أمكن، وأحضر لها كريس بعض قناني الشراب الممتازة. "هل أنت منزعجة؟" بدت فرانشيسكا مضطربة فيما استدارت للنظر إليه. لم تتوقع هذا من تود، أو ليس بهذه السرعة على الأقل.

أجابت بصراحة: "نعم. أظن أنه يجدر بي التحلي باللباقة حيال الموضوع والقول إني سعيدة لأجله، لكنني لست واثقة من أنني سعيدة. ما زلت حزينة على نفسي لأن العلاقة لم تنجح بيننا".

"لقد اعترفتما على الأقل بالفشل وخففتما من خسارتكما. أنا احتجت إلى عشرة أعوام لفعل ذلك، وعندما فعلتها، كنت في حال يرثى لها ولا أرغب في أية علاقة مجدداً. أنتما فعلتما ذلك في نصف الوقت، وكنتما محترمين مع بعضكما. أما أنا فانتظرت حتى كادت تدمر حياتي مع حياتها. بقيت أظن أن كيم ستقلع عن المخدرات إلى الأبد. العلاقة التي كانت بيننا مريضة جداً. كنت مدمناً عليها، وبقيت أفكر في أنني أستطيع إصلاحها. لكن ما من أحد يستطيع فعل ذلك. إنها إنسانة فاشلة. أنت وتود شخصان محترمان، لكنكما أردتما أشياء مختلفة. عرفتما ذلك ومضى كل منكما في طريقه. لقد اختار امرأة أخرى، وستفعلين ذلك أيضاً. لم تدمرا بعضكما البعض خلال العلاقة". شعرت بالأسف عليه عندما تحدث عن والدة إيان. بالكاد استطاعت تخيل الكابوس الذي عاشه، ولا يزال يعيشه، على حساب ابنهما، وهذا أسوأ.

ذكّرته برفق: "لست كبيراً جداً للعثور على امرأة أخرى أيضاً، وأنت تعلم ذلك".

إنه في الثامنة والثلاثين. اعترف قائلاً: "لست كبيراً جداً. ولكني ربما متضرر جداً ومحترق بشكل سيئ: لا أعرف إذا كنت أستطيع الوثوق في أي امرأة أخرى مجدداً، في علاقة. لقد كذبت عليّ باستمرار وأنا صدقتها. عاشرت تاجر المخدرات. احتجت إلى ثلاثة أعوام حتى عرفت أنها لا تستطيع الابتعاد عن المخدرات. المدمنون مقنعون جداً وكاذبون مذهلون. إنها فريدة من نوعها. أشعر بالأسف عليها الآن، لكني أكره ما تفعله بإيان".

أومأت فرانشيسكا. لقد انتهى زواجه قبل عامين تقريباً، منذ أن تخلى عنها، بالرغم من أنه تركها قبل ستة أشهر فقط. عاش مع أصدقاء له في البداية، ومن ثم في فندق، وأخيراً جاء إلى هنا. كانت فرانشيسكا واثقة بأنه سيعثر على امرأة أخرى مجدداً، وكان هو واثقاً بالشيء نفسه بشأنها. ما زالا شابين للتخلي عن الحب إلى الأبد.

قال لتبديل الموضوع وصرف انتباههما معاً: "دعينا نرى ماذا حضرت لنا ماريا الليلة". إنهم يجربون لها وصفات جديدة كل ليلة تقريباً. إنها تحضر الكثير من الأطباق، وقد ازداد وزنهم جميعاً.

لحقت فرانشيسكا بكريس على السلالم المؤدية إلى المطبخ، متوقعين رؤية ماريا، وذهلا عندما شاهدا رجلاً طويلاً أشيب الشعر عوض ذلك. يملك عينين زرقاوين وشعراً أبيض يصل إلى كتفيه. نظر إليهما بطريقة مشككة للحظة ثم ابتسم ابتسامة عريضة.

سأل بلكنة فرنسية قوية: "فرانشيسكا وكريس؟". بدا أنه يعرف من يكونان. عرّف عن نفسه بأنه تشارلز إدوار، وأدركت فرانشيسكا فوراً من يكون. اسم شهرته برونييه، وهو أحد أشهر الطهاة في فرنسا، ويبدو أنه أحد أصدقاء ماريا. ظهرت بعد برهة وشرحت أنه جاء من باريس وسيطهو لهم الطعام هذه الليلة. وعدتهم بأنها ستكون تجربة لا تنسى، ونظر إليها بعينين مشعتين. كان رجلاً وسيماً جداً.

تشاركوا قنينة شراب أحضرها معه، وتحمس جميع من في المنزل للعشاء. عادت إيلين إلى المنزل بعد دقائق قليلة مع أزهار أحضرتها

لفرانشيسكا وماريا، وقنينة شراب لكريس. كانوا مجموعة حيوية يتحدثون عن فرنسا حين دخلت. قال تشارلز إدوار إنه يعرف ماريا منذ ثلاثين عاماً تقريباً. تسهل الملاحظة أنه مفتون بها، وغازلها فيما حضرا الطعام معاً. أدّت دور مساعدة الطاهي هذه الليلة، فيما تلاعب بنصف دزينة من الطناجر، وبضعف هذا العدد من الأطباق. نظرت إليه مع ابتسامات حنونة بين الحين والآخر، وكانا مرتاحين جداً مع بعضهما.

النتيجة كانت مذهلة عندما جلسوا لتناول العشاء. وافق الجميع على أنهم لم يتناولوا قبلاً مثل هذا العشاء في حياتهم. كان متواضعاً ومضحكاً ومسلياً، ووجه دوماً إلى ماريا نظرات حب، لكنها تجاهلتها بفرح. أحبت الطهو معه، وهما يفكران في تأليف كتاب مشترك عن الأعشاب الريفية وكيفية استعمالها. لكن بدا جلياً أن الرجل الفرنسي الوسيم أراد التعاون معها في أكثر من ذلك.

همست فرانشيسكا لماريا فيما نظفتا الأطباق معاً: "إنه رائع. وهو مفتون بك". يسهل على الجميع ملاحظة ذلك، وقد لاحظوه جميعاً أثناء تناول العشاء اللذيذ المذهل. دخن هو وكريس السيجار في الحديقة، فيما تولت النساء الثلاث غسل الأطباق. وبعد ذلك، صعدت إيلين إلى الأعلى. سألتها فرانشيسكا: "ماذا عنه؟". رأت أنهما يشكلان ثنائياً وسيماً جداً، وهو بعمر ماريا تقريباً.

أجابت ماريا بخجل: "لا تكوني سخيفة. وماذا عن زوجته؟ إنه فرنسي جداً. إنه متزوج من امرأة لطيفة جداً كانت واحدة من مساعدي الطهاة الذين عملوا معه. خانها مع أخريات طوال أعوام عدة". قالت ذلك كما لو أنها تتحدث عن أخ أساء التصرف.

سألت فرانشيسكا باهتمام: "ألا يفكر في الطلاق؟". بدأت تشعر بالتحسن حيال خطوبة تود بعد الأمسية الرائعة، والوجبة اللذيذة مع أصدقاء جيدين، وكمية كبيرة من الشراب الفاخر.

"طبعاً لا. إنه فرنسي. الرجال الفرنسيون لا يطلقون. يخونون حتى مماتهم، في سرير امرأة أخرى عادة، مثل عشيقتهم. لست أكيدة من أنها

مخلصة له أيضاً، وهو يزعم أنهما لم يكونا سعيدين أبداً. إلا أنه يعاشر كل امرأة في كل مطبخ يعمل فيه. لا أريد الدخول في هذه المتاهة. أفضل اعتباره بمثابة صديق".

"هذا مؤسف جداً. إنه ظريف. ووسيم جداً. أبقيه بعيداً عن أمي، وإلا ستطارده وتجرّه إلى أقرب محامٍ. ربما يجدر بك التفكير في هذا". هزّت ماريا رأسها وضحكت. "قد تكون أمك مناسبة له. أما أنا فلا. لا أستطيع التعاطي مع مثل هؤلاء الرجال. أنا وجون بقينا مخلصين لبعضنا طوال حياتنا. أفضل مثل هؤلاء الرجال. تشارلز إدوار وسيم ومثير، لكنه رجل سيئ جداً جداً". لا تشك ماريا في ذلك.

"يبدو مثل والدي قبل زواجه من أفيري. هؤلاء الرجال يصلحون أنفسهم أحياناً".

أجابت ماريا مع ابتسامة: "نعم. واحد في المليون. لا أحب هذا النوع من الأمور. أفضل العمل معه وإبقاءه بمثابة صديق. بهذه الطريقة، يكون مشكلة امرأة أخرى، وليس مشكلتي".

عاد كريس وتشارلز إدوار حينها إلى المطبخ مع ما تبقى من السيجار الكوبي الذي أحضره الطاهي الشهير. سكب حينها كأس شراب لكل منهم، وأثناء الشرب قال إنه مغرم بماريا منذ ثلاثين عاماً. نظر إليها بعشق كبير، وضحكت له. تأخذ إعلانات حبه لها باستخفاف.

مازحته قائلة: "نعم، أنا وعشرة آلاف امرأة غيري. إنها لائحة طويلة، تشارلز إدوار"، فيما ابتسم لها.

"لكنك كنت دوماً على رأس تلك اللائحة". تلألأت عيناه فيما مازحها.

"هذا لأنك لم تستطع الحصول عليّ، وما زلت عاجزاً عن ذلك. بالإضافة إلى ذلك، أنا أحب زوجتك".

أجاب بطريقة بدهية مع ابتسامة محتالة: "وأنا أيضاً. لكنني لست مغرماً بها. لا أظن أنني أغرمت بها يوماً. أصبحنا صديقين جيدين الآن. طاردتني ذات مرة بساطور الجزار"، وأشار إلى قسمه السفلي بكعب سيجاره،

فضحكوا جميعاً. "أصبحت لطيفاً جداً معها منذ ذلك الحين". قال إنه لم ينجب الأولاد أيضاً، مثل ماريا، ولم يرغب يوماً بهم. اعترف قائلاً: "أنا ولد بحد ذاتي". كان فاتناً جداً ويسهل التعامل معه. كانت أمسية رائعة لهم جميعاً، ووعد بتحضير العشاء لهم مجدداً قبل أن يغادر. استلطفته فرانشيسكا فعلاً، وتمنت لو أنه يستطيع الزواج من ماريا. بدا جلياً أنهما يحترمان بعضهما البعض كثيراً، ويمرحان كثيراً مع بعضهما، وأحب مغازلتها. تفتحت تلك الليلة مثل الزهرة في الربيع. من الجميل رؤيتها هكذا ومحط إعجاب رجل. إنها امرأة جميلة جداً، ولطيفة جداً وموهوبة جداً، بحيث حزنت فرانشيسكا لأنها وحيدة. يبدو أنها لا تمانع ذلك، لكن فرانشيسكا كانت واثقة بأنها تشعر بالوحدة أحياناً. ماريا لا تملك الإصرار مثل أمها، التي تتوق بشدة إلى الرجال، لكن هذا جعلها أكثر رونقاً وجاذبية. إنها أنثوية جداً، ولا مجال للريبة في أن تشارلز إدوار مفتون بها. من المؤسف فعلاً أن لديه زوجة. وأحسّت أن ماريا محقة وتعرفه جيداً. تحدث عن زوجته بعاطفة وحنان، ولن يطلقها أبداً. إنه فرنسي جداً.

رافقت فرانشيسكا كريس إلى طابق غرفة نومه تلك الليلة، بعدما تمنيا ليلة سعيدة لماريا. تحدثا عن تشارلز إدوار لدقائق قليلة. لا شك في أنه صاحب شخصية مميزة، ويملك موهبة هائلة في الطهو. لم يذكر أي منهما تود مجدداً. لم يشأ كريس إزعاجها، فيما لا تزال فرانشيسكا تستوعب الخبر لكنها شعرت بالتحسن بعد هذه الأمسية. صعدت بعدها إلى الأعلى، ودخل كريس إلى غرفته. لقد تحدث إلى إيان خلال العشاء، وبدا كل شيء على ما يرام.

كان المنزل هادئاً بعدما خلد الجميع إلى غرفهم. لقد شربوا جميعاً الكثير من الشراب. أنواع كانت مهمة ولذيذة. كانوا جميعاً نائمين في أسرّتهم، فيما سارت إيلين على رؤوس أصابعها ونزلت السلالم بهدوء وهي تحمل حذاءها العالي الكعب في يدها. كانت هادئة مثل الفأرة فيما فتحت الباب الأمامي وأغلقته بهدوء خلفها. براد ينتظرها خارجاً. ركن دراجته النارية عند المنعطف، وبدا منزعجاً.

"ما الذي أخّرك هكذا؟ أنا أنتظر منذ قرابة الساعة".

"أنا آسفة". نظرت إليه بتوتر. تستطيع الآن تغطية ما بقي من الرضوض بواسطة الماكياج. لقد أقنعها بأن عقابه بسبب غلطتها، لأنها لم تدافع عنه كما يجب وأهانته. لطالما أخبرها والدها أنها غلطتها أيضاً حين كان يرميها مع أمها على السلالم. كسر ذراعها مرتين. شرحت لبراد قائلة: "توجب عليّ الانتظار حتى خلد الجميع إلى النوم"، لكنه بدا غاضباً فيما توجها إلى المنعطف حيث ركن دراجته النارية.

"من أنت؟ فتاة في الثانية عشرة؟ أنت تدفعين إيجاراً في ذلك المكان. لا تستطيع تلك المرأة أن تقول لك ما يجدر بك فعله".

"بلى، تستطيع. إنه منزلها. تستطيع طردي خارجاً".

قال براد بغضب: "اللعنة عليها"، وأعطاها خوذة، وانطلقا بعد دقيقة، فيما جلست إيلين في الجهة الخلفية لدراجته النارية، متشبثة بحياة عزيزة. انزعج كثيراً من الأمر، لكن إيلين أصرّت على عدم إمكان دخوله إلى المنزل. سوف يذهبان إلى منزله. أرادت أن تعوّض له عن الإزعاج الذي سببته له قبلاً. إنه محق. لم تدافع عنه أمام الآخرين. وأقنعها، تماماً مثلما فعل والدها قبلاً، إنها سيئة ومخطئة. ستثبت له العكس هذه الليلة.

الفصل الحادي عشر

تسللت إيلين إلى المنزل في صباح اليوم التالي قبل أن ينهض أحد. شعرت أنها طفلة مجدداً، ولم يعرف أحد أنها خرجت ليلاً. لم يحضرها براد إلى المنزل، ولم تشأ أن يسمعوا هدير دراجته في أية حال، فأخذت سيارة أجرة. عادت إلى المنزل في الوقت المناسب لتستحم وترتدي ملابسها للذهاب إلى العمل. كان براد مذهلاً معها، رقيقاً، محباً، حنوناً. رأت أنه من المؤسف فعلاً ألا يتعرف إليه رفيقاتها في المسكن جيداً. إنه رجل محترم جداً. إلا أن الانطلاقة معه كانت سيئة. أملت أن تسترخي فرانشيسكا مع الوقت بشأنه وتسامحه. لقد سامحته إيلين. سوف تراه مجدداً هذه الليلة. العلاقة معه ممتازة.

أمضوا جميعاً أمسية هادئة في المنزل تلك الليلة. كانت ماريا تراجع وصفات، فيما فرانشيسكا تغسل ملابسها، وكريس يطالع في سريره. قالت إيلين إنها خارجة مع أصدقاء لها في العمل. لقد أمضوا جميعاً سهرة شيقة جداً مع أطباق تشارلز إدوار في الليلة الفائتة، بحيث احتاجوا جميعاً إلى الراحة هذه الليلة.

تركت ماريا بعض الحساء على الفرن، وكانت فرانشيسكا في طريقها إلى الطابق العلوي مع غسيلها، عندما خرج كريس مسرعاً من غرفته وبدا مذعوراً.

قال وهو يبدو غاضباً وخائفاً في الوقت نفسه: "لقد فعلتها مجدداً! تناولت جرعة زائدة مجدداً. إنها في غيبوبة. كان إيان معها، وقالوا إنه كان في حالة هستيرية عندما عثروا عليها. الآن، لا يستطيع التكلم. إنه في

صدمة. كان هناك رجل معها. لقد مات. يعتقدون أنها لن تنجو هذه المرة". وفي مكان ما في قلبه، أمل كريس فعلاً ألا تنجو. سيكون الأمر أكثر بساطة على إيان. يتوق بشدة للحصول على ابنه. نزل السلالم بسرعة فائقة وخرج من الباب الرئيس فيما حدقت إليه فرانشيسكا، متمنية أن يكون إيان بخير.

انتظرت عودتهما. كانت الرابعة فجراً عندما عادا أخيراً. كان كريس يحمل إيان، الذي بدا نائماً. فتحت بابها، ونزلت السلالم عندما سمعت الباب الرئيس ينغلق.

"كيف حاله؟ هل هو بخير؟ هل يستطيع التكلم؟" كانت قلقة بقدر كريس، الذي بدا وكأن باصاً صدمه. كانت ليلة طويلة جداً.

"تفوه ببضع كلمات قبل أن ينام. قالوا إني أستطيع إحضاره إلى المنزل. شاهد الرجل وهو يموت نتيجة تناوله جرعة زائدة، وتخيلي نوع الصدمة بالنسبة إلى ولد. يحملون كمبرلي مسؤولية ذلك. هذا ما يحصل عندما يموت شخص نتيجة الجرعة الزائدة. يتحمل الناجون مسؤولية موته. لهذا السبب، لا يتصل أحد بالشرطة عندما يموت أحد نتيجة الجرعة الزائدة. قد تذهب إلى السجن بسبب ذلك، إلا إذا استطاع محامو والدها إنقاذها مجدداً".

"كيف حالها؟".

أجاب بغضب: "على قيد الحياة، لسوء الحظ. كانت تستعيد وعيها عندما غادرت. لا أستطيع جعل إيان يعيش ذلك مجدداً"، أضاف مع نظرة يائسة فيما لحقت به إلى غرفته حيث وضع ابنه على السرير. لم يتحرك إيان أبداً. "أعطوه مسكناً. كان متوتراً جداً في المستشفى. ظن أن أمه ماتت. سوف أحارب للحصول على حضانته هذه المرة، وسأربح. ما من قاضٍ عاقل يستطيع إعادته إليها الآن. لن أسمح بحصول ذلك مجدداً. إنها مريضة جداً". أومأت فرانشيسكا، وتساءلت من يكون والدها، لكون محاميه بهذه القوة. لقد ذكر كريس الأمر قبلاً. إلا أنها لم تسأله طبعاً. لا دخل لها. إيان هو كل ما يهمّ الآن.

نزلت فرانشيسكا إلى المطبخ، وأحضرت لكريس كوباً من الحليب الفاتر. كانت في طريق عودتها مع كوب الحليب عندما شاهدت إيلين تتسلل إلى المنزل. الوقت متأخر جداً بالنسبة إلى سهرة مع أصدقاء في العمل. وعرفت فرانشيسكا من ملابس إيلين أنها كانت في موعد غرامي، لكنها لم تعرف مع من. على الأقل، لم تحضره إلى المنزل. كل ما أملته فرانشيسكا هو أن تكون خرجت مع رجل لطيف. بدت إيلين سعيدة فيما صعدت السلالم بسرعة إلى غرفتها، وقدمت فرانشيسكا كوب الحليب الفاتر لكريس. كان جالساً على كرسي، يراقب إيان نائماً على السرير العلوي.

قال كريس وهو يرتشف الحليب: "ستحصل بلبلة كبيرة إذا ذهبت أمه إلى السجن". لكنه لا يأسف عليها إذا منحه ذلك الحضانة الحصرية لإيان. يهتم فقط لأمر ابنه. توقف عن الاهتمام لأمرها قبل أعوام عدة، باستثناء تأثيرها في إيان.

قالت فرانشيسكا بهدوء في الغرفة المضاءة بنور خافت: "لا تقلق بشأن ذلك. حاول النوم قليلاً. يمكنك مواجهة كل ذلك غداً". وعرفت أنه مضطر لمواجهة جلسة حضانة مؤقتة خلال الأيام القليلة المقبلة. هكذا تحصل الأمور. قضايا الحضانة تأتي في الأولوية وتتصدر أي شيء آخر.

قال لفرانشيسكا: "شكراً"، فيما خرجت بهدوء من الغرفة وعادت إلى غرفتها.

اللغز المحيط بوالدة إيان تكشف لهم جميعاً على الصفحة الأولى للجريدة في اليوم التالي. كان كريس متزوجاً من كمبرلي أرشيبالد، من إحدى العائلات الأكثر نفوذاً في الساحل الشرقي. والدها رأسمالي مهم حقق ثروة كبيرة إضافة إلى الثروة التي يملكها. أخبر المقال فرانشيسكا مبدئياً ما قاله كريس الليلة الفائتة. ذكر أنها متهمة بالجرم بسبب موت مدمن آخر في شقتها. زعم المقال أنها هي التي اشترت المخدرات ودفعت ثمنها. شعرت فرانشيسكا بالأسف على كريس وإيان فيما قرأت ذلك، ثم توقفت عندما رأت الفقرة الثانية التي ذكرت اسمه. أدركت حينها كم هي بريئة. ذكر المقال أنها

متزوجة ومطلقة من كريستوفر هارلي سلسل العائلة السياسية المشهورة في بوسطن. والأهم أن والدته من آل كالفرسون. إنهم على صلة بالشيوخ، والحكّام، ورئيسين. زواج كريس من كمبرلي كان دمجاً لاثنتين من أقوى العائلات في البلاد، واحدة مالية وأخرى سياسية. ولم يكن كريس مجرّد رسام هندسي يجني عيشه بهدوء ويستأجر غرفة منها في شارع تشارلز. إنه وريث عائلة مهمة، بدا أنه أبعد نفسه عنها لعيش حياة هادئة وبسيطة، إلى أن فضحته زوجته السابقة على الصفحات الأولى لكل الجرائد في نيويورك. إنه متواضع جداً. وضعت فرانشيسكا الجريدة في درج كي لا يراها إيان عندما ينزلان لتناول الفطور بعد دقائق قليلة. ما زالت ماريا لا تعلم ماذا حصل الليلة الماضية. بدت متفاجئة لرؤية إيان، لكنها لم تعلّق على مدى شحوبه أو على الصدمة البادية عليه. لم يبتسم، وبالكاد تفوه بكلمة واحدة خلال الفطور، حتى عندما أعطته فطائره المفضلة التي على شكل ميكي ماوس. لا يزال يشعر بالنعاس نتيجة المسكّن الذي أعطوه له الليلة الفائتة، وبالكاد تناول القليل من الطعام.

"ماذا حصل؟" همست ماريا لفرانشيسكا عندما شكرها كريس على الفطور واصطحب إيان إلى الأعلى. بدا كريس قلقاً ومرهقاً، ولم يقرأ الجريدة أيضاً. أعطتها فرانشيسكا لماريا، التي قرأت المقال وشهقت. "كم هذا مريع. أتمنى أن يحصل كريس على حضانته الآن بشكل دائم".

"يفترض ذلك، خصوصاً إذا ذهبت إلى السجن. لكن كريس يظن أن والدها لن يسمح بحصول ذلك".

أجابت ماريا بحكمة: "ربما لا يملك خياراً. يبدو إيان مريعاً".

"شاهد الرجل يموت، وأمه تعاني من آثار جرعة زائدة".

"ما من طفل يفترض به عيش هذه التجربة". شعرت بالكثير من الأسف على كريس وإيان، تماماً مثل فرانشيسكا. بعد ذلك، نزل كريس إلى الأسفل من دون إيان. تركه في الأعلى، وأراد رؤية الجريدة. فتح فمه بذهول عندما فعل.

قال للمرأتين مع نظرة حزينة: "جميل، أليس كذلك؟" الرواية سيئة كفاية، وانزعج كثيراً عندما تحدثوا عن عائلته على مرّ الأجيال. على الأقل، معظم الأشخاص الذين عرفوه لم يفكروا يوماً في الرابط بينه وبين تلك العائلة. ولم يذكروا وجود إيان أثناء الحادثة، وهذه نعمة. احترموا كونه في السابعة فقط من عمره. قال: "أحرقي هذه من فضلك" فيما أعطى فرانشيسكا الجريدة وعاد مجدداً إلى الأعلى. نزلت إيلين إلى المطبخ حينها، وشرحت لها فرانشيسكا الأمر بعدما غادر كريس. شعرت بالكثير من الأسف عليه. لم تذكر لا هي ولا فرانشيسكا ساعة عودتها إلى المنزل الليلة الفائتة أو المكان الذي كانت فيه. رأت فرانشيسكا أن هذا ليس من شأنها، طالما أن إيلين لا تعرّضهم للخطر نتيجة الأشخاص الذين تحضرهم إلى المنزل. أملت فرانشيسكا أن تكون قد تعلمت أن تحكم بعقلانية على الأمور.

لم يرسل كريس إيان إلى المدرسة ذلك اليوم، وكان لا يزال هادئاً جداً عندما عادت فرانشيسكا وإيلين من العمل إلى المنزل. كان تشارلز إدوار موجوداً هنا هذه الليلة. بقي مع ماريا طوال فترة بعد الظهر، يراجعان الوصفات ويتحدثان عن كتابهما المشترك. عرض تحضير وجبة خفيفة لهم، وبيتزا خاصة لإيان. اشترى سلطعوناً بقشرة طرية، وبعض الكركند، وخلال وقت قصير حضّر مع ماريا وليمة جديدة. أخبرته بما حصل لابن كريس، وشعر بالكثير من الأسف عليه. وعندما جاء الصبي إلى المطبخ بعد ظهر ذلك اليوم، عرّفه تشارلز إدوار عن نفسه وسأل إيان إذا كان يمانع في مساعدته لبضع دقائق. لم يلتقيا قبلاً. طلب تشارلز إدوار من إيان حمل بيضة في يده والبقاء ساكناً. وقف إيان من دون أي تعبير وهو يحمل البيضة، وبدا تشارلز إدوار جدياً جداً فيما سحب البيضة فجأة من أذن إيان.

سأله تشارلز إدوار برزانة: "لماذا فعلت هذا؟ طلبت منك الإمساك بالبيضة، وليس وضعها في أذنك". رغماً عن نفسه، ورغم الصدمة التي تعرض لها، ابتسم إيان ابتسامة عريضة. "حسناً، الآن المسألة جدية جداً. أمسك بالبيضة من فضلك. وهذه المرة، لا تتحرك. آه، وأمسك بجزرة بهذه

اليد. ممتاز. أرجوك استمع إلى تعليماتي. أنا طاهٍ مهم جداً". بدأ إيان يبتسم حينها. وهذه المرة، خرجت البيضة من أنفه، والجزرة من ياقة قميصه. قهقه إيان فيما قام تشارلز إدوار بألاعيبه. وخلال خمس دقائق، جعل إيان يقهقه عالياً، ومن ثم يصرخ فرحاً، فيما خرجت بيضة أخرى من كنزته، وليمونة من سروال الجينز. قال تشارلز إدوار: "لا أستطيع أن أثق بك أبداً؟"، وراح يلعب فجأة بثلاث بيضات، وعدة خضار، وملعقتين. أنجز ألاعيبه من دون أي خطأ إلى أن وقعت بيضة أرضاً وانكسرت، فضحك إيان عالياً على الفوضى الحاصلة. زعم تشارلز إدوار أنه محرج ثم أوقع البيضات الأخرى على الأرض وسبب فوضى أكبر. راح الجميع يبتسمون ابتسامة عريضة حينها، ونظر إيان إلى الرجل الطويل ذي الشعر الأبيض وأخبره أنه سخيف فعلاً. لكن إيان كان يتحدث مجدداً ويضحك. تلألأت الدموع في عيني فرانشيسكا فيما راقبتهما. كان رائعاً مع الصبي. إنه مهرج بارع بقدر ما هو طاهٍ بارع.

نظفت ماريا الفوضى قبل حصول فوضى أكبر، وجلس تشارلز إدوار ووضع إيان على ركبته. سأله: "هل ترغب في مساعدتي في تحضير العشاء؟". فأومأ برأسه، وبعد دقائق قليلة، وضع قبعة الطاهي على رأس الصبي وراح يشرح له كيفية طهو الكركند والسلطعون وطلب جولة من التصفيق لمساعده الصغير حين قدّم الطبق. وعلّم إيان كيفية تحضير البيتزا، وقلّب العجينة عالياً في الهواء عندما فعل ذلك. مرة جديدة، كان العشاء لذيذاً. والأفضل من ذلك أن إيان عاد يتحدث بحيوية. شكره كريس عندما تشاركا السيجار الكوبي مجدداً في الحديقة، وتصرف تشارلز إدوار كما لو أنه لم يفعل أي شيء. إلا أن هذا عنى الكثير الكثير بالنسبة إلى كريس. فالطاهي المشهور عالمياً فاز بقلبه إلى الأبد لما فعله مع إيان. كان أفضل من أية مساعدة اجتماعية أو طبيب نفسي.

كانت ليلة هادئة بعدما غادر تشارلز إدوار. وعدهم بالعودة وتحضير العشاء لهم خلال عطلة نهاية الأسبوع، واقترحت ماريا على فرانشيسكا أن تدعو أمها، الأمر الذي خشيته، لكنها عرفت أنها ستحب ذلك.

اتصلت بأمها في اليوم التالي ودعتها، وقبلت الدعوة. في اليوم التالي، ذهب كريس إلى جلسة الحضانة، التي كانت مهرجاناً إعلامياً. لم يحاول محامو زوجته السابقة الدفاع عنها. فهم منهمكون كفاية في تبرئة كمبرلي من تهمة القتل الموجهة إليها. حذّرهم محامي كريس قبلاً أنه سيطلب حضانة دائمة لإيان، مع ثأر هذه المرة. لم تعد هناك أية شفقة على كيم بعد ما فعلته، وتعريضها إيان للأذى مراراً وتكراراً. وحصل على الحضانة المؤقتة بعد الجلسة. أذيع الخبر في نشرة الأخبار تلك الليلة، وصودف أن رأته والدة فرانشيسكا فاتصلت بها فوراً.

"هل تعلمين من هو هذا الرجل؟". تأثرت كثيراً بالعائلة التي ينتمي إليها. إلا أن فرانشيسكا تأثرت أكثر بتواضعه وتكتمه.

"نعم، أعلم".

"إنه ينتمي إلى إحدى العائلات الأكثر نفوذاً في هذا البلد".

"أظن ذلك. لكنه لا يتحدث عن الأمر. وكل المسألة المتعلقة بزوجته السابقة صعبة جداً عليه، وعلى ابنه".

"تبدو فاسدة جداً. أشعر بالأسف على أهلها".

"أشعر بالأسف على ابنها. إنه في السابعة، وقد عاش الكثير من الصدمات بسببها". لم تعلّق أمها.

قالت، للانتقال إلى مواضيع أكثر فرحاً: "لا أصدق أن تشارلز إدوار برونييه سيطهو العشاء ليلة غد. أتطلع بشوق إلى ذلك. كيف وصلت إليه؟".

"إنه صديق ماريا".

قالت أمها: "لا شك في أنك حصلت على رفقاء في المسكن مثيرين فعلاً"، وبدت مسرورة كما لو أنها فكرتها أساساً. هكذا هي الأمور معها عادة. إذا لم تنجح الأمور، تكون غلطة شخص آخر. وإذا نجحت، تكون هي المسؤولة عن ذلك النجاح وتلقى كل المديح. أحبت فرانشيسكا دعوة والدها وأفيري أيضاً، إنها تستمتع معهم، لكن كل على حدة، وليس مجتمعين. فأمها تتنافس مع أفيري أحياناً، مما يسبب التوتر لفرانشيسكا.

وصلت أمها إلى العشاء ليلة السبت، وهي بكامل أناقتها، في فستان أسود قصير وجذاب وحذاء عالي الكعب. لاحظت فرانشيسكا أن تشارلز إدوار فتح عينيه دهشة عندما رآها، وبدت ماريا مسرورة. كانت تنتعل خفاً مريحاً، وترتدي كنزة سوداء وسروال جينز، مع سترة الطاهي. أما إيان فكان يضع قبعة الطاهي مجدداً، وبدا مسروراً.

تناولوا الكابيليني مع الكافيار، والشاتوبريان مع الكبدة السوداء والكمأة السوداء. كانت وجبة لذيذة، وثملت أمها قليلاً نتيجة الشراب، ومثلما كان متوقعاً، غازلت تشارلز إدوار من دون رحمة، وبدا أن ماريا لم تمانع على الإطلاق.

"إنه رائع، أليس كذلك؟"، قالت تاليا لابنتها عندما خرج الرجلان لتدخين السيجار، وذهب إيان معهما.

مازحتها فرانشيسكا قائلة: "لا تتعبي نفسك، ماما. إنه متزوج. وفرنسي. ويعني ذلك أنه لن يطلّق زوجته من أجلك".

أجابت بثقة: "لا تعرفين أبداً. فقد حصلت أمور أكثر غرابة".

"ليس في فرنسا"، قالت هي وماريا بصوت واحد، ثم ضحكتا. لقد خرجت إيلين. قالت إنها على موعد غرامي مع رجل جديد. كانت الفتاة الأكثر انهماكاً في المدينة، والأكثر سعادة هذه الأيام. بدا أن الأمور تسير على ما يرام معها. كانت فرانشيسكا مسرورة. أحبت عملها ورفقاءها في المسكن، وعادت تستمتع مجدداً بعد الحادثة مع براد. أصبح من التاريخ.

قالت تاليا بإعجاب عن تشارلز إدوار: "لا شك في أنه رجل رائع ووسيم جداً"، وأعادتها فرانشيسكا إلى أرض الواقع عندما أخبرتها أنه مغرم بماريا منذ أعوام.

تذمرت تاليا مباشرة أمام ماريا: "هذا ليس عادلاً. فأنت لا تريدين رجلاً. أنت قلت ذلك. أنا أريد، لكنه مغرم بك".

أجابت ماريا بعفوية: "ليس مغرماً بأحد. إنه يحب النساء لا أكثر. بكميات كبيرة. نحن صديقان جيدان منذ أعوام".

قالت تاليا بحزن: "كم هذا مؤسف"، فيما دخل الرجلان إلى المطبخ، وجزيت تأثيرها مجدداً على الطاهي المشهور. وبالرغم من إحساسها دوماً بالإحراج بسببها، توجب على فرانشيسكا الاعتراف بأن أمها جميلة. بدت فاتنة في الفستان الأسود والكعب العالي، وكشفت عن ساقي امرأة في العشرين عندما شبكتهما فوق بعضهما، لكن تشارلز إدوار لم يزِ إلا ماريا، ولم يتأثر بها. بدت أمها خائبة الأمل قليلاً عندما غادرت. هذه المرة، لم ينجح جمالها، بالرغم من أنه رآها امرأة جميلة جداً، واكتفى بهذا الحد. بالإضافة إلى ذلك، قالت فرانشيسكا لنفسها، لديه زوجة. هناك الكثير من النساء في حياته.

كانت سهرة أخرى رائعة بفضله، مع الكثير من الأحاديث الشيقة والطعام الرائع. إنه عاشق للتاريخ والأدب، وكذلك الطعام. واليوم التالي كان يوم أحد جاء تشارلز إدوار لاصطحاب ماريا، وأراد تجربة مطعم صيني جديد معها. يعرف الطاهي هناك، وقد التقاه في بيجينغ. سوف يذهب كريس وإيان إلى بركة المراكب. يتوجب على فرانشيسكا إنجاز أعمال في المنزل، ولم تعد إيلين إلى المنزل الليلة الفائتة.

كانت فرانشيسكا تنظر إلى صور أعمال فنانين جدد بعد ظهر ذلك اليوم عندما سمعت إيلين تدخل. نادتها لكنها لم تستطع رؤيتها من حيث هي جالسة، وتوجهت إيلين نحو السلالم. نهضت فرانشيسكا لإحضار المزيد من الصور حينها، ولمحت إيلين وهي مقوسة الظهر وبالكاد تستطيع التحرك. استدارت للنظر إلى فرانشيسكا واليأس يملأ وجهها، فيما حبست فرانشيسكا أنفاسها. لقد تعرضت للضرب مجدداً.

سألتها فرانشيسكا: "من فعل هذا بك؟" فيما وضعت ذراعها حولها لمساعدتها. كانت إيلين تبكي، ورفضت الإجابة.

"هل رأيت براد مجدداً؟" أومأت إيلين ببطء.

"كان لطيفاً جداً معي. كان حنوناً جداً، ثم أغضبته مجدداً. ظن أنني أسخر منه. قال إني أذللته أمام أصدقائه".

"إيلين، أقسمي أنك ستطلبين المساعدة. لا يمكنك رؤيته مجدداً".

"أعرف. قال إنه لا يريد رؤيتي مجدداً. قال إنه سئم مني، وطلب مني عدم الاتصال به أبداً مجدداً. لقد رحل". عرفت فرانشيسكا الآن أنه لم يرحل ولن يرحل أبداً. سيعود. لضربها مجدداً. عليها أن تكون هي الطرف الذي يرحل. وخوف فرانشيسكا هو ألا تملك إيلين الشجاعة أو القوة لفعل ذلك.

ساعدت إيلين في الصعود إلى الأعلى والاستلقاء على سريرها وتركتها هناك. شعرت فرانشيسكا بالقرف، وهي تفكر فيها، ثم نزلت إلى الأسفل. مخاوف كريس عليها كانت صحيحة فعلاً. إيلين مدمنة على الرجل وعلى سوء المعاملة.

الفصل الثاني عشر

سكان 44 شارع تشارلز كانوا أقل تعاطفاً مع إيلين هذه المرة. ألقت عليها ماريا عظة أمومية، بعدما حضرت لها الحساء والطعام الخفيف طوال خمسة أيام. هذه المرة، لم يترك براد فقط سواداً حول عينيها ورضوضاً على كل وجهها، وإنما أوقع الخلل أيضاً في أسنانها. توجب عليها زيارة طبيب الأسنان مرتين خلال ثلاثة أيام. أخبرتها ماريا أنه لا يمكنها السماح لنفسها برؤيته مجدداً. كانت فرانشيسكا صارمة معها وتوسلتها لطلب المساعدة. ولم يتعاطَ كريس معها البتة.

قال لفرانشيسكا: "لقد سئمت من المجانين والمدمنين والمدمرين لأنفسهم. إنها مدمنة على ذلك الرجل، وحتى لو قيدتها بسلسلة بالحائط في غرفتها، سوف تتسلل لرؤيته، وسيعاود ضربها مجدداً. إنها مريضة جداً. لقد عشت التجربة نفسها مع كيم والمخدرات. لا يمكنك محاربة إدمان الأشخاص، وأصبحت ذكياً كفاية لعدم المحاولة والتجربة. ستفعل أي شيء لحماية إدمانها. الأمر ليس مختلفاً عن المخدرات. لا يمكنك إصلاح الأشخاص، أو وقفهم، وسينفطر قلبك وأنت تحاولين".

أصرّت فرانشيسكا: "لكن لا يمكنني الجلوس هناك وعدم قول أي شيء حيال ذلك". رأت أن كريس يتصرف ببرودة كبيرة حيال الموضوع.

"أنت تبددين وقتك. عليها أن تقتنع بطلب المساعدة، وإلى أن تفعل ذلك، ما من شيء تقولينه أو تفعلينه سيؤثر فيها".

هذا مؤلم فعلاً، كرهت فرانشيسكا رؤية الحالة التي هي فيها. إنها فتاة لطيفة جداً، لكنها لا تحترم ذاتها على الإطلاق. هذا واضح الآن. لقد

أشبعها والدها بهذه الفكرة. سوء المعاملة هو ما تتوقعه وتعتقد أنها تستحقه.

سئم منها أصحاب العمل أيضاً. توجب عليها أخذ إجازة لمدة أسبوع، إلى أن باتت قادرة على تغطية الرضوض بالماكياج. وحين عادت إلى العمل، طردوها. عادت إلى المنزل مصدومة بعد ظهر ذلك اليوم. خسرت وظيفتها. لم يعد براد يتحدث إليها وأخبرها أنه لم يعد يريد أي شيء منها. لقد طردها من حياته، وبقيت تسأل فرانشيسكا إذا كانت تظن أنه سيعاود الاتصال بها مجدداً. هذا مقرف.

"أتمنى ألا يفعل ذلك"، كان كل ما قالته فرانشيسكا لها باستمرار، لكنها بدأت تدرك أن كريس محق، وأن سوء المعاملة هو إدمان. إنها تتألم لعدم رؤية براد حتى لو أساء معاملتها. ورفضت الحصول على المساعدة. أملت فرانشيسكا أن يبقى براد بعيداً لوقت طويل كفاية حتى تعود إيلين إلى رشدها وتشفى منه.

أما والدة إيان فكانت تطلب رؤية ابنها في السجن. رفض كريس الأمر رفضاً قاطعاً، وقال إن هذا سيدمره. وافق على الأمر طبيبان نفسيان تحدثا مع إيان. إنه سعيد مع والده ويعيش حياة طبيعية معه.

تشارلز إدوار يمضي الكثير من الوقت في المنزل هذه الأيام لرؤية ماريا، وإنجاز العمل الأولي لكتابهما المشترك، وكان إيان بمثابة ظله كلما تواجد هناك. إنه يعلّمه اللغة الفرنسية وطهو الأشياء البسيطة. لقد أحب الصبي، وكان رائعاً مع الأولاد، بالرغم من أنه لم يرغب يوماً في إنجاب الأولاد. لكنه شعر بالأسف على إيان وعلى كل ما عاناه. أحب إيان الخدعة التي يزعم فيها تشارلز إدوار أنه يسحب البيضة من أذنه، وأحياناً بيضتين، فيتوسله لتكرارها مجدداً، وينفذ الطاهي الشهير مطلبه.

قالت فرانشيسكا بعفوية ذات يوم عندما كانت في المطبخ مع ماريا: "يتواجد هنا كثيراً هذه الأيام، أليس كذلك؟".

أجابت ببراءة: "نعمل على تحضير الكتاب".

سألت فرانشيسكا: "هل أنت واثقة من أنه مخلص لزوجته؟"، آملة ألا يكون مخلصاً. فهما ظريفان جداً معاً. أحبت رؤية ماريا معه، التي أصرّت دوماً على أن هذا لن يحصل أبداً وهي واثقة بذلك. ولا تنوي إقامة علاقة غرامية مع رجل متزوج، وعرف تشارلز إدوار ذلك، بالرغم من استمراره في محاولة إقناعها، مثلما فعل طوال ثلاثين عاماً. كانت ماريا تضحك عليه، وتذكره باستمرار بزواجه وبزوجته الموجودة في المنزل.

سيغادر إلى باريس بعد فترة وجيزة، في نهاية الشهر، وإلى الجنوب بعد ذلك. تنوي ماريا لقاءه في شهر يوليو للعمل على كتابهما هناك. ستذهب إلى إسبانيا، وإلى إيطاليا بعد ذلك، لزيارة الطهاة الذين تعرفهم والمطاعم التي تريد استكشافها. وأرادت تمضية شهر أغسطس في فيرمونت، قبل أن تعود إلى نيويورك في شهر سبتمبر. ستغيب لأكثر من شهرين، وعرفت فرانشيسكا أنها ستشتاق إليها. حاولت فرانشيسكا أن تخطط لمشاريعها الخاصة للصيف. دعتها ماريا للذهاب إلى أوروبا معها، مثلما فعلت أمها، لكن فرانشيسكا أرادت الإبحار في ماين مع أصدقائها مثلما تفعل كل صيف، وفعلت ذلك لمدة أربعة أعوام مع تود. كانوا أصدقاءه، لكنها أحبتهم كثيراً وأصبحوا أصدقاءها أيضاً. ينوي تود زيارتهم أيضاً مع خطيبته، وإنما في وقت مختلف.

قالت لها أمها: "ليس هذا جيداً. أنت تفعلين الأشياء نفسها التي اعتدت القيام بها معه. عليك فعل أشياء جديدة". ستذهب أمها إلى سان تروبيز وساردينيا، مثلما تفعل كل سنة. لكن كريس علّق على الشيء نفسه أمام فرانشيسكا.

"هل أنت واثقة بأنك ترغبين في الذهاب إلى المكان نفسه مثله، حتى لو قررتما الذهاب في أسبوعين مختلفين؟ يبدو لي الأمر محفوفاً بالمخاطر". علماً أن تود ذاهب مع خطيبته.

أجابت بعناد: "أحب الإبحار في ماين".

"يمكنك الذهاب لزيارتنا أنا وإيان في مارثاز فينيارد. نتمنى وجودك معنا". سيكون كريس مع إيان في مارثاز فينيارد طوال شهر يوليو ومعظم

شهر أغسطس. ينوي القيام ببعض الأعمال أثناء وجوده في الفينيارد. تملك عائلته منزلاً كبيراً هناك، لكنها شعرت بالغرابة لفكرة ذهابها إلى هناك. فهي وكريس مجرد صديقين، وبعد أن عرفت الآن من تكون عائلته، شعرت أنهم أصحاب نفوذ كبير بالنسبة إليها. ستخاف كثيراً. فكرت في الذهاب إلى مزرعة في مونتانا أو وايومينغ لرؤية "الغراند تيتونز"، لكنها لا تريد الذهاب بمفردها. سوف يذهب والدها وأفيري إلى أسبن، لكنها لا تريد الذهاب إلى هناك أيضاً، ولا إلى أوروبا مع أمها أو ماريا. لا تعرف إلى أين تذهب، ولا تستطيع تحمّل التكاليف المالية للإجازة. سيكون من الأسهل الذهاب للإبحار في ماين، على مركب أصدقائها. رفضت فكرة أنها تدير المعرض الفني الذي أسسته معه، وتعيش في المنزل الذي اشترياه معاً، وتمضي العطلة الصيفية نفسها التي تشاركتها معه طوال أعوام عدة.

اقترح كريس برفق: "ربما عليك التخلي عن بعض هذه الأمور". إنها عالقة في دوامة. يبدو أنها لا تستطيع التفكير إلا في الأشياء التي فعلتها مع تود. لكنها لا تريد الاعتراف بذلك، لا وحتى لنفسها. على الأقل، سيكون الإبحار في ماين بمثابة تغيير في المشهد، مريح مع هواء نقي. لطالما استمتعت هناك. ستذهب خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر أغسطس.

الشخص الوحيد الذي لا يملك أية مشاريع صيفية هو إيلين، ولا تستطيع تحمل كلفة الذهاب إلى أي مكان الآن، لأنها من دون وظيفة. لقد ادخرت مالاً يكفيها لمدة شهرين، وتصورت أنها ستعثر على وظيفة حينها. اقترحت عليها فرانشيسكا الذهاب إلى منزلها في سان دييغو لرؤية عائلتها، لكنها لا تريد ذلك. وبعد قصصها مع والدها، لم تلحّ فرانشيسكا عليها. شعرت بالأسف عليها، إذ لا تملك مكاناً للذهاب إليه. لكن كل يوم هو بمثابة إجازة لإيلين الآن لأنها لا تعمل. بدأت ترسل سيرتها الذاتية إلى عدد من المدارس المتخصصة، لكن لم يأتها الرد من أية مدرسة لغاية الآن. التوصيات من عملها السابق ليست مشجعة، نتيجة أخذها إجازات كثيرة من العمل، بسبب براد. ولن يساعد ذلك في العثور على وظيفة جديدة. براد لم يسبب لها الأذى

الجسدي فقط، وإنما جعلها تخسر مصدر رزقها أيضاً. لم تسمع منه أي خبر لغاية الآن، وشعرت فرانشيسكا بالارتياح. لقد رحل إلى الأبد ربما. لكن كريس يعرف الأمور أفضل من ذلك، وشك في هذا.

"المعتدي لا يبتعد أبداً عن ضحيته. سيعود".

قالت فرانشيسكا بتشاؤم: "ربما عثر على ضحية أخرى لضربها".

قال كريس: "سيعود في أية حال". بالكاد يتحدث إلى إيلين الآن. فإدمانها ذكّره كثيراً بزوجته، وقد عانى كثيراً منه، لا يرغب بمعايشة حالة أخرى، حتى لو كانت صديقة. برأيه الخاص، مرضهما هو نفسه، ورأى أن إدمان إيلين على سوء المعاملة هو مرَضي، مما يزيد من صعوبة تخليها عنه. ومن دون وظيفة، أمضت معظم وقتها الآن في السرير، تبكي وتندب براد، ولا تبحث عن وظيفة كما يجب. لاحظت فرانشيسكا أنها تنحدر إلى الهاوية ولا تملك طريقة لوقفها.

كان تشارلز إدوار أول من غادر من المجموعة، عندما عاد إلى فرنسا، وولّد ذلك فراغاً حقيقياً. لقد كانت الأمور حماسية أكثر بوجود الرجل الفرنسي معهم، واعترفت ماريا أنها اشتاقت إليه أيضاً، لكنها ستلتقيه في البروفانس خلال أسابيع قليلة، للعمل معه في إنجاز الكتاب.

قالت فرانشيسكا بتفاؤل: "قد يترك زوجته هذا الصيف"، فضحكت ماريا. لا تتوقعه أن يفعل ذلك وقالت إنها لا تعرف ماذا ستفعل به إذا ترك زوجته فعلاً.

قالت لفرانشيسكا بطريقة عملية: "لا مكان في حياتي لرجل. أحب حياتي كما هي. فهي مريحة هكذا. بالإضافة إلى ذلك، أنا كبيرة جداً للعثور على رجل، ولا أريد واحداً". لم تستطع فرانشيسكا إلا التفكير مجدداً في مدى اختلافها عن أمها. فأمل تاليا الوحيد هو العثور على رجل في سان تروبيز أو بورتو سيرفو. إنها تلتقي بالأصدقاء في كل مكان، وتنوي السفر لمدة شهرين، مثلما تفعل كل سنة. ستلتقي بأصدقاء لها في البندقية لحضور حفلة كبيرة. صيفها حافل دوماً أكثر من صيف ابنتها، أو صيف أي شخص آخر تعرفه فرانشيسكا.

غادر كريس وإيان إلى مارثاز فينيارد في عطلة نهاية أسبوع الرابع من يوليو. تنوي عائلة كريس القيام بحفلات مشاوي في الطبيعة، ومباريات لكرة القدم بين أفراد العائلة، وسوف يمضي إيان الصيف مع أقاربه، بعيداً عن الآلام التي عاشها مع أمه. سيكون هذا جيداً له ولكريس. وهناك دوماً الكثير من الحفلات في مارثاز فينيارد، فضلاً عن تواجد كل أصدقائه القدامى. إنها الحياة التي يتجنبها كريس عمداً طوال السنة، وإنما يستسلم لها دوماً خلال فصل الصيف. سيكون أهله هناك، بالرغم من أنه ليس قريباً جداً منهما، وأرادا رؤية إيان. سيذهب إيان لزيارة عائلة أمه أيضاً، في نيوبورت، في طريق العودة إلى المنزل. يكره كريس ذلك، بسبب فرط العلاقات الاجتماعية، لكنه وعد إيان باصطحابه لرؤيتهم في عطلة نهاية أسبوع طويلة. هذا كل ما يستطيع القيام به. ما زالوا يدافعون بشراسة عن ابنتهم، ويلومون كريس على تركها، وينكرون مشاكلها، بالرغم من أن الأمر بات أكثر صعوبة الآن، مع تهم القتل الموجهة إليها. لا تزال في السجن، وبالرغم من كل مناورات والدها، رفض القاضي إخلاء سبيلها بكفالة، حتى تتعافى من المخدرات في السجن.

غادرت ماريا إلى فرنسا في العاشر من يوليو، كي تمضي يوم الباستيل هناك. ستمكث في باريس لأيام قليلة قبل الذهاب إلى البروفانس، لزيارة زملائها في مجال الطهو، علماً أن بعضهم يديرون أفضل المطاعم في باريس. تدرّبت هناك خلال فترة شبابها، وما زال لديها هناك أصدقاء تحبهم. تنوي السفر بعدها إلى البروفانس وبدء العمل مع تشارلز إدوار.

كان المنزل هادئاً جداً بعدما غادر الآخرون. استفادت فرانشيسكا من الوقت لإنجاز بعض التصليحات، والاسترخاء. أغلقت المعرض في وقت باكر كل يوم– خصوصاً وأن العمل في المعرض معدوم خلال الصيف. لا يبيعون أي شيء أبداً في شهر يوليو، وأغلقت المعرض معظم شهر أغسطس. استفادت من الوقت لترتيب ملفاتها، ومراجعة صور فنانين جدد. ارتكبت خطأً بالخروج مع أحد فنانيها بسبب الضجر. شربا معاً حتى الثمالة، وانتهى بالبكاء وندب صديقته التي انفصل عنها للتو. وكل ما فعله طوال

السهرة هو توليد الاكتئاب لفرانشيسكا. اتصل بها للاعتذار في اليوم التالي. لقد كانت السهرة فاشلة جداً وذكّرتها بضرورة عدم الخروج مع فنانيها. لطالما كانت هذه فكرة سيئة.

أصبحت إيلين تبدو أكثر فرحاً قليلاً، بالرغم من أنها لم تعثر على وظيفة. لا تزال تندب براد، فيما رفضت فرانشيسكا مناقشة الأمر معها. لا تريد تعزيز مرضها. أمضتا بعض السهرات الهادئة معاً، قبل أن تغادر فرانشيسكا. بدا أن علاقتهما تعمّقت، وبراءة إيلين الكبيرة مزقت قلبها. إنها محط ثقة، وحنونة وصريحة. ولكنها لا تملك أي شيء من وسائل الدفاع التي تحتاج إليها لحماية نفسها في العالم. تمنت فرانشيسكا لو أنها تقسو على نفسها قليلاً، وتصبح أقل هشاشة، لكن هذه هي إيلين. شعرت فرانشيسكا بالذنب لتركها وحيدة لثلاثة أسابيع، وعرضت عليها أخذها معها إلى ماين، لكن إيلين أصرّت أنها بخير. ستتعرف إلى أصدقاء عبر الإنترنت من جديد، مما أزعج فرانشيسكا، لكنها شعرت أنها ليست مؤهلة لتقول لها ذلك. الإنترنت هو محور حياة إيلين وطريقة تعرفها إلى كل أصدقائها. اللقاء بالرجال هو جزء من ذلك. إنها جزء من جيل متصل بالكمبيوترات بحبل السرّة. فهي إما موجودة على الشبكة، أو ترسل الرسائل النصية الهاتفية، وهذا أمر نادراً ما تقوم به فرانشيسكا. تفضل حمل الهاتف والاتصال بالأشخاص، وسماع صوتهم. إلا أن جيل إيلين يتواصل بالبريد الإلكتروني والرسائل الهاتفية. وينجح ذلك مع معظم الأشخاص، تماماً مثل الإنترنت. لكن بالنسبة إلى إيلين، بدا أنه يجذبها مغنطيساً للرجال الخاطئين.

اصطحبتها فرانشيسكا لتناول العشاء خارجاً في ليلتها الأخيرة في نيويورك. ذهبتا إلى وايفرلي إين، وكانت السهرة ممتعة. لا يزال هناك الكثير من الأشخاص في نيويورك. وبدا مزاج إيلين أكثر مرحاً وفرحاً مما كان سابقاً. قالت لها فرانشيسكا إن منزلهم يبدو مثل مسكن الطلاب بحيث يذهب الجميع إلى بيوتهم خلال فصل الصيف. وذكّرها ذلك بأن إيلين هي الوحيدة التي لا تملك مكاناً للذهاب إليه. الآخرون يملكون عائلات أو أصدقاء أو

منازل أخرى. قالت إيلين إنها تنوي الذهاب إلى الشاطئ حين لا تبحث عن عمل، وسوف تكون بخير. تتطلع لتمضية بعض الوقت بمفردها. وشعرت فرانشيسكا بغصة في قلبها مجدداً عندما تركتها في اليوم التالي. بدت إيلين مثل طفلة صغيرة فيما وقفت على العتبة الأمامية ولوّحت مع ابتسامة كبيرة فيما ابتعدت سيارة الأجرة وأخذت فرانشيسكا إلى المطار للسفر إلى بانغور للقاء أصدقائها. كانت إيلين ترتدي شورتاً وتربط شعرها بجديلتين، وبعدما غادرت فرانشيسكا، دخلت إيلين إلى المنزل. كان هاتفها الخلوي يرنّ، وأجابت عليه. إنه براد.

الفصل الثالث عشر

مرّ الصيف بسرعة بالنسبة إليهم جميعاً. قامت ماريا بالعديد من الأسفار. فقد انتقلت من باريس إلى البروفانس، ومن ثم إلى بول دو فانس، وأمضت عطلة نهاية أسبوع مع الأصدقاء في الأنتيب. طارت من نيس إلى إسبانيا لزيارة صديقها فيران أدريا، في إيلبولي إين روزس مع كل ابتكاراته المبدعة. لقد اخترع الطهو "الجزيئي"، بحيث يفكك الطعام ويعيد تركيبه. أغلق المطعم لبعض الوقت، وينوي إعادة فتحه مجدداً بعد إجراء المزيد من الأبحاث. لطالما افتتنت ماريا بأفكاره وإبداعه الخارق. ومن هناك، طارت إلى فلورنسا، وبولونيا، والبندقية، وبادوفا، ثم نزلت إلى روما، وعادت إلى باريس مجدداً لتمضية بضعة أيام، قبل أن تطير إلى بوسطن، ومن ثم إلى فيرمونت. تملك ماريا أصدقاء في كل مكان، والجميع يرحبون بزياراتها. أمضت وقتاً رائعاً، وفرحت بعودتها إلى فيرمونت مجدداً، والنوم في سريرها، والطهو في مطبخها، بالرغم من أنها تفتقد زوجها أكثر هنا. لقد رحل منذ عام. لا تزال تشتاق إليه، لكنها مشغولة وتعيش حياة نشطة.

سافرت مع تشارلز إدوار بشكل مسهب في البروفانس، واكتشفا وصفات جديدة لكتابهما. إنهما مستعدان لتقديم المسوّدة إلى الناشر، وينويان كتابة الوصفات في شهر سبتمبر. أضافت فصلين جديدين أثناء وجودها في فيرمونت، ثم غادرت إلى نيو هامبشاير. أصبح الليل بارداً، وبدأت ملامح الخريف تلوح في الأجواء. كانت بعض الأوراق المتساقطة تدور أرضاً فيما تنقّلت في الأرياف. مكثت أكثر مما كانت تنوي مع أصدقائها في شمال كورنواي، ثم عادت إلى المنزل. أمضت وقتاً جيداً طوال الصيف، وبدأت

تفكر في العودة إلى نيويورك بعد يوم العمال، فيما قادت سيارتها إلى منزلها، وذهلت لرؤية تشارلز إدوار واقفاً على مصطبتها. بدا متململاً وارتاح حين خرجت من السيارة.

سألته بذهول: "ماذا تفعل هنا؟". بدا شعره أطول وأكثر غرابة من أي وقت مضى، وكانت عيناه بلون أزرق مماثل للون سماء فيرمونت. "ظننتُ أنك في سان تروبيز". يملك منزلاً في راماتويل، الواقعة قرب سان تروبيز، وأراد تمضية شهر أغسطس هناك. لم تسمع منه أي خبر منذ البروفانس، ولم تتوقع ذلك. اتفقا على الاتصال ببعضهما حين تعود إلى نيويورك. ولا تملك أدنى فكرة عما يفعله في فيرمونت.

بدأ يتحدث لحظة وقفت على المصطبة: "تركتني من أجل أحد مساعدي الطهاة معي. هل تصدقين ذلك؟ غادرت ووضبت كل شيء".

"من؟". كانت واثقة من أنه يتحدث عن الطاهية التي تدير مطعمه في باريس. كانت علاقتهما عاصفة طوال أعوام عدة، وهددته بالمغادرة قبل ثلاثة أسابيع.

أجاب، بنظرة غضب: "أرييل زوجتي"، ثم ابتسم ابتسامة عريضة فيما نظر إلى ماريا. كان سعيداً لرؤيتها، وبدا ذلك جلياً.

"تركتك زوجتك للذهاب مع مساعد الطاهي؟" بدت ماريا مذهولة.

"تريد الطلاق. تلقيت رسالة من محاميها قبل خمسة أيام. بدأ يحضر الأوراق. جئت إلى هنا على متن أول طائرة، لكنك كنت خارج المنزل".

"لماذا لم تتصل بي إذا أردت التحدث إليّ؟". بدت غافلة تماماً عن سبب مجيئه إلى هنا.

قال بإصرار: "أردت التحدث إليك شخصياً"، فيما أخرجت مفاتيح منزلها من حقيبتها وفتحت الباب.

"عن ماذا؟ الناشر لا يزال في إجازة. بالمناسبة، أضفت فصلين جديدين الأسبوع الماضي. أظن أنك ستحبهما. فصل مخصص للتوابل، وكيفية استعمالها، والآخر للسمك".

قال: "لم آتِ إلى هنا للتحدث معك عن السمك"، وبدا منزعجاً.

"لماذا جئت إذاً إلى هنا؟" بدت غامضة فيما لحق بها في أرجاء المنزل، وجلست أخيراً على الأريكة، فجلس قربها ونظر مباشرة إلى عينيها.

"جئت لأقول لك شخصياً إنني رجل حرّ. طوال ثلاثين عاماً، رفضت أخذي على محمل الجد لأنني كنت متزوجاً، وأنت أيضاً" - مجرد تفصيل له في مجرى الأمور، لكن أياً منهما لم يعد متزوجاً الآن. "لم أعد متزوجاً، أو لن أكون. تريد الزواج بذلك الغبي، لكنني لا أبالي. لم أحبها طوال أعوام. أنا مغرم بك منذ أن وقعت عيناي عليك، ماريا. لن أسمح لك بإبعادي بعد اليوم. أنا أحبك. أنت امرأة رائعة، وطاهية ممتازة. أنت المرأة الوحيدة التي التقيتها وأردت أن أكون مخلصاً لها. لن أغادر قبل أن توافقي على الزواج بي. هذا ما جئت أقوله لك هنا". بعد ذلك، قبّلها، وأذهلها تماماً، وقطع أنفاسها. لم تعرف لبرهة ماذا تقول، ثم ضحكت.

"تشارلز إدوار برونييه، أنت مجنون تماماً. أنت مهووس. لا أريد الزواج. أعشقك أيضاً. لكنني لا أريد الزواج مجدداً في عمري. سوف أصبح في الستين. والأشخاص في عمر الستين لا يتزوجون. سأكون على كل لسان، وأنت أيضاً". شعرت بخفقان قوي في قلبها عند سماع قوله، ولطالما أحبته كصديق، لكنها لم تسمح لنفسها يوماً بالانجذاب إليه. الآن، فجأة، أصبح كل شيء مختلفاً، وأزيلت كل العقبات.

قال بصرامة: "لا أبالي"، مع نظرة شرسة في عينيه. "العشق لا يعرف العمر. لا أبالي إذا أصبحت في عمر المئة. أنا في الخامسة والستين، وأنا مغرم بك منذ أن كنت في الثلاثين. ولن أنتظر ثلاثين سنة جديدة". بعد ذلك، قبّلها مجدداً، وما أذهلها أنها قبّلته بدورها، وشعرت بكل الأحاسيس التي تجاهلتها طوال أعوام. وكانت مغرمة جداً بزوجها حين كان على قيد الحياة.

نظرت إليه حينها بتعبير مذعور. "يا الله، ماذا سنفعل الآن؟".

قال بصرامة: "سوف تفعلين الشيء الصحيح بعد كل هذه السنوات، وتتزوجينني"، فضحكت مجدداً.

"لا، لن أفعل".

أصرّ قائلاً: "بلى، ستفعلين. لن أستكين قبل أن تفعلي".

"أنت مجنون. نحن عجوزان جداً لنتزوج".

"لسنا عجوزين. بالإضافة إلى ذلك، أريد إنجاب طفل منك". ضحكت أكثر على ذلك. "أو نؤلف الكتب معاً. أو نفعل أي شيء تريدينه. بالمناسبة، سأعطيها المنزل في راماتويل، والشقة في باريس. أظن أنه يجب أن تكون لنا شقتنا. لم أحب يوماً المنطقة. سأشتري لك شقة".

قالت ماريا بنبرة جدية: "انتظر دقيقة. فلنهدأ. هل أنت جدي بشأن كل هذا؟". بدت مذهولة تماماً. لا تعرف إذا كان يمزح أم لا.

"هل تظنين أني أنتظر على مصطبتك كل يوم منذ أسبوع من دون سبب؟ انتظرت هذه اللحظة كل حياتي، ماريا". أحبته أيضاً، كصديق. إنه واحد من أصدقائها المقربين، وأحبت العمل وتمضية الوقت معه، لكنها لم تسمح لنفسها أبداً بالتفكير فيه أكثر من ذلك. لقد أحبت زوجها كثيراً، وعاشا زواجاً رائعاً. لكن لا شك في أن تشارلز إدوار مجنون وأن صحبته ممتعة، وهما يتفقان بشكل رائع، ولطالما فعلا ذلك.

"أحتاج إلى الوقت للتفكير في هذا، إذا كنت جاداً. ولا أعرف إذا كنت أريد الزواج".

"لمَ لا؟ ولا تقولي لي إنك عجوز. هذا سبب لا أقبل به".

"لا أعرف إذا كنا نحتاج إلى الزواج. أنت فرنسي، والرجال الفرنسيون يقيمون علاقات غرامية. نستطيع إقامة علاقة خلال الثلاثين سنة المقبلة. ربما هذا كافٍ".

قال: "لست من هذا النوع من النساء"، زاعماً أنه مصدوم.

"لقد أصبحت هكذا ربما في هذه المرحلة من حياتي. لا أعرف". لم تفكر يوماً في التواجد مع رجل آخر، وها هي الآن تتحدث عن الزواج

والعلاقات الغرامية مع تشارلز إدوار. "هل يمكننا تجربة هذا لبعض الوقت، ونرى كيف تجري الأمور؟". ثم نظرت إليه بجدية. "لا أريد الزواج من رجل يخونني، وأعرف أنك فعلت ذلك طوال حياتك. لم تكن يوماً وفياً لأريان".

"أجبرني أهلي على الزواج بها. لم تحبني أيضاً. وأعدك علناً أني سأكون مخلصاً لك". بدا وكأنه يقصد ذلك فعلاً، لكنها لم تكن واثقة من قدرته على ذلك.

"أثبت لي هذا. إذا كنت مخلصاً لي ولا تخنّي، ربما سأتزوج بك"، ثم ضحكت. إنها تراوغ. إنها لحظة لذيذة في حياتها. إنها على مشارف الستين، وثمة رجل فرنسي مغرم بها، ويعرض عليها الزواج. بدأت تحب الفكرة. سألته باهتمام: "هل تتولى أنت الطهو إذا تزوجنا؟"، وفكر في الأمر. إنه سؤال محير.

"سنفعل ذلك مع بعضنا".

"من سيكون مساعد الطاهي؟ أنا أم أنت؟".

"أنت. أنت الفتاة".

قالت، وهي تبدو مسرورة: "أنت متحيز". إنها تمضي وقتاً رائعاً، تماماً مثله. شعرت فجأة أنها شابة جداً.

اصطحبها لتناول العشاء تلك الليلة، وتحدثا عن مشاريعهما، وعن خيار العيش في باريس أو نيويورك. قالا إنهما يفضلان باريس. رغبت ماريا في ذلك طوال حياتها. رأى أنه يجدر بهما العثور على شقة في الضفة اليسرى، إما في الدائرة السادسة أو السابعة.

وعندما عادا إلى منزلها، كانا غير متفقين بعد على مسألة الزواج. إلا أنها كانت جدية في رغبتها في معرفة ما إذا كان سيخلص لها. فهو لم يكن مخلصاً يوماً طوال حياته. أرادت الانتظار بضعة أشهر لترى بنفسها. تحدثت عن الانتقال إلى باريس معه، إذا أحسن التصرف، بحلول نهاية السنة. بعد ذلك، يقرران ما إذا كانا يريدان الزواج أم لا. وفي غضون ذلك، يستطيعان الاستمتاع ببعضهما. عرض عليها البقاء في نيويورك خلال الأشهر القليلة المقبلة، بحيث يعملان على إعداد الكتاب معاً.

رافقها إلى المنزل، وحصل كل شيء بصورة طبيعية بعد ذلك. وشعرت مجدّداً أنها أنثى بين ذراعيه.

الوقت الذي أمضاه كريس مع عائلته كان بالضبط ما يحتاج إليه إيان، وأفاد كريس كثيراً أيضاً، خصوصاً هذه السنة. عاد إيان ولداً مجدداً، ولعب مع أقاربه، وسبح كل يوم. تعلم التزلج على الماء، وتعرف إلى الكثير من الأصدقاء الجدد. كان عفوياً وحراً وطبيعياً بحيث نسي تقريباً أن أمه في السجن. اتصلت به مرة في الأسبوع. وخاف كريس كثيراً من الاتصالات. فقد أعادت إيان إلى الواقع وذكّرته بكل الألم الذي عاشه، وكل ذلك بسبب أمه. لا يزال كريس غاضباً منها بسبب ما فعلته بإيان. لكن في الفينيارد، شفيت جروحهما، بالرغم من أن محادثات كريس مع أهله حول والدة إيان كانت دوماً صعبة بالنسبة إليه. رأى أهله أنه يجب إبعاد إيان كلياً عن أمه، حتى لو عنى ذلك إرساله إلى مدرسة داخلية، الأمر الذي رفضه كريس رفضاً قاطعاً. إيان صغير جداً وأراد كريس أن يكون ابنه معه. لم يوافقه أهله الرأي.

قالت له أمه بصرامة بعد ظهر أحد الأيام بعد تناول الغداء، وبعدما ابتعد إيان عنهما: "أنت لا توفر له منزلاً ملائماً. لا أفهم لماذا، لكنك لا تفعل. أنت تعيش في منزل مليء بالأشخاص، مع مجموعة مختلفة الشخصيات والميول والعمر. كما لو أنك طالب. لديك ولد، كريس، وإذا لم تستطع توفير منزل ملائم له، يجدر بك إرساله بعيداً إلى مدرسة داخلية. أو يمكنك على الأقل العيش في شقة خاصة بك مع مربية للاهتمام به. وكلما أبعدته عن أمه، كان ذلك أفضل. ويراها لأقل وقت ممكن". لم يعارضها كريس في ذلك، لكنه رفض رفضاً قاطعاً كل الباقي، وإيان هو ابنه، وليس ابن والديه. يسهل عليهما الجلوس جانباً وانتقاده. ليسا من نوع الأجداد الذين يرغبون في التدخل في كل شيء، لكنهما شعرا أنهما يملكان الحق للتعليق على كيفية تربية كريس لإيان، ولم يوافقا على تلك التربية.

أجاب كريس بغضب: "أنا لا أعيش مع مجموعة من الأشخاص، ورفقائي في المسكن هم أشخاص رائعون وأذكياء، أضافوا بعداً جديداً إلى حياة إيان، أكثر مما تفعل أية مربية. انتقلت للعيش معهم قبل أن يأتي إيان للعيش معي، لأني لم أكن مستعداً لفتح شقة، لكني أدرك الآن ما قدمه أولئك الأشخاص إلى حياة إيان. ستكون خسارة حقيقية لنا نحن الاثنين إذا غادرنا المنزل".

قالت أمه بفظاظة: "الفكرة عصرية جداً بالنسبة إليّ. يحتاج الأولاد إلى أم وأب ومنزل ملائم. وفي حالة مثل حالتك، ومع أم مثل كمبرلي، لا شك في أن إيان سيكون أفضل إذا بقي معك وحدك، شرط أن تمنحه حياة عاقلة وطبيعية في منزل حقيقي، وليس بالعيش في غرفة في منزل شخص آخر. أنا آسفة، لكني لا أفهم تصرفك، كريس. فالسبب ليس عدم قدرتك على تحمل نفقات مسكنك الخاص. إنك كسول. وسيدفع إيان الثمن لاحقاً. ماذا يقول لأصدقائه في المدرسة؟ ماذا يقول عن أولئك الأشخاص؟ أنت كبير جداً للعيش مع رفقاء في المسكن، كريس، ولديك ولد".

أجاب كريس ببرودة: "أعرف ذلك، أمي". وجّه إليه والده تعليقات مماثلة مرات عدة. أشار إلى أن أسلوب عيش كريس غير مناسب لولد. إنهما شخصان محافظان جداً، واستئجار كريس لغرفة في منزل في الويست فيلاج، وجعل إيان يعيش معه هناك، هي فكرة سيئة جداً بالنسبة إليهما. قال والده إن هذا تصرف غير مسؤول، وتقول أمه الشيء نفسه تقريباً. يستحيل الشرح لهما لطافة فرانشيسكا وماريا وإيلين مع ابنه. يعيش إيان في عالم مميز جداً، مع أربعة راشدين يهتمون به، وحتى تشارلز إدوار، الطاهي الفرنسي، كان لطيفاً معه. إيان لا يعيش مع والده العازب، بل يعيش ضمن مجموعة، وشعر كريس نوعاً ما أنها أفضل ترياق ممكن للآلام التي سببتها له أمه. ما من أحد يستطيع إنكار أن كيم غير ملائمة البتة. لكن إيان يحبها، وهي أمه، ولذلك يملك الحق في الاتصال بها، طالما أن الأمر آمن بالنسبة إليه. يعرف كريس أن والديه أسفا لعدم موت كيم نتيجة الجرعة الزائدة، ورأيا أن إيان

سيكون أفضل حالاً إذا وضع كل هذا خلفه ومضى إلى الأمام. إلا أن حقيقة الحياة ليست بسيطة، ولا تزال كمبرلي على قيد الحياة.

كررت أمه: "أتمنى أن تعيد التفكير بشأن المدرسة الداخلية"، فيما قطّب كريس حاجبيه. يكره مثل هذه المحادثات مع والديه. فأفكارهما متصلبة وقديمة الطراز، ويهتمان أكثر لما هو تقليدي وليس لما هو ملائم فعلاً للولد. لقد ربياه بهذه الطريقة أيضاً، وكانت النتيجة استياء عميقاً لأسلوب عيشهما ولكل ما يمثله. يكنّ احتراماً كبيراً للتقاليد العائلية، ولفصول الصيف في الفينيارد حيث تجتمع كل الأجيال مع بعضها، ولهذا السبب يأتي إلى هنا كل سنة، لكنه لا يستطيع تحمل تشبثهما بالتقاليد البالية، أو الأفكار القديمة الطراز التي لا تتماشى مع الوضع المعقد الذي هو فيه. لن يرسل إيان أبداً إلى مدرسة داخلية. بهذه الطريقة على الأقل في الوقت الحاضر، يعيش إيان مع والده في منزل مليء بالأشخاص الذين يهتمون فعلاً به ويمضون الوقت معه. أما والدا كريس فلا يفعلان ذلك أبداً. إنهما يستمتعان بأحفادهما، ويحبان وجودهم معهما، شرط وجود أهلهم أو المربية معهم، لكن والديه بقيا على مسافة بعيدة منهم، وراقباهم من دون التواصل فعلاً معهم، أو التعرف فعلاً إليهم. لم يز أمه يوماً تضع ذراعيها حول حفيد، والسؤال الوحيد الذي يوجهه والده إلى أي منهم هو عن حال المدرسة، وأنواع الرياضة التي يمارسونها.

لم يحصل كريس نفسه على أكثر من ذلك منهما، ولهذا السبب سافر أخيراً إلى بوسطن ثم انتقل إلى نيويورك. لم يستطع التعايش بشكل يومي مع القيود الصارمة في عالمهما. يعرف أنهما يهتمان لأمره، ويحبانه، لكن الطرق التي يختارانها للتعبير عن ذلك وإثباتها لم تنجح أبداً معه. لقد أدرك قبل وقت طويل أنه تاق إلى التواصل العاطفي حين كان ولداً، ولا يريد حصول ذلك مع إيان، ولذلك لا يريد رميه في مدرسة داخلية وتركه هناك. مهما كانت الأخطاء التي يرتكبها، يبقى إيان على الأقل معه، ويستطيع منحه كل الحب والانتباه اللذين لم يحصل عليهما عندما كان طفلاً. كرامة العائلة ومكانتها

كانتا دوماً أكثر أهمية من سعادة الأولاد بالنسبة إلى والديه. ليس هذا بسبب حقارة أو حتى لامبالاة، وإنما هو ببساطة مبدأ لا يفهمانه ولن يفهماه أبداً. لقد ترعرعا وعاشا مع الكثير من القيود والضوابط والواجبات الاجتماعية بحيث لا يمكنهما تخطيها. لا يزالان يعيشان مثلما فعلت العائلة طوال أجيال عدة، تحت سقف الضوابط الخالية من المعنى بالنسبة إلى كريس الآن. كل ما أراده حين أصبح راشداً هو الهروب من كل ذلك، وهذا ما جعله دوماً متمرداً وغير منسجم مع مجموعتهم. لا يزال يأتي إلى المنزل لتمضية العطلات الصيفية والمناسبات، لكن نادراً ما يأتي لأي شيء آخر. وكان صعباً عليه المجيء إلى هنا هذا الصيف. شعرا بحرية التعليق على حياته وحياة إيان، علماً أنهما لا يستوعبان أو يفهمان أمور الحياة بمفاهيمها الحديثة. لذا فإن مشاكله المستمرة مع كمبرلي جعلته هدفاً سهلاً لريبتهما وخوفهما، وآرائهما، التي لا يتشاركها معهما.

ثمة أوقات فكر فيها كريس بفرانشيسكا، وشعر أنه يشتاق إلى المنزل. إذا حصل على حضانة إيان، رأى أنه يجدر به الحصول على شقة، لكنه خشي أن يشعرا بالوحدة هناك، خصوصاً وأن رفاق المسكن لطيفون جداً مع إيان. فمع ماريا وفرانشيسكا، حصل على مربيتين رائعتين، واستفاد من امرأتين تهتمان به وتتصرفان تقريباً مثل الخالتين. وكانت إيلين بمثابة صديقة حنونة لإيان. يمكن قول الكثير حول جميع الذين يعيشون في المنزل. اشتاق كريس إلى أحاديثه مع ماريا وفرانشيسكا خلال الصيف. لم يسمع أي خبر منهما، لكنه واثق بأنهما يمضيان أوقاتاً مريحة أيضاً، وأمل في أنهما تستمتعان. لم يكن مولعاً كثيراً بإيلين، بالرغم من لطافتها مع إيان. ذكّرته كثيراً بزوجته السابقة بإدمانها على السلوك المدمر للذات والرجال السيئين. وفي حالة كيم، كان إيان من دفع الثمن. وقبل ذلك، دفع كريس الثمن أيضاً.

نجح في تفادي مناقشات أخرى جدية مع والديه، والجزء الوحيد من الإجازة الذي لم يستمتع به كريس كان زيارة أهل كيم في نيوبورت. يكره سماعهم يندبون ما حصل لها، كما لو أن شخصاً آخر هو الذي فعل هذا

بها. وكان والدها يفعل كل ما بوسعه لإخراجها من السجن، لكنه لم ينجح لغاية الآن. وتحدثا عنها مع إيان كما لو أنها شهيدة. إنها الشيطان برأي كريس، خصوصاً حيال ابنهما.

أحس إيان تماماً أن كريس لا يحب جدّيه، وعرف أن والديه غير متفقين. عرف أيضاً أن أهل والده لا يحبان كمبرلي. استاء لأن الجميع ممتعضون من بعضهم البعض. تحدث كثيراً عن فرانشيسكا وماريا، وأحياناً عن إيلين، وعندما يسأله أحدهم عنهن يقول: إنهن صديقاته. أخبر كريس أنه يتحرق شوقاً لتناول فطائر ماريا التي على شكل ميكي ماوس حين يعود. وضحكا على تشارلز إدوار والخدع التي يقوم بها مع البيض. أحب إيان الجزء الذي يسقط فيه البيض على الأرض ويسبب الفوضى.

في النهاية، أمضيا صيفاً رائعاً. ازداد طول إيان إنشين كاملين، واسترخى كريس أخيراً. استمتع كريس برؤية أخيه وأخته، وأولادهما، بالرغم من أنه لم يعد قريباً جداً من أخويه. فقد تبين أنهما يشبهان والديه كثيراً ولا يزالان متقوقعين في القالب الذي ترعرعا فيه. إلا أنه فرح برؤيتهما وأحب إيان اللعب مع أقاربه في منزل العائلة. كانا سعيدين واكتسبا لوناً أسمر، وأمضى الأولاد الصغار الكثير من الوقت على مركب والدي كريس. إنه مركب شراعي جميل فيه أربع حجرات مع ظهر خشبي، على عكس المركب الذي كانا يملكانه حين كان كريس ولداً. أحب إيان ذلك المركب كثيراً. سوف يشتاقان إليه عندما يعودان إلى نيويورك. وعندما يعودان، سيبدأ كريس معركة الحضانة الدائمة. إنه مصمم على الفوز. لن يتخلى أبداً عن إيان مجدداً.

الوقت الذي أمضته فرانشيسكا في الإبحار في ماين كان جميلاً وعفوياً. كان أصدقاء تود رائعين معها، ولم يقولوا أي شيء أمامها عن تود وخطيبته، بالرغم من أنهما كانا معهم الأسبوع الذي سبق وأمضوا وقتاً جميلاً معهما. إلا أنهم أمضوا وقتاً جميلاً مع فرانشيسكا أيضاً. استرخت وفرحت وتوقفت عن القلق بشأن المعرض الفني. لمرة واحدة، لم تفكر في أي

شيء سوى الهواء والشراع، وموعد العشاء، وما إذا كانت تريد الكركند أو اللحم. إنه وقت للترفيه والراحة.

لم تتلقَ أي اتصال أثناء إجازتها، ولا أية رسالة هاتفية أو بريداً إلكترونياً. بقي جهاز البلاكبيري خاصتها صامتاً لثلاثة أسابيع. هذا هو بالضبط ما احتاجت إليه، لكنها قررت أن أمها محقة. عليها فعل شيء جديد السنة المقبلة. فثمة إحساس غريب قليلاً أن تمضي إجازتها مع أصدقاء تود، واللحاق بخطاه مثل الظل. فكرت في الذهاب إلى أوروبا السنة المقبلة، أو إلى مكان ما بمفردها. شعرت أنها مستعدة لذلك.

في نهاية الإجازة، شكرت فرانشيسكا مضيفيها كثيراً على حسن استقبالهم. سافرت من بانغور إلى بوسطن، وبدّلت الطائرة، ومن هناك سافرت إلى نيويورك. عندما هبطت الطائرة في لاغارديا، وجدت نفسها تفكر في إيان وكريس. لقد غابا لوقت طويل، واشتاقت إليهما. اشتاقت لرؤية وجه إيان الصغير المضحك والتحدث إلى كريس. تساءلت كيف هي حال والدة إيان في السجن.

بدت فرانشيسكا سعيدة ومسترخية فيما أوصلتها سيارة الأجرة إلى المدينة. كان شعرها أشقر أكثر من أي وقت مضى. شعرت كأنها سافرت لأشهر. وبدا المنزل حميماً ومألوفاً عندما رأته. وفيما أدخلت مفتاحها في القفل، تساءلت إذا كانت إيلين قد عثرت على وظيفة. أملت في ذلك، وفي أن تكون الأمور سارت على ما يرام معها، وأن تكون بقيت بعيدة عن براد. تتحرق شوقاً لمعرفة ما حصل. لم تسمع منها أي خبر خلال الأسابيع القليلة الماضية. تركت لها بضع رسائل، لكن إيلين لم تجب على اتصالاتها.

فيما دخلت فرانشيسكا، راودها فجأة إحساس غريب. بدا كل شيء في المنزل مرتباً، ولا تعرف لماذا، لكن فجأة أحسّت بقشعريرة على ذراعيها وببرودة كبيرة في جسمها. أحست بالغباء لشعورها هذا. ما من شيء خارج مكانه، لكنها أحست تقريباً أن شخصاً ما كان هنا. نادت اسم إيلين، ولكن من دون إجابة، ثم استدارت ورأت باب غرفة جلوسها مفتوحاً، ورأت أن هناك

كرسياً مرمياً على الحائط. تسمرت في مكانها. عرفت فوراً أن هناك خطباً ما. أنبأها حدسها بالهروب. أغلقت الباب الأمامي، وشعرت أنها حمقاء، فخرجت مسرعة ووقفت على الدرج الأمامي وتنشقت الكثير من الهواء. كانت ترتجف من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها، ولا تعرف لماذا.

فكرت في الاتصال بتود، لكنها شعرت بالغرابة لفعل ذلك الآن، وبما أنها لم تعرف ماذا تفعل، اتصلت بكريس على هاتفه الخلوي لتهدئة أعصابها وطلب نصيحته. نزلت الدرج وجلست على الدرجة الأولى. كان هناك الكثير من الضجة حوله حين أجاب. بالكاد استطاعت سماعه، وبدا كأنه في ملعب محاط بالأولاد، وهذه هي الحقيقة بالضبط. كان في منزل العائلة، مع أولاد أقاربه حوله. بدا سعيداً لسماع صوتها.

"مرحبا فرانشيسكا. كيف حالك؟" ابتسم لسماع صوتها.

أجابت، وصوتها يرتجف نوعاً ما: "رائعة". شعرت بالسخافة للاتصال به الآن. كل شيء على ما يرام ربما في المنزل. إلا أنها لم تستطع تبرير الكرسي المحطم في غرفة الجلوس، أو القشعريرة على ذراعيها. تساءلت إذا تعرض المنزل للسرقة. لكن لو حصل سطو، لماذا لم تتصل بها إيلين؟ لم تتطابق قطع الأحجية مع بعضها. "أمضيت عطلة رائعة. كيف هي عطلتك؟".

"رائعة. نزلنا إلى نيوبورت قبل بضعة أيام، وهذا آخر عطلة نهاية أسبوع لنا هنا. لن تعرفي إيان. أصبح طوله عشرة أقدام". ابتسمت لوصفه، وأخذت نفساً عميقاً لتهدئة أعصابها.

"أنا آسفة لإزعاجك، وأشعر فعلاً بالغباء لأنني أتصل بك. لكني عدت للتو إلى المنزل قبل خمس دقائق، وراودني إحساس غريب عندما دخلت. ويبدو هذا أكثر جنوناً، لكن باب غرفة جلوسي كان مفتوحاً، وبدا كأن شخصاً حطّم أحد الكراسي. ما من شيء آخر في غير محله. لكن الإحساس كان غريباً، فركضت مسرعة إلى الخارج. أنا أجلس على الدرج الأمامي، وأشعر أنني حمقاء، لكني أخاف الدخول إلى المنزل. ماذا لو كان أحدهم هناك؟

مثل متطفلين أو سارقين. ناديت اسم إيلين، لكنها ليست في المنزل". لم يتم تشغيل جهاز الإنذار. ولم تفكر فرانشيسكا حتى في الاتصال بها، وشعرت بالغباء لذلك الآن. بدا الأمر غريباً فعلاً لأنها تتصل به، كما لو أنها واقعة في ورطة كبيرة، أو جبانة جالسة على الدرج الأمامي لمنزلها. إلا أنها خائفة.

لم يتردد كريس لبرهة، وقطّب حاجبيه فيما أجابها. "ثقي في حدسك. وفي أية حال، لا تدخلي إلى المنزل. اتصلي بالشرطة. قد يكون هناك شخص ما في الداخل. يحصل الكثير من السرقات في الصيف، عندما يعرفون أن السكان بعيدون. فمن الأفضل الاتصال بالشرطة على الفور".

قالت، وهي تشعر بالغباء: "سيظنون أني حمقاء" لكنها تساءلت إذا كان محقاً.

"من الأفضل أن تكوني حمقاء، ولا تتعرضي للأذى أو تقتلين على يد سارق في منزلك. اتصلي برجال الشرطة. وعاودي الاتصال بي بعدما يأتون للتحقق".

"حسناً". أنهت الاتصال معه واتصلت بالشرطة. أخبرتهم أنها عادت للتو من إجازة، وتعتقد أن سرقة حصلت أو أن شخصاً ما موجود في منزلها. لم تستطع تبرير الكرسي المحطم، إلا إذا ثمل أحد أصدقاء إيلين من شبكة الإنترنت وجنّ جنونه.

قالت لها محدثتها من الشرطة إن الحلّ بسيط، وطلبت منها عدم الدخول مجدداً إلى المنزل، ووعدتها بالوصول خلال عشر دقائق. وصلت الشرطة فعلياً خلال خمس دقائق، وكانا رجلان في سيارة. وصفت لهما الإحساس الذي راودها وما الذي رأته، فطلبا منها الانتظار خارجاً. سألاها إذا كان شخص آخر يعيش في المنزل. وصفت بقية المستأجرين وقالت إن جميعهم لا يزالون في إجازة، باستثناء الفتاة التي بقيت في المدينة، وقالت إنها الآن في العمل أو نائمة في الأعلى ربما. وصفت هندسة المنزل ومن يعيش في كل طابق. قالت إن إيلين تعيش في الطابق العلوي، فيما الآخرون خارج المنزل الآن. دخل رجلا الشرطة، وكانا حذرين، ووضعا أيديهما على

سندسيهما. أنبأها ذلك أنهما أخذا الأمر على محمل الجد. فكرت في الاتصال بكريس أثناء الانتظار، لكنها لم تشأ إزعاجه مجدداً، ولن يعثرا على الأرجح على شيء أكثر من الكرسي المكسور. لا تريد أن تبدو متوترة، وبدأت تسترخي بعد برهة من دخولهما. يبدو جلياً أنه لا يوجد أي خطب، ولم يحصل أي شيء، ولا توجد أية طلقات نارية، ولم يخرج السارقون من المنزل. ابتعدت قليلاً عن الباب الأمامي، لكن مضت عشرون دقيقة كاملة قبل أن يخرج أحد الشرطيين. لقد فتشا المنزل جيداً. نزل الشرطي الدرج ببطء ونظر إلى فرانشيسكا بتعبير لم تستطع فهمه.

"هل كل شيء بخير؟" ابتسمت له فرانشيسكا، وشعرت أنها حمقاء مجدداً. لا يزال رفيقه في الداخل.

تحدث إليها بصوت هادئ: "كان حدسك محقاً. المستأجرة التي في الطابق العلوي ميتة". إيلين. يا الله. لا يمكن ذلك. معقول؟. شعرت فرانشيسكا أنها على وشك الإغماء. رافقها إلى الدرج وساعدها على الجلوس. بدت شاحبة جداً بحيث طلب منها وضع رأسها بين ساقيها. احتاجت فرانشيسكا إلى دقيقة لالتقاط أنفاسها.

قالت فرانشيسكا بصوت مختنق: "لا يمكن أن تكون ميتة. إنها في الثالثة والعشرين". كما لو أن هذا يجعل الموت مستحيلاً. كان تفكير فرانشيسكا مشوشاً. لا تستطيع التفكير.

"تم ضربها بشدة، وخنقها. لسنا واثقين، لكنها ربما تعرضت أيضاً للاغتصاب. إنها عارية في سريرها. ماتت منذ قرابة ثلاثة أيام. هل لديك فكرة عمن يمكن أن يفعل هذا؟ هل لديها صديق؟ أو زوج سابق؟ لا يبدو أن شخصاً غريباً فعل ذلك. فلا يوجد الكثير من البعثرة في المنزل. كرسيان فقط، لا أكثر".

حدقت إليه فرانشيسكا بعينين كبيرتين. "كانت تملك صديقاً مقرفاً جداً، لكن عندما رأيتها آخر مرة، قالت إنها لم تره منذ مدة. ضربها قبلاً مرتين. غادرت قبل ثلاثة أسابيع، ولا أظن أنها خرجت معه منذ شهر يونيو. لا

أعرف. كانت دوماً صادقة معي. لكنني أظن أنه هو على الأرجح... أو ربما شخص جديد تعرفت إليه عبر الإنترنت... فهي تفعل هذا كثيراً".

أخرج دفتراً، فيما طلب الشرطي الآخر دعماً إضافياً. وفيما كانا يتحدثان، وصلت ثلاث سيارات للشرطة وسيارة إسعاف.

سألها الشرطي: "هل تعرفين اسمه؟" وكان يدوّن الملاحظات، فيما هرع الآخرون إلى الداخل.

"براد. براد تورنر، حسبما أظن. كان رجلاً فظاً جداً".

"هل تعرفين أين يعمل؟".

"لا. لا أعرف. إنه ميكانيكي للدراجات النارية، هذا كل ما أعرفه. يملك الكثير من الأوشام".

"هل تذكرين شكل الوشوم؟".

أغلقت عينيها فيما أجابت، محاولة أن تتذكر شكلها. كانت ترتجف بشدة أكثر حينها، وشعرت أنها ستمرض. "نسر... وردة... أفعى كبيرة ممتدة على ذراع... نوع من الأشياء الصينية... لا أذكر البقية". فتحت عينيها مجدداً، وكل ما استطاعت التفكير به الآن هو إيلين، الميتة في غرفتها في الأعلى، والمقتولة ربما على يد براد. نظر إليها الشرطي باعتذار حينها.

"أنا آسف لطلب ذلك منك، لكننا نحتاج إلى شخص للتعرف على الجثة، للتأكد من أنها هي. هل تظنين أنه بوسعك فعل هذا؟" لم تجب فرانشيسكا ونظرت إليه بعينين مذعورتين.

"هل أنا مضطرة لذلك؟" لا تريد رؤية إيلين بهذه الطريقة. لم تر فرانشيسكا أي شخص ميت قبلاً.

"أنت الوحيدة المتوافرة لدينا. لا نريد منح الهوية الخاطئة للميت. كل ما نعرفه أن هناك امرأة غريبة في سريرها". أومأت فرانشيسكا فيما وصلت سيارة شرطة أخرى. أصبح منزلها مسرحاً للجريمة، وبات يعجّ برجال الشرطة. عاد الشرطي إلى الداخل لبرهة، وبيد مرتجفة على الهاتف، اتصلت بكريس.

رأى رقمها يظهر على هاتفه فأجاب فوراً. "مرحبا فرانشيسكا. ماذا قالوا؟ كل شيء على ما يرام؟". كان متفائلاً.

ساد صمت طويل جداً من قبلها قبل أن تتحدث. "إيلين ميتة. ضربها شخص ما وخنقها، وربما اغتصبها. لا بد أنها عاودت رؤية براد بعدما غادرت. أو شخصاً سيّئاً آخر".

بقي صامتاً لبرهة، لاستيعاب ما قالته. "أنا آسف جداً".

"كانت مجرد طفلة. يريدون مني التعرف على الجثة. لا أعرف إذا كنت أستطيع. قالوا إنها قد لا تكون هي. لكنها عارية في سريرها". كانت تتشبث ببصيص أمل. إلا أن كريس لم يشك لبرهة في أنها ليست إيلين، ولا هي أيضاً.

قال كريس: "هل تريدين أن آتي إليك على الفور؟ أستطيع العودة خلال ساعات قليلة".

"لا بأس. سيخاف إيان. متى تنويان العودة؟".

"خلال ثلاثة أيام. أستطيع اختصار الإجازة والعودة غداً. لا أظن أنه يجدر بك البقاء وحيدة".

"لن أبقى في المنزل. سأذهب إلى فندق". لا تستطيع البقاء في المنزل الآن.

"أنا آسف لأنك مضطرة للتعرف على الجثة. إذا كان بوسعهم الانتظار، سأفعل ذلك بنفسي حين أعود". لا يريد فعل ذلك أيضاً، لكنه مستعد لفعله من أجلها.

"يجدر بي هذا، حتى يتمكنوا من الاتصال بعائلتها. لن يبالي والدها. لكن لديها خمسة إخوة وأماً. وعليهم أن يعرفوا. تستحق هذا على الأقل. لقد أعطتني إيلين رقم والدتها ذات مرة، في حال حصول حادث. تضع فرانشيسكا الرقم في مكتبها.

خرج اثنان من رجال الشرطة، وطلبا منها الدخول بعد الاستفسار إذا كانت على ما يرام. لقد وضعوا إيلين على حمالة، وغطوها بشرشف أبيض

وبطانية، وأنزلوا الحمالة إلى الردهة الأمامية. سألوها إذا كانت مستعدة، فأومأت، وهي تمسك بيد الشرطي. وضع ذراعه خلفها في حال أغمي عليها. يعرفون كم أن هذا الأمر صعب على الجميع. سحب أحد رجال الشرطة الشرشف والبطانية، وعرفت فرانشيسكا فوراً أنها إيلين. تم ضرب وجهها حتى التهشيم تقريباً، لكن أمكن التعرف إليها. أومأت فرانشيسكا، ثم غطوها مجدداً وأخرجوا الحمالة. جلست فرانشيسكا على الأرض، ثم أخرجوها من المنزل، ووضعوها في إحدى سيارات الشرطة وأعطوها قنينة ماء يحتفظون بها لمثل هذه الظروف. عرفت أن الجيران سيظنون أنه تم اعتقالها، لكنها لا تبالي. كانت تبكي عندما اتصلت بكريس مجدداً.

"إنها هي. لقد دمر وجهها تقريباً".

"أنا آسف جداً. لماذا لا أترك إيان هنا مع أقاربه، وآتي إليك. لا أريدك أن تواجهي الأمر وحدك".

"شكراً" كان كل ما استطاعت التفوه به، وأنهت المكالمة. أخرجت رأسها من سيارة الشرطة حينها وتقيأت.

أوصلوا فرانشيسكا إلى مركز الشرطة، وطلبوا منها التوقيع على إفادتها. أنجزوا رسماً أولياً لبراد على الكمبيوتر، وفق وصفها، وأعدّوا نشرة بمواصفاته. ثم اتصلوا بوالدة إيلين وأخبروها، بعدما أطلعتهم فرانشيسكا على مكان الرقم في مكتبها. تم إقفال المنزل بعد ذلك. قالوا إن والدة إيلين أرادت أن يتم إحراق الجثة وإرسال الرماد إلى سان دييغو. لن تكون هناك جنازة أو مراسم دينية في نيويورك. لا تملك أصدقاء حقيقيين باستثناء رفقائها في المسكن والرجال الذين التقت بهم عبر الإنترنت. في النهاية، قتلها هوسها بالإنترنت. عرفت فرانشيسكا أنه إذا لم يكن براد، سيكون شخصاً آخر التقت به عبر الإنترنت. لقد خاطرت كثيراً. لا تستطيع فرانشيسكا التصديق، لكن الفتاة الصغيرة اللطيفة ذات النمش والشعر الأحمر المربوط في جديلة ماتت الآن. بدت بريئة وظريفة جداً يوم غادرت فرانشيسكا. كانت تلك آخر مرة رأتها عندما لوّحت لها عن الدرج الأمامي.

اصطحبت الشرطة فرانشيسكا إلى فندق غانزفورت. أخذت غرفة، وجلست هناك ترتجف. لا تريد العودة إلى المنزل. ومرّت ساعات طويلة قبل أن يتصل بها كريس. لم تعد تعرف الوقت. إنه في طريقه من المطار وأراد أن يعرف أين هي. أخبرته، ووصل إليها بعد دقائق قليلة. فتحت له الباب، وكادت ترتمي بين ذراعيه. وقف هناك وأمسك بها، ثم جلس معها على السرير فيما بكت.

"طفلة غبية" كان كل ما استطاع قوله. كان غاضباً وحزيناً في الوقت نفسه. ولو لم تكن إيلين، لكانت زوجته. لا تزال محظوظة حتى الآن، لكنها لن تكون هكذا ذات يوم. ففي أحد الأيام، ستنتهي مثل إيلين، وإنما مع إبرة في ذراعها، وسينفطر قلب إيان. إنه يكرههم على المخاطر التي يقومون بها، والأشخاص الذين يسببون الألم لهم، والقلوب التي يحطمونها، وكل الدموع التي تذرف من أجلهم. بكت فرانشيسكا حتى نامت بين ذراعيه تلك الليلة. استلقى على السرير قربها، وأمسكها مثلما أمسك بإيان مرات عدة. وفي الصباح، تلقت فرانشيسكا اتصالاً من الشرطة. ألقوا القبض على براد. أخذوا بصماته والبصمات من مسرح الجريمة. تطابقت البصمات. إنه هو. سيجرون اختبارات الدي. أن. أي، لكن قطع الأحجية انطبقت مع بعضها. الدليل حاسم لغاية الآن. براد قتل إيلين.

الفصل الرابع عشر

استيقظت فرانشيسكا وهي تشعر بالدوار والارتباك، غير واثقة من أن الذي حصل كان مجرد حلم. لقد نامت بملابسها على السرير قرب كريس في الغرفة التي استأجرتها في فندق غانزفورت. وعندما فتحت عينيها، استدارت للنظر إليه. لا يزال مستلقياً قربها، وكان مستيقظاً.

"هل كنت أحلم؟" هزّ رأسه. ليس هذا ممكناً. لا يمكن أن يحصل. ليس هذا عادلاً. إيلين ماتت. هوسها في الإنترنت قتلها. لكن المشكلة أكبر من ذلك. إنه حكم إيلين السيئ على الآخرين، وإدمانها على الرجال السيئين، واعتيادها على سوء المعاملة. كل ذلك أسهم في نهايتها الحزينة. يعرفون جميعاً الكثير من الأشخاص اللطفاء الذين التقوا ببعضهم عبر شبكة الإنترنت، ووقعوا في غرام بعضهم، وتزوجوا. لكن مع الأشخاص الجيدين، يوجد أشخاص سيئون، وبراد كان واحداً منهم. وأصبحت إيلين مدمنة جداً عليه وعلى سوء المعاملة بحيث عجزت عن إنقاذ نفسها. لقد عادت إليه لمرة أخيرة. مرة أخيرة، مرات عدة.

تحقق كريس من الأمر، ولا يزال براد موقوفاً بتهمة القتل. أرادا من فرانشيسكا وكريس التعرف إليه بين مجموعة من الموقوفين، على أن يتم توجيه التهمة رسمياً له في اليوم التالي. لقد بدأوا فحوصات الدي. أن. أيه. من جلده، لمطابقة الآثار التي تم العثور عليها تحت أظافر إيلين. سيحصلون على نتائج جزئية خلال ثلاثة أيام. جثتها في المشرحة، وسيتم حرقها بعد تشريحها، ولكن ليس قبل أيام عدة. لم تكف فرانشيسكا عن التساؤل ما إذا كان كل هذا مهماً. مهما فعلوا، فهي ميتة. إنها خسارة كبيرة.

بقيت تفكر فيها وهي تصنع الدمى من الأوراق الملونة مع إيان، وفيما تذكرت فرانشيسكا مشهد اليوم الفائت، وكيف تعرفت إلى جثتها، نهضت وذهبت إلى الحمام وتقيأت مجدداً. كانت راكعة على أرض الحمام، فيما فرك كريس ظهرها، وأمسك شعرها، ثم أعطاها منشفة رطبة.

قالت: "أنا آسفة" وهي تمسح وجهها بالمنشفة.

هزّ رأسه. "أنا آسف عليها. فالعلاقات الاستغلالية هي شيء مريع. الاستغلال النفسي سيئ بقدر الإدمان. بحيث يستطيع المدمنون تحويله، وإقناع الذي يستغلهم بأنهم أشخاص لطفاء ولا يستحقون ذلك. يتحملون اللوم دوماً. وفي بعض الأحيان، يتعرضون للقتل. لم تكن قوية كفاية، أو سليمة كفاية برأيي، لعدم رؤيته مجدداً". عرفا أن مثل هذه الأمور تحصل غالباً. عادت فرانشيسكا إلى السرير واستلقت. ففكرة النهوض مرهقة بالنسبة إليها. أرادت الاستلقاء هناك إلى الأبد، فيما جلس كريس قربها على السرير يداعب شعرها.

عاد ماريا وتشارلز إدوار للتو من نزهة في حديقتها، وكانا يحضران الفطور عندما اتصل كريس بماريا. كان الهاتف على مكتبها، ولم تستعجل للإجابة عليه. لا تتوقع أية اتصالات مهمة، وأرادت الاستمتاع بتشارلز إدوار، ولا تزال في جوّ الإجازة. لم تتعرف إلى رقم المتصل عندما رفعت هاتفها، لكنها أجابت على أية حال، وتفاجأت لسماع صوت كريس.

قال بصوت خشن ورزين: "مرحبا ماريا". لم ينم كثيراً، وراقب فرانشيسكا معظم الليل. استيقظت مرات عدة وهي تبكي. كان متعباً وحزيناً.

قالت ماريا بسعادة: "يا لها من مفاجأة جميلة. كيف هو إيان؟ أين أنتما؟ لا أزال في فيرمونت". لم تتحدث إليه منذ غادروا جميعاً نيويورك لتمضية العطلة الصيفية.

أجاب كريس بهدوء، فيما أصغت فرانشيسكا: "أنا في نيويورك مع فرانشيسكا. إيان في الفينيارد. سأعود إليه خلال يومين".

"هل من مشكلة؟ هل فرانشيسكا بخير؟" بدا غريباً لماريا أن يكون معها، أو يقول الأمر بهذه الطريقة، وبدا منزعجاً.

"عادت البارحة، وأنا آسف للاتصال بك، لكن شيئاً مريعاً حصل في المنزل. قتلت إيلين قبل بضعة أيام".

"كم هذا مريع". تلألأت الدموع فوراً في عيني ماريا، وهي تتخيل الأمر. كانت فتاة لطيفة، وسخيفة، وبريئة. راقبها تشارلز إدوار وشعر بالقلق فوراً، مع سؤال في عينيه. "هل وجدتها فرانشيسكا؟". أملت ألا يكون حصل ذلك. لا تتخيل مشهداً مأساوياً أكثر من هذا.

"أحست أن هناك خطباً ما عندما دخلت. اتصلت بي، وطلبت منها الانتظار خارجاً والاتصال بالشرطة. وجدوها. كانت مقتولة في غرفتها. خنقها وضربها. تم احتجازه الآن. علينا التعرف عليه اليوم". لم يخبرها أن فرانشيسكا تعرفت على الجثة في اليوم السابق. كانت فرانشيسكا مستلقية على السرير، تصغي إلى الحديث، مع عينين مغمضتين، وشحوب كبير، وكان يمسك بيدها. كانا صديقين حزينين جداً، وفرح بوجوده هنا معها.

"هل تريدني أن آتي؟ يمكننا الوصول بعد ساعات قليلة؟". لاحظ أنها تتكلم بالجمع لكنه ظن أنها مرتبكة، مع كل العواطف القوية للأخبار المريعة المتعلقة بإيلين.

"لا يمكنك فعل الكثير. نحن بخير". قال هذا، لكنهما لا يشعران هكذا فعلاً.

"هل أنتما في المنزل؟" مجرد التفكير في ذلك يولّد الصدمة، ولم تعرف ماذا سيفعلان.

قال بهدوء: "نحن في الغانزفورت". أعطتهما الشرطة اسم شركة خدمات متخصصة في تنظيف مسارح الجريمة. بعد حصول الشرطة على كل الأدلة التي تحتاج إليها، والتقاط الصور الفوتوغرافية، تستطيع شركة التنظيف المجيء وإزالة كل آثار الجريمة. يحتاج الأمر إلى بضعة أيام. وعند الضرورة، يمكن إعادة طلاء الغرفة. يحصل هذا بتواتر أكبر عند وجود

طلقات نارية. بدت له مهمة كئيبة. "يفترض أن يكون كل شيء على ما يرام حين تعودين". لكن سواء أكان كل شيء على ما يرام أم لا، لن تكون إيلين موجودة البتة. لقد قررت فرانشيسكا هذا الصباح أنها لا تريد أي شخص آخر في تلك الغرفة. ولا تريد رؤية الغرفة مجدداً، لأن هذا سيجعلها حزينة جداً. لقد أحبت إيلين فعلاً، بالرغم من حماقتها مع الرجال، ووضعتها تحت جناحها وآوتها في منزلها. وها قد ماتت الآن.

قالت ماريا مجدداً: "أنا آسفة جداً. لا أريد إزعاج فرانشيسكا، لكن إذا كان بوسعي فعل أي شيء، اتصل بي. سأركب في السيارة وأكون هناك خلال ساعات قليلة إذا كان هذا مفيداً. سأحاول العودة خلال أيام قليلة. هل اتصل أحد بأهلها؟".

"الشرطة. سيحرقون الجثة بعد تشريحها، لإرسال الرماد إلى أهلها. لن تكون هناك جنازة في نيويورك".

قالت ماريا بغموض: "ربما نستطيع إقامة احتفال ديني صغير بأنفسنا"، وكانت مصدومة جداً للتفكير في أي شيء في الوقت الحاضر. ذكّرته بإيصال حبها إلى فرانشيسكا، وأنهيا المكالمة.

سألها تشارلز إدوار بنظرة قلق عندما أنهت المكالمة: "ماذا حصل؟".

"إيلين، الفتاة الصغيرة في الطابق العلوي التي التقيت بها، قتلت في المنزل. تم ضربها وخنقها".

"من قبل سارق؟".

"يعتقدون أنه الرجل الذي تخرج معه. تم احتجازه واتهامه بالقتل. لقد ضربها بشكل مبرّح مرتين قبلاً". بدت ماريا مريضة. جلست على الأريكة مع تعبير شارد، وجلس تشارلز إدوار قربها ووضع ذراعه حولها وأمسك بها. إنها بداية حزينة لأول يوم في حياتهما الجديدة. بدايات ونهايات، ولادة علاقة وموت امرأة شابة. مرارة حلاوة الحياة. وهذه المرة مرارة كبيرة. نظرت ماريا إليه وارتمت بين ذراعيه وبكت.

تأخرت كثيراً عملية التعرف إلى المجرم في مركز الشرطة في الدائرة السادسة في شارع ويست تنث، وكانوا مجموعة منوعة من الرجال عندما بدأوا بالاصطفاف. هناك رجلان طويلان، ورجل قصير، وثلاثة رجال متوسطو الطول. كشفوا جميعهم عن أوشام. أحدهم له شعر طويل. ثلاثة منهم محتجزون بتهم متنوعة، وواحد منهم شرطي متخفٍّ، وواحد تم إطلاق سراحه بشكل احتياطي، وواحد هو براد. تعرفا إليه فوراً فيما وقف بشكل جانبي ومن ثم بشكل مباشر أمامهما. الرجال المصطفون هناك تناوبوا في أمكنتهم، على الجهة الأخرى من مرآة ثنائية الوجه، وأكّد كريس وفرانشيسكا التعرف إلى براد من دون أي شك. إنه هو. بعدها، تم إخراج الرجال. انتهى الأمر. سيتم توجيه التهمة إليه في اليوم التالي. بعد ذلك، بات بوسع كريس وفرانشيسكا المغادرة.

عادا مشياً إلى الفندق وكانا بحاجة إلى بعض الهواء. اتصل إيان بكريس فيما كانا يمشيان، وقال له والده إن كل شيء بخير، وإن فرانشيسكا ترسل له تحياتها. أخبره أنه ذاهب إلى نيويورك لإنجاز بعض الأعمال، ومساعدة فرانشيسكا في المنزل. لا يريده أن يقلق ويظن أن شيئاً ما حصل لأمه في السجن. فهو قلق دوماً عليها، ولسبب وجيه. إلا أنها متهمة الآن بقتل رجل. وشك كريس في أن يخرجها والدها من هذه التهمة. لم يتمكن أحد من إيقاف إيلين أو ردعها أو إنقاذها. فالنساء اللواتي يملن إلى تدمير أنفسهن يفعلن ذلك عادة، ويعرف كريس هذا الأمر جيداً.

أخبرتهما الشرطة أنه يفترض تنظيف المنزل بحلول منتصف الأسبوع. ينويان البقاء في الفندق حتى ذلك الحين. استأجر كريس غرفة له قبل أن يغادرا إلى مركز الشرطة. ولا يبالي إذا استعملها أم لا، لكنه يملك الخيار بهذه الطريقة، ولا يبالي أيضاً إذا جلس على كرسي في غرفة فرانشيسكا كل ليلة. لهذا السبب جاء من الفينيارد، ليفعل كل ما بوسعه من أجلها. لمحا المنزل بعيداً في طريق عودتهما، ولم تكن فرانشيسكا واثقة من أنها تريد رؤيته مجدداً. تساءلت إذا كانت هذه الكارثة ستطاردهم إلى الأبد، أو إذا كانوا يستطيعون العيش الآن بسلام هناك. لم تكن واثقة.

لم تأكل أي شيء منذ اليوم السابق، وأقنعها كريس أخيراً بالذهاب إلى دا سيلفانو لتناول بعض المعكرونة. أعطوهما طاولة خارجية في المطعم الشعبي المزدحم عادة، ولم تستطع لمس طعامها. كل ما استطاعت التفكير به هو إيلين. عادا بعدها مشياً إلى الفندق، ودخلا إلى غرفة فرانشيسكا، وشغل كريس التلفزيون. ثمة مباراة للبايسبول، وفيما شاهدها من كرسي موضوع قرب السرير ، خلدت إلى النوم. تحركت بضع مرات، وعانت من الكوابيس مرة أو مرتين، ونهضت للذهاب إلى الحمام، وما عدا ذلك، نامت حتى الصباح. نام على الكرسي، بكامل ملابسه، وجهاز التلفزيون لا يزال يعمل. لكنهما شعرا بتحسن في اليوم التالي.

طلبا خدمة الغرف، واتصلت ماريا للاطمئنان على حالهما. تحدثت إلى فرانشيسكا هذه المرة، وبكتا على إيلين. جعل ذلك فرانشيسكا تشتاق إلى ماريا أكثر من أي وقت مضى، لم تقل أي شيء عن التطورات مع تشارلز إدوار، لأن أخبارهما الجيدة غير ملائمة الآن مع حزنهما المشترك.

اقترح عليها كريس أثناء تناول الفطور: "هل تريدين العودة معي إلى الفينيارد لبضعة أيام؟"، لكن فرانشيسكا لا تريد ذلك.

قالت، وهي لا تزال تبدو تائهة: "لا أعرف ما الذي أريد فعله. لا أريد رؤية الناس. عليّ فتح المعرض الفني والعودة إلى العمل". شعرت بالامتنان له. تستطيع أيضاً المكوث في منزل والدها في كونيكتيكوت، إذا احتاجت إلى الابتعاد. لقد عاد للتو مع أفيري من أسبن.

اتصلت بأفيري بعد ظهر ذلك اليوم، وأخبرتها بما حصل. أصيبت بالذعر.

قالت أفيري بهدوء: "قد لا يكون الرفقاء في المسكن فكرة جيدة في النهاية". شعرت بالأسف على فرانشيسكا وتساءلت ما إذا كان المنزل سيعتبر مشؤوماً إلى الأبد بالنسبة إليها. كانت فرانشيسكا تفكر في الشيء نفسه. عليها أن تحدد شعورها عندما تعود إليه. "ماذا ستفعلين الآن؟ هل ستبيعين المنزل؟". بدا ذلك قراراً متطرفاً، لكن العيش في منزل قتلت فيه امرأة شابة لن

يكون أمراً سهلاً، لأي منهم. وتملك فرانشيسكا الآن الكثير من الذكريات الحزينة في هذا المنزل. اقترحت عليها أفيري عدم الكفاح أكثر للاحتفاظ به. سألت ما إذا كانت فرانشيسكا قد اتصلت بأمها.

أجابت بتنهيدة: "ليس بعد. ولست واثقة من أني سأفعل ذلك. لا حاجة لأن تعرف. سوف تلومني على ذلك، وتخبرني أنها كانت محقة عندما قالت إنها فكرة سيئة الاحتفاظ بالمنزل والحصول على رفقاء في المسكن، وتضغط عليّ لبيعه. أحتاج إلى تقرير ذلك بنفسي، إذا كان هذا ما أريده. لكني لا أعرف بعد".

"ستفعلين، في الوقت المناسب. لا يزال الوقت باكراً جداً، إلا إذا كنت واثقة من أنك تريدين بيعه".

"لا، لست واثقة. ما زلت أحب المنزل. لكني أكره ما حصل فيه. ما زلت أتساءل إذا كان بوسعي فعل أي شيء آخر ، أو إذا كان يجدر بي أن أكون أكثر صرامة معها. لكني رفيقتها في المسكن، أو صاحبة المنزل، ولست أمها. لم أستطع منعها من رؤيته. كل ما استطعت فعله هو الطلب منها ألا تحضره إلى المنزل، لكنها فعلت ذلك في أية حال عندما غادرت. وتوسلتها دوماً لتحصل على المساعدة، والتوقف عن التعرف إلى الرجال عبر الإنترنت. أظن أنها كانت أكثر تعقيداً مما بدت، مع تاريخ سيئ من سوء المعاملة من أيام الطفولة. كانت تنجذب ربما إلى مثل أولئك الأشخاص، وكانت ستعثر على براد في أي مكان. لا تحتاج إلى الإنترنت لفعل ذلك. نملك جميعاً أسرارنا ومشاكلنا وقصصنا. ما زلت أحاول نسيان تود، وتحاول ماريا التغلب على موت زوجها، ويواجه كريس إدمان زوجته السابقة على الهيروبيين مع محاولة إبقاء ابنه بأمان. نملك جميعاً صراعاتنا، وأظن أن الأشياء ليست دوماً مثلما تبدو. لم تكن هكذا مع إيلين.. وانظري ما حصل معها". كانت فرانشيسكا تبكي مجدداً فيما قالت ذلك، لأنها أحبتها فعلاً. ولم يتم قبلاً قتل أحد من الذين تعرفهم. بدت طريقة مريعة للموت، أن تخنق وتضرب في سريرها. لكنه أعطاها الكثير من الإنذارات بأنه رجل خطير،

وبقيت تدور حوله، بدل الهروب بأسرع ما يمكن في الاتجاه المعاكس، وهذا ما كان أمراً سليماً ومنطقياً. لكن إيلين لم تكن منطقية، وكانت مدمنة على براد وسوء معاملته، ودفعت الثمن في النهاية. ذكّرتها أفيري بأن الإحصاءات المتعلقة بالرجال المسيئين والنساء المعرضات لسوء المعاملة مرعبة. فخمسة وسبعون في المئة من الرجال الذين يهددون بقتل النساء يفعلون ذلك حقاً. الآن، أصبحت إيلين مجرد رقم في الإحصاءات بدل الشابة اللطيفة ذات النمش على وجهها. ألعابها الغرامية مع الغرباء، وافتقادها إلى الحكم الصائب بشأنهم، أفضيا إلى موتها.

عاد كريس إلى الفينيارد في اليوم التالي لإحضار إيان ووعدها بالعودة بأسرع ما يمكن. أصرّت فرانشيسكا أنها بخير. فتحت المعرض، واحتفظت بغرفتها في فندق غانزفورت. لا تزال حقائبها في الردهة الأمامية للمنزل، فأحضرتها إلى الفندق. وأخبرت ماريا أنه لا داعي لأن تستعجل العودة أيضاً. ليس بوسعهما فعل أي شيء. تم تنظيف غرفة إيلين وترتيبها وطلاؤها، وأزيلت المفروشات منها. جرى توضيب أغراضها في صناديق وإرسالها إلى سان دييغو بعدما فتشتها الشرطة وأخذت منها كل ما تحتاج إليه بمثابة أدلّة. بعد ذلك، تنوي فرانشيسكا إغلاق الغرفة وإقفالها. لا تريد أن يدخل أي كان إلى هناك. سوف تحذف الطابق العلوي من المنزل في الوقت الراهن. لا تتخيل أياً كان يرغب في العيش هناك، حين يعلم أن أحداً قتل في تلك الغرفة. ويعني ذلك أنها ستدفع نصف قسط الرهن، بدل الربع حين كانوا هم الأربعة هناك. هذا ما كانت تدفعه حين عاشت مع تود. لكنها لا تتخيل الآن وسيلة لفعل ذلك. لا تريد مستأجراً آخر مكان إيلين، وإنما فقط كريس وماريا، وطبعاً إيان. إنهما راشدان، ويحكمان على الأمور بطريقة صائبة، ويعيشان حياة طبيعية، ولا يعرّضان الآخرين للخطر، ولا حتى نفسيهما. لا تستطيع تحمل صدمة شخص مثل إيلين مجدداً، مهما أحبتها. ولا يمكنك أبداً معرفة ما يفعله الأشخاص سراً. لا هي، ولا ماريا، ولا كريس يملكون علاقات

غرامية أو شركاء. إنهم ثلاثة راشدون مستقلون، مع ولد صغير، يحبونه جميعاً. كانت إيلين غير ناضجة البتة، وغير جديرة بتحمّل المسؤولية، ولامت فرانشيسكا نفسها على عدم فهم ذلك قبلاً، قبل أن تحصل مثل هذه المصيبة. لو كان ترتيب العيش مختلفاً، لما قتلت. لقد غابوا جميعاً طوال فصل الصيف، وكانت فريسة سهلة بالنسبة إلى براد.

أبلغتها الشرطة أنه تم توجيه التهمة إلى براد وستتم إحالته إلى المحاكمة. لم يعترف بعد بالذنب، بناء على نصيحة المحامي الذي يمثله. يريد الذهاب إلى المحكمة، رغم أنه قد يعترف بالتهمة الموجهة إليه في النهاية. لكن لا يسعه فعل الكثير مع جريمة منفذة بدم بارد. قالوا إن الأمر سيستغرق سنة تقريباً للوصول إلى المحاكمة، وسيبقى في السجن، من دون كفالة، حتى ذلك الحين. ذكّرها ذلك بزوجة كريس السابقة، التي لا تزال في السجن، في انتظار محاكمتها أيضاً. يحاولون إجراء صفقة لها، لكن المدعي العام لن يسمح لها بالخروج بكفالة. إنها مسؤولة عن موت المدمن الذي كانت تتعاطى المخدرات معه، والذي كانت توفر له المخدرات. إنه مشهد مقرف. والمسكين إيان شاهده وهو يموت، وكذلك أمه التي أوشكت على الموت. وقد أخبر كريس أنه رآهما وهما يتعاطيان المخدرات، مثلما فعل مرات عدة من قبل. ينوي كريس استعمال كل ذلك بمثابة دليل في دعوى الحضانة. لا يريد أن يعيش ابنه مع امرأة تتعاطى المخدرات أمامه، حتى لو كانت أمه، ويكون محاطاً بأشخاص مقرفين، مثل تجار المخدرات أو مدمنين آخرين. وسوف يطلب زيارات خاضعة للإشراف حين تخرج من السجن. لا يريد أن يكون إيان وحده معها أبداً مجدداً. فهو لا يأمل في أن تشفى يوماً من إدمانها. لم تشفَ قبلاً، بالرغم من كل مراكز إعادة التأهيل المهمة التي ذهبت إليها طوال أعوام. أراد أهلها أن تقلع عن إدمانها، وكذلك هو، لكنها لم تنجح أبداً. إنها مدمنة جداً لا تبالي بالتخلي عن إدمانها. كل ما أرادته هو مخدراتها، بأي ثمن. تماماً مثلما أرادت إيلين براد. كان إدمانها باختيارها، وقاتلاً بقدر ما كان الهيرويين لصديق والدة إيان. والآن، ماتا.

اتصل كريس بفرانشيسكا مرات عدة من الفينيارد، وكان قلقاً على بقائها وحيدة. لقد عادت إلى المنزل. بدت محبطة، لكنها طمأنته أنها بخير. لم تعترف له بأنها ستكون سعيدة عندما يعود هو وماريا إلى نيويورك، وأنه من المزعج وجودها هنا بمفردها.

لم تكن ماريا مستعجلة للعودة إلى المنزل أيضاً، ورأت أن الجو فيه بات حزيناً جداً. لم تشارك فرانشيسكا أخبارها الجيدة بعد، وشعرت أن الوقت غير ملائم لذلك. لكنها كانت مع تشارلز إدوار سعيدة في فيرمونت، يستكشفان جوانب جديدة من علاقتهما، لم يتطرقا إليها من قبل. لم تعد هناك أية قيود عليهما الآن، لأنه في صدد الطلاق. تحدث إلى محاميه مرتين من فيرمونت، وكان كل شيء على المسار الصحيح. أرادت زوجته إنهاء الطلاق بسرعة، كي تتزوج من مساعد الطاهي. أرادت نصف ما يملكه تشارلز إدوار، وبعد ثلاثين عاماً من الحياة المشتركة، رأى أن هذا عادل. أخبر ماريا أنه يملك ما يكفي لمشاركته في النصف مع آيان والاستمرار في عيش حياة مريحة. كانا راضيين عن ذلك، ولا تريد أي شيء منه. فقط حياة كريمة، واستهلاها بانطلاقة رائعة. لم تتوقع أبداً أن تنتهي معه، أو مع أي كان، بعد جون. هذه كلها مفاجأة كبيرة، وتعديل مهم، لكنهما تحليا بروح رياضية حيال الموضوع وكانا مرنين ومتقبلين لعيوب الآخر. إنهما شخصان طيبا القلب استمتعا بالحياة، وأحبا بعضهما، الآن وعندما كانا صديقين. ما زال مصراً على الزواج بها، ويلح عليها للقبول بذلك. ولا تزال مصرّة على أن يثبت إخلاصه لها، وبأنه قادر فعلاً على ذلك. بعد زواج رائع من جون طوال ستة وثلاثين عاماً، لن تتزوج الآن من زير نساء، أو حتى تعيش معه. وكان تشارلز إدوار زير نساء طوال حياته، علماً أنه لا ينفي ذلك. يعترف بذلك بطريقة حضارية وبأنه لم يحب يوماً زوجته. لا تبالي ماريا. فهي لا تريد أن تكون جزءاً من رجل له علاقات غرامية متعددة. أقسم أنه لن يفعل ذلك.

أمضيا وقتاً رائعاً في فيرمونت، وتجولا في السيارة، وأخذا الغندول صعوداً إلى الجبل في ستوي. عادت معه إلى نيو هامبشاير. تناولا الكركند،

ووجبات بسيطة في مطاعم محلية صغيرة. ذهبا إلى أسواق المزارعين، وحضّرا الطعام في المنزل، وتناوبا على تحضير الأطباق، وتعاونا في تحضير بعضها. جربا وصفات جديدة لكتابيهما، وزرعا الخضار في حديقتها، واختارا الأزهار، وقاما بنزهات طويلة، وسبحا في بحيرة مجاورة، وذهبا لصيد الأسماك وطهيا ما اصطاداه، وجذفا في مجاري المياه مما أذهل ماريا. لم تظن يوماً أن الحيوية والحب ممكن في عمرهما. كان تشارلز إدوار رجلاً جذاباً جداً، مع حماس رجل أصغر سناً، والقدرة على تنفيذ ذلك الحماس. كانت ماريا تتفتح مثل الزهرة بفعل الانتباه والحب الذي يتشاركانه. المساحة السوداء الوحيدة في وقتهما معاً كانت خبر موت إيلين. حزنت ماريا كثيراً لذلك. بكت فيما أضاءت شمعة عن روحها. سوف تشتاق إليها. تساءلت ما إذا كانت فرانشيسكا ستأخذ مستأجراً جديداً مكانها.

عندما عاد تشارلز إدوار وماريا من فيرمونت في نهاية عطلة نهاية أسبوع يوم العمال، بدت سليمة وسمراء وسعيدة، فيما رقصت عينا تشارلز إدوار الزرقاوان في وجهه الأسمر، ما جعل شعره يبدو أكثر بياضاً. كان يرتدي قميصاً أزرق، وسروال جينز، وحذاء رياضياً، ويضع كنزة حمراء على كتفيه عندما خرجا من سيارتها أمام المنزل في 44 شارع تشارلز، وأنزلا حقائبهما وأكياس التسوق المليئة بالخضار والفاكهة الطازجة التي أحضراها من حديقتها ومن سوق المزارعين في فيرمونت. تنهدت ماريا فيما نظرت إلى المنزل، وهي تفكر كم سيكون الأمر مختلفاً من دون إيلين. لقد أعطتهم جميعاً نفحة شبابية.

كان كريس وإيان قد عادا إلى المنزل عندما صعدا الدرج مع أغراضهما. تفاجآ لرؤية تشارلز إدوار، وبدا جلياً أنه كان في فيرمونت مع ماريا. لم يدرك كريس أن هذه هي الخطة، وكانا سعيدين مع بعضهما أكثر من أي وقت مضى. لا يزال كريس آسفاً عليها لأنه متزوج. يبدوان ثنائياً مثالياً.

قال كريس: "أهلاً بكما في المنزل" فيما نزل السلالم عندما سمعهما يدخلان. وخرج إيان بسرعة من المطبخ مع شاربين من الحليب وقطعة

بسكويت. ابتسم ابتسامة عريضة لماريا، ورمى نفسه بين ذراعي تشارلز إدوار المفتوحتين.

صرخ بحماس: "هناك بيضة في أذني!" لكن تشارلز إدوار أخرج بدل ذلك قطعة نقود معدنية وأعطاها له.

قال: "لقد بعت بيضك مقابل المال"، وقبّل الصبي على وجنتيه، ثم عانق كريس. أصبح معتاداً الآن على التحيات الفرنسية العاطفية لتشارلز إدوار. ساعده إيان في حمل أكياس الطعام إلى المطبخ، فيما همس كريس لماريا أنه لم يخبر إيان عن إيلين. قال له إنها انتقلت إلى كاليفورنيا لتكون مع عائلتها، وهذا صحيح. لم يشرح له أنها ذاهبة في قمقم، على شكل رماد. ففكرة تعرضها للقتل في المنزل ستخيف إيان، وقد عانى ما يكفي من الصدمات مع أمه. وافقته ماريا الرأي، وقالت إنها ستنبه تشارلز إدوار لعدم قول أي شيء أمامه عن الجريمة أو حتى عن موتها. إنها حادثة حزينة لهم جميعاً. عانقت كريس، وتبادلا نظرة حنونة متفهمة.

سألها: "كيف كان صيفك؟ صيفنا كان رائعاً في الفينيارد". بدا فعلاً هكذا، وكذلك إيان. كانا بصحة سليمة مع اسمرار جذاب، تماماً مثلها. باستثناء مأساة إيلين، أمضوا جميعاً عطلات رائعة.

قالت ماريا، بفرح كبير: "قضينا وقتاً رائعاً في فيرمونت. وأوروبا مذهلة دوماً. لقد عدت منذ شهر تقريباً. أشعر كأن دهوراً كاملة مرّت". عاد كريس وإيان من الفينيارد الأسبوع السابق. ولا يوجد أي دليل على بعثرة في المنزل. تم إغلاق غرف إيلين في الأعلى وإقفالها. واشترت فرانشيسكا أخيراً أثاثاً لغرفة الجلوس بدل المفروشات التي أخذها تود قبل ثمانية أشهر. أصبحت غرفة مريحة جداً الآن، وقررت عدم بيع المنزل، بالرغم مما حصل مع إيلين. أخبرت كريس ذلك حين عاد إلى المنزل. إنها مأساة، لكن عليهم المضي قدماً. وافق كريس على قرارها وشعر بالارتياح. فهو سعيد هنا مع إيان. إنه مكان مثالي لهما، ولا يتخيل حياته الآن من دون ماريا وفرانشيسكا كصديقتين له، وخالتين حنونتين لإيان، على رغم علمه بأن

إيان سيشتاق أيضاً إلى إيلين، والقصص التي قرأتها له، والطيور الورقية التي صنعتها له.

كما هي الحال دوماً عند وجود ماريا في المنزل، احتشدوا جميعاً في المطبخ. وضعت على الغاز بعض حساء الفطر الذي حضرته في فيرمونت قبل أن يغادرا هذا الصباح. فاحت رائحة لذيذة منه. كان تشارلز إدوار يلعب بالبيضة مع إيان، الذي راح يصرخ فرحاً. فجأة، بدا المنزل مليئاً مجدداً بالروائح اللذيذة والفرح والضجيج والضحك. لم تكن الحال كذلك عندما عاد مع إيان إلى المنزل، إذ بدا له المنزل حزيناً جداً في البداية، كما لو أنهم جميعاً في حداد. أصبح أفضل الآن. أعاد إليهم تشارلز إدوار وماريا الطاقة والحياة. كان الجو هادئاً جداً من دونهما.

استطاعت فرانشيسكا سماعهم جميعاً يضحكون في المطبخ، فيما فتحت الباب الأمامي عندما عادت من العمل. ابتسمت فيما نزلت السلالم ورأت ماريا. كانت تضع مئزرها وتطهو الطعام. وضعت دجاجة في الفرن للعشاء. ووضع تشارلز إدوار في طبق بعض الباتيه التي حضرها ثم رمى ذراعيه حول فرانشيسكا وقبّلها عندما رآها.

قال بفرح: "أههههه سيدة القصر". يناديها سيدة القصر. ليس 44 شارع تشارلز قصراً، لكنه منزلهم وهم يحبونه. "تبدين جميلة مع الاسمرار، فرانشيسكا". بدا شعرها مثل الغزل الذهبي.

كانوا جميعاً يتحدثون دفعة واحدة فيما نظرت ماريا حولها في المطبخ. بعض الأغراض لم تكن في مكانها، فأعادتها إلى أمكنتها الصحيحة ووضعت الأشياء على الرف حيث موقعها الصحيح. ثم لاحظت أن كمبيوتر المطبخ اختفى. أعطته فرانشيسكا للشرطة بمثابة دليل. يملكون جميعاً أجهزة كمبيوتر في غرفهم، ولا يحتاجون إلى واحد في المطبخ في أية حال. شكّت ماريا في سبب اختفائه، لأن إيلين كانت تستخدمه غالباً.

لم يتوقف هم الخمسة عن الكلام، للتعويض عن كل شيء. وللمرة الأولى منذ عودة فرانشيسكا من ماين، بدا المنزل حيوياً وسعيداً مجدداً

ومرحاً. أضاف كل منهم سحره الخاص إليه، باتوا يشكلون عائلة معاً.

كانوا جالسين لتناول العشاء حول الطاولة الدائرية في المطبخ، محاولين عدم الإحساس بغياب إيلين، عندما لاحظت فرانشيسكا شيئاً مختلفاً في تشارلز إدوار وماريا. لم تشأ قول أي شيء، لكنها نظفت أطباق الحساء معها وشطفتها، وهمست لماريا.

"هل أنا مجنونة أم أن شيئاً يحصل فعلاً بينك وبين تشارلز إدوار؟" كان الأمر دقيقاً وإنما ملحوظاً، وأحسّ كريس بذلك أيضاً، لكنه لم يسأل أبداً. كان مهذباً جداً.

ابتسمت ماريا ابتسامة ماكرة فيما أجابت همساً أيضاً. "تركته زوجته هذا الصيف. تقدمت بطلب الطلاق. تريد الزواج من مساعد الطاهي لديه".

حدقت فيها فرانشيسكا بذهول.

"هل أنت جادة؟".

كان صوتها أعلى قليلاً بسبب حماسها تجاه ماريا، ثم أخفضته مجدداً.

"هل ستتزوجان؟".

"لا أعرف بعد. أريد أن أرى إذا كان يستطيع البقاء مخلصاً لأكثر من خمس دقائق. لكننا سعيدين ونمضي وقتاً جيداً. كل هذا حديث جداً. جاء إلى فيرمونت قبل بضعة أسابيع. كل شيء جديد". بدت جميلة وشابة فيما قالت ذلك. ولمح تشارلز إدوار المرأتين تتهامسان عند حوض غسل الأطباق، وشك في طبيعة حديثهما فيما ضحكتا. ابتسم لماريا.

عندما جلسوا مجدداً، وقدمت ماريا الدجاج، نظر إلى فرانشيسكا مع ابتسامة حنونة. "هل أخبرتك ماريا؟". أومأت وابتسمت لهما، فبدا كريس مرتبكاً.

قالت فرانشيسكا مع نظرة حنونة: "أنا مسرورة لأجلكما"، ونهضت لتقبيله على الوجنتين، على الطريقة الفرنسية. "هذا خبر رائع".

بدا كريس محتاراً. "هل فاتني شيء ما؟ هل حصل شيء ما بينكما هذا الصيف؟" بدت له الأمور هكذا.

"نحن مغرمان. وتريد زوجتي الطلاق". بدا سعيداً جداً لذلك، وابتسم ابتسامة عريضة لكريس.

قال كريس مع ابتسامة: "هذا رائع! أنا مسرور لكما". كان يقصد ذلك فعلاً، بالرغم من أنه لم يشأ التواجد في الوضع نفسه. أقسم ألا يحبّ أبداً طوال حياته بعد كمبرلي. أصرّ دوماً على أنه لا يشتاق إلى ذلك. حياته مسالمة وهادئة، ولديه إيان. "هذا رائع! متى حصل كل ذلك؟".

أجابت ماريا: "في فيرمونت". نهض تشارلز إدوار ليسكب الشراب لهم جميعاً، وشربوا نخب الثنائي، ثم نظرت فرانشيسكا حول الطاولة وأرادت شرب نخب آخر. انقبضت حنجرتها فيما فعلت ذلك.

قالت بهدوء: "نخب إيلين. أتمنى أن تكون في مكان أفضل الآن"، ورفعوا جميعاً كؤوسهم وارتشفوا القليل منها.

سأل إيان بتذمر: "لماذا عادت إلى كاليفورنيا؟ اشتقت إليها. كانت لطيفة".

وافقته فرانشيسكا الرأي. "نعم، كانت لطيفة. ينتقل الأشخاص الذين تحبهم إلى مكان آخر أحياناً". أومأ إيان وبدأ يقطع الدجاج، ثم تحدثوا عن ماريا وتشارلز إدوار، ومشاريع الصيف والخريف لكل منهم. بدأ إيان الصف الثالث، وتملك فرانشيسكا جدول مواعيد مزدحماً بالمعارض، منها معرضان لرجل واحد في كل مرة، وأرادت الذهاب إلى معرض بازل للفنون في ميامي في شهر ديسمبر. يتوجب على تشارلز إدوار وماريا تأليف كتابهما. للمرة الأولى منذ أسابيع، عادت الحياة طبيعية مجدداً إلى 44 شارع تشارلز. لم تصبح إيلين طيّ النسيان ولن تصبح هكذا أبداً، لكن الحياة تمضي قدماً.

الفصل الخامس عشر

بناء على إلحاح ماريا، دعت فرانشيسكا أمها لتناول العشاء الأسبوع المقبل حين تعود من أوروبا. أرادت رؤيتها في أية حال، وعليها فعل ذلك، وسيكون اللقاء أسهل خلال إحدى حفلات عشاء ماريا وتشارلز إدوار.

قبلت تاليا الدعوة بسرور. قالت إنها أمضت صيفاً مذهلاً. أرسلت إلى فرانشيسكا عدداً من الرسائل الإلكترونية واتصلت بها مرتين، وهذا كثير من قبلها. فهي نادراً ما تتصل بها حين تكون مسافرة. تنسى عادة عائلتها حين تكون مع أصدقائها. وليس العكس أبداً. بقيت أكثر مما كان مخططاً في مدينة البندقية، وأمضت وقتاً مذهلاً. واستمتعت تماماً بوجبة الطعام المحضرة من قبل ماريا وتشارلز إدوار حين جاءت لتناول العشاء. استمرت في مغازلته كلما تحدثت إليه، وإنما بدت أكثر احتشاماً هذه المرة. ارتدت كنزة سوداء وسروالاً بدل الفستان القصير وانتعلت الحذاء العالي الكعب. كانوا في منتصف الوجبة تقريباً حين لاحظت غياب إيلين. لم تخبرها فرانشيسكا بعد أنها ماتت. ساد صمت طويل بعد سؤال تاليا عنها.

قال إيان ببساطة: "انتقلت إلى كاليفورنيا. سان دييغو". لم يعلّق أحد، وجرت متابعة الحديث. تبادلت فرانشيسكا وماريا نظرة طويلة لم ترها تاليا.

سألت خلال تناول الحلويات: "ما هي مشاريع الجميع الآن؟" حضّر تشارلز إدوار تارت إجاص رائعة. "هل من رحلات؟ أنا ذاهبة إلى غستاد في الكريسمس". دعاها أصدقاؤها في مدينة البندقية للانضمام إليهم في منزلهم الصغير هناك. إنه أحد منتجعات التزلج الأكثر فخامة في أوروبا، وتذهب تاليا إلى هناك مرة على الأقل كل شتاء، وأحياناً مرتين.

لا يملك أحد غيرها أية مشاريع مهمة. بدت لهم المناسبة بعيدة جداً. سوف ينهي تشارلز إدوار وماريا كتاب الطهو. ستكون فرانشيسكا منهمكة في المعرض الفني، ويتوجب على كريس الانتهاء من الجلسة الخاصة بالحضانة الدائمة لإيان، لكنه لم يذكر الأمر أمام تاليا. ليس هذا مشروعاً لطيفاً.

لاحظت تاليا الدفء والقرب بين ماريا وتشارلز إدوار. سألتها عن الأمر قبل أن تغادر، واعترفت ماريا أن ثمة علاقة بينهما.

سألت تاليا باهتمام: "هل سيطلق زوجته، أم أنك قبلت به أخيراً كما هو؟". التقت بالعديد من الرجال المتزوجين الجذابين في مدينة البندقية. لكنها لا تحب أن تكون جزءاً من فريق.

قالت ماريا ببساطة: "تركته زوجته هذا الصيف وطلبت الطلاق. أنا محظوظة". شعرت بالذنب قليلاً لحصولها على رجل فيما ترغب تاليا في واحد بشدة.

أجابت تاليا بنبرة متذمرة: "لا شك في أنك محظوظة. أنا لا أوفق. أنت لا تريدين رجلاً، وأنا أريد. أنت حصلت على واحد، وأنا لم أحصل". لم تشأ ماريا إخبارها أنها تحاول ربما بكدّ كبير. وماريا لم تحاول أبداً.

قالت ماريا بطريقة دبلوماسية: "إنه القدر" لكنها آمنت في ذلك. "تحصل الأمور في وقتها المناسب. سيأتي دورك".

أجابت تاليا مع تنهيدة: "أتمنى أن تكوني محقة"، ووضعت سترة بيضاء اشترتها من باريس. كما هي الحال دوماً، بدت مرتبة بشكل مثالي ومتناسقة بشكل جميل، مع أقراط لؤلؤية وماسية للأذنين وشعر مصفف تماماً. إنها قادرة على جذب أي رجل. "لم ألتقِ بأحد مناسب هذا الصيف. سان تروبيز مليئة بالقذارة الأوروبية والروسيين هذه الأيام. وجميعهم في عمر الثانية عشرة. كل الآخرين في أوروبا متزوجين، ويخونون زوجاتهم".

طمأنتها ماريا: "لا شك في أنه يوجد أحد مناسب لك"، ثم صعدت فرانشيسكا، ورافقت أمها إلى الخارج ودبّرت لها سيارة أجرة. رغم أنها كانت ممتعة، تشعر دوماً بالراحة حين تغادر. فهي تتطلب الكثير من الجهد،

وتشعر دوماً بالتوتر أثناء وجودها. إلا أن تاليا اتفقت جيداً مع ماريا وتشارلز إدوار، وكانت مهذبة جداً مع كريس، مما جعل زياراتها أسهل على فرانشيسكا. هذا ممتع أكثر من تناول العشاء معها منفردتين، إذ يكون الأمر دوماً بمثابة استجواب إسباني. كانت فرانشيسكا متعبة فيما صعدت إلى الأعلى. كانت أمسية طويلة.

بعد ذلك، أمضت عطلة نهاية الأسبوع في كونيكتيكوت مع والدها وأفيري. إنه يعمل على لوحة جديدة، ويتواجد في محترفه معظم الوقت، مما منحها الفرصة للقيام بنزهات طويلة مع أفيري والاسترخاء.

سألتها أفيري برفق: "كيف حالكم جميعاً بعد إيلين؟"، وتنهدت فرانشيسكا فيما أجابت. لا تزال حزينة بسبب ذلك.

"نشتاق إليها جميعاً. منحت شباباً إضافياً للمجموعة، بالرغم من جنونها. كانت أشبه بتلميذة في الثانوية وليس بمثابة شابة ناضجة. لم أخبر أمي بعد، ولن أفعل. لا داعي لأن تعرف. سوف تسبب لي الصداع بسبب ذلك، وكان الأمر سيئاً كفاية. إنها مثال حقيقي على نوع مخاطر المواعدة التي لا يجدر المجازفة بها. كانت تخرج عشوائياً مع أي شاب. ظنت الأمر آمناً على الدوام، حتى لو رأى الآخرون أنه ليس آمناً. امتلكت حكماً سيئاً".

"ماذا عنك؟ كيف هي حياتك العاطفية هذه الأيام؟". كانت أفيري قلقة عليها. ترك تود المنزل قبل أكثر من ثمانية أشهر، ولم تبذل فرانشيسكا أي جهد حقيقي للقاء شخص آخر. يبدو أنها لا تبالي.

"لا أملك أية حياة عاطفية. لست واثقة الآن بأني أحتاج إليها. لم ألتق بأحد أثار اهتمامي من خلال عملي. الفنانون الذين ألتقي بهم جميعهم غير موثوقين كفاية، أو متعجرفين، أو نرجسيين. يبدو هذا كثيراً بالنسبة إليّ، والزبائن الذين يأتون إليّ هم دوماً حمقى. الجيدون متزوجون".

قالت أفيري بصرامة: "لا تزالين شابة للتخلي عن الحياة العاطفية".

"لا أعرف. ربما لست هكذا. أشتاق إلى وجود أحد في حياتي، لكني لا أريد اختيار الشخص الخطأ مثلما حصل مع تود، واكتشاف الخطأ بعد خمسة

أعوام. تستثمرين أربعة أعوام، وتكتشفين أنه الرجل الخطأ، ثم تكون هناك سنة من الحزن، والانفصال، وينفطر قلبك. وتذهب خمسة أعوام من حياتك في مهبّ الريح. أجد صعوبة في البدء مجدداً".

قالت أفيري بحذر: "سمعت أن تود مخطوب".

"نعم، صحيح. رجل شجاع. أصبح فجأة مستعجلاً للزواج وإنجاب الأولاد. الله وحده يعلم إذا كان يتزوج المرأة المناسبة. كل ما يريده هو مجموعة من الأولاد وامرأة ليأخذها معه إلى حفلة الكرسمس في شركة القانون حيث يعمل. لست من هذا النوع أيضاً".

قالت أفيري برفق: "هذا قاسٍ قليلاً عليكما". لقد أحبت تود. ليس فقط من أجل فرانشيسكا. لم تره يوماً مناسباً لها، حتى في البداية، عندما كانا يظنان ذلك. لم تجده أفيري يوماً مثيراً كفاية لها.

أجابت فرانشيسكا: "بصراحة، لم أعد أعرف ما الذي أريده. محب للفنون، متحفظ، متزوج، غير متزوج، العيش معاً أو عدم العيش معاً. الأمر كله معقد جداً، وفي هذا العمر، يكون الجميع متضررين. تعرضوا جميعاً لطعنة من شخص آخر، وهذا ما حصل معي". كانت تفكر في كريس عندما قالت ذلك. لقد اعترف قبلاً أنه يخشى الدخول في علاقة، وبدأت تشعر بالشيء نفسه أيضاً. "أنا مرتاحة جداً الآن". شعرت بالوحدة كثيراً في البداية من دون تود، لكن شعورها تغيّر لاحقاً. أحبت فعل ما تريده من دون الحاجة إلى استشارة أحد. "يوفر لي رفقائي في المسكن الصحبة. هناك إيان بمثابة الولد الرائع في حياتي، والفنانون الذين يثيرون جنوني، والذين هم أشبه بمراهقين دائمين في حياتك. فلماذا أحتاج إلى رجل؟".

مازحتها أفيري: "هذا جذاب". كانت قلقة عليها. بدت وكأنها أطفأت الرغبة لديها. احتاجت إلى أكثر مما هو متوقع لنسيان تود، وبدا جلياً أنها خيبة أمل مسببة للصدمة أكثر مما توقعتها أفيري في البداية. لكن خمسة أعوام هي وقت طويل. وكفاحها للاحتفاظ بالمعرض الفني والمنزل كان مخيفاً لها.

"إلا أني أرغب في القيام بأشياء جديدة. سأذهب إلى معرض بازل في ميامي هذه السنة، لا لعرض أي عمل هناك. والصيف المقبل، أريد الذهاب إلى مكان آخر غير ماين. أمضيت وقتاً رائعاً، لكن المكان ذكّرني كثيراً بتود. إنهم أصدقاؤه، وليسوا أصدقائي. لا أعرف، قد أذهب إلى أوروبا السنة المقبلة. ولكن ليس مع أمي"، وضحكت أفيري. اتفقتا أن صحبة تاليا تتطلب الكثير من الجهد، والسفر معها سيكون بمثابة كابوس بالنسبة إلى فرانشيسكا. "قد أقوم برحلة مع ماريا السنة المقبلة، إذا لم تكن تزوجت حينها"، أضافت فرانشيسكا وهي شاردة. تحب التحدث إلى زوجة أبيها. يعطيها ذلك نظرة جديدة للحياة، فهي لطيفة جداً. إنها صديقة مذهلة.

بدت أفيري متفاجئة. "هل ستتزوج ماريا؟".

"ربما. لم تقرر بعد. إنها وتشارلز إدوار مغرمان ببعضهما. سيطلق زوجته".

"هذا مثير. إنهما رائعان معاً. تعرفين المثل القائل إن لكل قدر غطاءها. عليك فقط العثور على غطائك". المشكلة أن فرانشيسكا لا تحاول، ولن يهبط في المدخنة مع لحية بيضاء وبذلة مخملية حمراء ليصبح بين ذراعيها. تذكرت أفيري بسهولة كل الرجال الذين خرجت معهم قبل هنري، والعلاقات السيئة التي عرفتها، وخيبات الأمل، وانكسار القلب، والعلاقات الجيدة أيضاً. لم تكن أفيري تتوق أيضاً إلى الزواج، لكنها أرادت العثور على الرجل الصحيح لتمضية الوقت معه. لم تقبل يوماً بالأقل. احتاجت إلى بلوغ عمر الخمسين حتى وجدته، ولحظة التقت به، عرفت أن هنري ثاير هو رجلها. لم يحصل ذلك مع فرانشيسكا بعد، وأملت أفيري ألا تحتاج إلى الكثير من الوقت مثلها. على الأقل، تستمتع بحياتها في غضون ذلك. لكن أفيري لم تحسم ما إذا كان رفقاء فرانشيسكا في المسكن فكرة جيدة أم لا. لقد أشبعوا نوعاً ما رغبتها في لقاء أي كان، ومن السهل جداً إرضاء الذات بالتواجد معهم، من دون علاقة غرامية في حياتها.

خرج والدها من الفناء الخلفي حيث يوجد محترفه الآن، وابتسم للمرأتين فيما وضع ذراعه حول كتفيهما. سأل ابنته فيما قبّلها: "كيف حال شريكي المفضل في العمل؟ هل أصبحنا أغنياء؟".

"ربما السنة المقبلة". ابتسمت فرانشيسكا ابتسامة عريضة. لكن المعرض الفني يبيع جيداً. أفضل مما كان في العام الماضي. رويداً رويداً، بدأت تعزز العمل، وتجني ربحاً صغيراً، ولكنه ليس ربحاً كبيراً بعد. إلا أن هذا منحها الأمل. كانت تتشبث به.

قبل أن تغادر كونيتيكوت بعد عطلة نهاية الأسبوع، وعدتهما فرانشيسكا بدعوتهما إلى إحدى حفلات عشاء تشارلز إدوار وماريا، وتحمس والدها. لقد استلطفهما، بالرغم من أنه لم يلتق بماريا إلا مرتين، وبتشارلز إدوار مرة واحدة فقط، لكنه وجده رجلاً رائعاً. وأحب السيجار الكوبي الذي تشاركه معه، رغم أن أفيري عارضت التدخين.

فكرت فرانشيسكا في الأمر في طريق عودتها إلى المنزل، ومرة جديدة، منحتها أفيري نظرة جديدة للأمور. فكرت في ما قالته لها عن المواعدة الغرامية، والعثور على الغطاء الصحيح. في حالتها، لم تكن واثقة حتى بحجم قدرها وشكلها، فماذا إذاً عن الغطاء المناسب لها. شعرت أنها تغيرت كثيراً خلال العام الماضي من دون تود. أصبحت أكثر ثقة بنفسها. تابعت حياتها من دونه، لا بل أكثر مما فعلت حين كانت معه، مما أخبرها بالكثير عن العلاقة وعن نفسها. لم تعد الآن نصف أي شيء، بل أصبحت شخصاً كاملاً. لقد أفادها أيضاً وجود رفقاء لها في المسكن والحاجة إلى التكيف مع أشخاص آخرين. بصفتها ابنة وحيدة، لم تضطر أبداً إلى فعل ذلك حين كانت شابة. احترمت ماريا وكريس، وكانوا جميعاً مختلفين جداً. ومن الممتع وجود إيان في حياتها. إنه تعريف جيد للأولاد. لم يعد إنجاب الأولاد مخيفاً بالنسبة إليها مثلما كان قبلاً، شرط أن يكونوا ظرفاء مثل إيان، بالرغم من أنه ما من شيء مضمون في هذا المجال. إنه الولد الأكثر ظرافة الذي عرفته.

حين عادت إلى المنزل، استطاعت سماع ضجيج في المطبخ، فنزلت إلى الأسفل لمعرفة ماذا يجري. كان الوقت متأخراً للعشاء، ولا تبدو الأصوات سعيدة. استطاعت سماع ضجة عالية وقرقعة طناجر. وحين نزلت إلى الأسفل، رأت مطبخها غارقاً في ستة إنشات من الماء. كان تشارلز إدوار يعتمر قبعة باناما ويرتدي شورتاً، حافي القدمين في الماء، ويلوّح بسيجار وهو يعطي التعليمات ويطرح الأسئلة. كانت ماريا تنتعل جزمة ويلنغتون وتحاول المساعدة مع تعابير حزينة. طاولة المطبخ والكراسي في الحديقة مع أشياء مكدسة عليها. وكان كريس مبللاً بشورت سباحة وكنزة، وهو يجذف في الماء ويزحف تحت حوض غسل الأطباق، في محاولة لتحديد موقع الأنبوب الذي انفجر وأغرق المطبخ بالماء.

قالت: "اللعنة"، ورفعت سروال الجينز وخلعت حذاءها وتوجهت صوب كريس. "ما الذي أستطيع فعله للمساعدة؟ أنا آسفة لأنك تورطت في هذا". نظر إليها من فوق كتفه مع ابتسامة عريضة، وشعرت بالذنب لعدم وجودها هنا عندما حصل ذلك، ولكل ما يفعله كريس. هذا هو بالضبط ما كرهه تود في المنزل وسبب رغبته في بيعه العام الماضي. إنه منزل قديم جداً تحصل فيه مثل هذه الأمور. سكب لها تشارلز إدوار كأس شراب وأعطاه لها. بدا الأمر أشبه بحفلة وسط فيضان. كان تشارلز إدوار وإيان يستمتعان. أما الآخرون فلا.

شرح كريس: "أغلقت المياه. حصل ذلك فيما كنا جميعاً خارج المنزل. ربما تدفق الماء طوال النهار. علينا العثور على شخص لإخراج الماء من هنا غداً، وأنت بحاجة إلى سمكري. أظن أني عاجز عن إصلاح هذه المشكلة". فيما قال ذلك، قفز إيان عن السلالم وهبط في بركة الماء الكبيرة مع صرخة فرح.

صرخ عالياً: "هذا رائع"، وطلب منه كريس التوقف أو الصعود إلى الأعلى. كشّر إيان وتوجه نحو تشارلز إدوار. لا يسعهم فعل الكثير حيال المشكلة هذه الليلة، بالرغم من محاولة كريس مرات عدة تحديد موقع

الارتشاح، لكنه استسلم في النهاية. كانت فرانشيسكا تحمل له المصباح اليدوي تحت حوض غسل الأطباق، وباتت مبللة هي أيضاً. بات سروالها مبللاً حتى الخصر.

سألت فرانشيسكا باعتذار: "هل تناولتم جميعاً العشاء؟"، قال تشارلز إدوار إنهم لم يفعلوا. اقترحت عليهم الذهاب جميعاً إلى أقرب مطعم بيتزا، أو طلب الطعام الصيني الجاهز وتناوله في غرفة جلوسها. ثم أدركت أن تشارلز إدوار وماريا لا يستطيعان النوم في غرفتهما هذه الليلة. فالسجادة غارقة في الماء. اقترحت عليهما أخذ غرفتها، بحيث تنام هي على الأريكة الجديدة في غرفة الجلوس. رفضت ماريا في البداية، لكنهما لا يملكان خياراً آخر. وأصرّت فرانشيسكا بأنها لا تمانع النوم على الأريكة.

اختاروا البيتزا وخرجوا لتناول العشاء. كانوا يتحدثون بصوت عال، وبدوا جميعاً في حال فوضوية. لا يزال تشارلز إدوار يرتدي الشورت، واحتفظت ماريا بجزمتها، فيما ارتدى كل من كريس وفرانشيسكا جينزاً جافاً. قال إيان إنه يريد العودة واللعب في بركة الماء في المطبخ، لكن كريس منعه من ذلك. أمضوا جميعاً وقتاً جيداً، وعادوا إلى المنزل بعد العشاء، بمعنويات أفضل، بالرغم من أن المطبخ لا يزال في حال كارثية. كان الماء يخرج ببطء إلى الحديقة عبر الأبواب التي تركوها مفتوحة، لكن لا تزال هناك إنشات عدة من الماء تغطي الأرض، وقد وصل الماء إلى غرفة ماريا. في مثل هذه الأوقات، تتساءل فرانشيسكا ما إذا كان يجدر بها بيع المنزل. لو لم يكن كريس موجوداً لقطع الماء، لاستمر الماء في التدفق من الحائط. قالت له ذلك في طريق العودة.

"يمكنك دوماً العثور على سمكري، فرانشيسكا. إنه منزل جميل قديم. ليس هذا سبباً كافياً للتخلي عنه".

"نعم، إنه جميل وأنا أحبه. لكنه كثير عليّ وحدي. مادياً وفي كل النواحي الأخرى". خسارة المدخول من أحد مستأجريها كانت قاسية أيضاً. فامتلاك منزل، ولاسيما منزل قديم، هو تحدٍّ كبير والكثير من العمل. اعترفت

قائلة: "سأشتاق إليه إذا بعته. أتمنى ألا يكلف إصلاح ذلك الارتشاح ثروة كبيرة". كلما وضعت بعض المال جانباً، يحصل أمر طارئ وأخسره. إنها بشاعة الحياة.

رافقها إلى غرفة الجلوس حينها، فيما صعدت ماريا وتشارلز إدوار إلى الأعلى إلى غرفة نومها. لقد بدّلت لهما الشراشف قبل أن يخرجوا جميعاً لتناول العشاء. وصعد إيان إلى الأعلى لمشاهدة التلفزيون من سريره. عندما وضع كريس سريرين فوق بعضهما في غرفته، عرف أن إيان سيحب النوم في السرير العلوي. ليس هذا رومنسياً، لكنه جيد لهما ويمنحه مساحة في غرفته أكثر من السرير المزدوج، الذي لا يحتاج إليه في أية حال. فما من أحد ليتشارك السرير معه. هو وإيان فقط.

جلس كريس على الأريكة قرب فرانشيسكا للاسترخاء. كان آسفاً لأنه لم يستطع إصلاح الارتشاح في المطبخ، أو وقف تدفق الماء قبل أن يتحول إلى حوض سباحة. ضحكا على منظر تشارلز إدوار في الشورت وقبعة الباناما، وهو يعطي التعليمات، وإيان يقفز عن السلالم للغوص في بركة الماء.

قالت بصراحة مع نظرة امتنان: "هذا المنزل تعيس من دونكم جميعاً".

"ألا تقرفين منا جميعاً في منزلك؟ أطرح على نفسي هذا السؤال أحياناً، وما إذا كان يجدر بي الحصول على شقة لي ولإيان. لكننا سنشتاق إليك. كان الأمر نوعاً من التجربة بالنسبة إليّ في البداية. لكنه نجح تماماً معنا، وهو جيد له. أظن أنه سيشعر بالوحدة إذا كنت أنا فقط معه الآن".

"وسأشعر أنا بوحدة أكبر. فوجود الجميع هنا يضيف القليل من الجنون السعيد إلى حياتي". لقد كانت تجربة لها أيضاً، وحاجة مادية، لكنها أحبت حياتهم المشتركة.

أجاب، وهو يبتسم: "وأنا أيضاً"، ثم استدار للنظر إليها. "تعنين لي الكثير، فرانشيسكا. آمل أن تعرفي ذلك. أنت صديقة رائعة".

قالت بخجل: "وأنت أيضاً. ما كنت لأتجاوز صدمة إيلين من دونك".

أومأ برأسه.

"أنت هدية من السماء مع إيان... ومعي...". ومن دون سابق إنذار، انحنى وقبّلها، فحدّقت إليه بعينين كبيرتين.

"ماذا فعلت؟" بدت وكأنه ضربها على رأسها بحذائه.

قال: "أعتقد أني قبّلتك"، وبدا مسروراً بنفسه. أراد فعل ذلك منذ الليلة التي كانا فيها معاً بعد موت إيلين، لكن الوقت لم يكن مناسباً أبداً. ليس واثقاً بأن الوقت مناسب الآن، لكنه فعلها في أية حال. "لماذا قبّلتني؟".

سأل، وهو يبدو قلقاً: "هل أنت غاضبة مني لأني فعلت ذلك؟"، فهزّت رأسها.

"لست غاضبة، وإنما فقط مرتبكة. ظننت أنك أقسمت على عدم الدخول في علاقات عاطفية مجدداً".

"نعم. ربما. لكني بدّلت رأيي. كانت مجرّد قبلة، فرانشيسكا، وليس طلباً للزواج. استرخي".

"أعتقد أني أخاف من العلاقات العاطفية أيضاً". كانت تتذكر حديثها مع أفيري في اليوم السابق.

"لا، أنت فقط مصدومة. هذا مختلف. أنا مصدوم أيضاً. لكن لا حاجة لأن يستمر ذلك إلى الأبد. يحتاج فقط إلى الوقت. كنت مخدّرة ربما خلال العام الماضي بعد فشل علاقتك مع تود".

"نعم، صحيح. شعرت وكأن شيئاً مات في داخلي، ولا يستطيع العودة إلى الحياة مجدداً".

طمأنها: "ليس ميتاً، وإنما فقط نائم".

سألته، وهي تبدو محتارة: "وكيف تعرف؟".

قال: "سأريك" ثم قبّلها مجدداً. هذه المرة، ضحكت بعد القبلة. كانت قبلة جميلة. أحبتها كثيراً. في النهاية، ربما ليست ميتة، وهو محق. "تفهمين الآن قصدي؟ أظن أنك بدأت تستيقظين". قبّلها مجدداً، فقبّلته بدورها هذه المرة وذابت بين ذراعيه، ثم بدت قلقة حين توقفا لاستنشاق الهواء. كانت قبلة شغوفة هذه المرة. بدأ يشعران بالإثارة، وهذا غير متوقع البتة.

سألت، وهي مذعورة: "ماذا نفعل، كريس؟ أنا أستلطفك، لكني لا أريد أن يتأذى أي منا".

"علينا المجازفة. لا ألم، لا ربح. تعبير غريب، وإنما صحيح لسوء الحظ. أظن أنني أرغب في المجازفة من أجلك".

يحتاج تفكيرها إلى بعض التعديل لاستيعاب الفكرة. فالخائف الكبير من العلاقات العاطفية خرج أخيراً من عزلته. وكذلك هي. لكن الأمر مخيف جداً.

سألت فرانشيسكا، وهي تبدو قلقة: "ماذا عن إيان؟ هل سيغضب؟".

"إنه يحبك. أعتقد أنه سيكون مسروراً". كان كريس يفكر في الأمر منذ بعض الوقت.

قالت بهدوء: "أنا أحبه أيضاً. كنت أفكر في الأمر اليوم خلال عودتي إلى المنزل. إنه ولد رائع". ثم نظرت إلى كريس وابتسمت ببطء. "وأنت أيضاً رائع".

"لست سيئة أيضاً. لمَ لا نرى إلى أين يمكن أن تصل هذه المسألة؟ ما رأيك في تناول العشاء هذا الأسبوع؟".

بدت مصدومة. "تقصد مثل موعد غرامي؟".

"هذه هي الفكرة الإجمالية. تعلمين. عشاء، وكل الأمور. ربما قبلة ما قبل النوم. ما رأيك في يوم الثلاثاء؟".

قالت، وهي تبدو متوترة مجدداً: "أنا مقرفة في المواعيد الغرامية. لقد تخليت عنها".

"نعم، وأنا أيضاً. لكنني أرغب في التجربة مجدداً معك". لقد عرفها طوال تسعة أشهر تقريباً، وأحب كل شيء فيها. وكان أمامه عام تقريباً للاعتياد عليها والتعرف إليها، ورؤيتها في أوضاع حقيقية. أحب ما رآه وما عرفه عنها، وكانت رائعة مع ابنه. لا يمكنه أن يطلب أكثر من ذلك. بدت له هذه بداية منطقية. فما بينهما مرتكز على الصداقة، وليس على الشغف، أو الأمل الأعمى. يعرفان بعضهما البعض جيداً.

قالت بهدوء: "حسناً"، وهي تشعر كأن صواريخ تدوي في رأسها. لم تتوقع أبداً أن يحصل هذا بينهما. في الواقع، لم يحصل أي شيء، لكن ثمة بصيص أمل، واحتمال، وتريد المجازفة معه. "ماذا لو لم ينجح الأمر؟ ستكرهني، وتغضب مني، وتغادر المنزل، ولن أراكما أبداً مجدداً أنت وإيان. سيكون هذا مريعاً، كريس".

وافقها الرأي: "نعم، صحيح. فلنحاول ألا يحصل ذلك. سننجح في الأمر". أومأت برأسها وقبلها مجدداً، ثم أبعد نفسه عنها ووقف. رافقته إلى باب غرفة جلوسها، وابتسم فيما صعد السلالم إلى غرفته. كان إيان نائماً والتلفزيون لا يزال قيد العمل، وأحس كريس برغبة قوية في إطلاق صرخة فرح. لقد قبلها! إنها امرأة رائعة. يثق بها تماماً. وأي دمج أفضل من شخصين خائفين كثيراً من العلاقات الغرامية؟ والأفضل من ذلك، أنهما بدآ كصديقين.

الفصل السادس عشر

صباح يوم الاثنين، جاء السمكري وأصلح الأنبوب وتم تصريف الماء من المطبخ. عادوا إلى العمل. كلّف العطل فرانشيسكا ألفي دولار، وهذا مبلغ كبير بالنسبة إليها، لكنها لا تملك الخيار.

تولت ماريا مع تشارلز إدوار رعاية إيان يوم الثلاثاء حين اصطحب كريس فرانشيسكا إلى العشاء. توجب عليها الوثوق بماريا وإخبارها، وإلا لن يكون الأمر منطقياً.

"مثل موعد غرامي؟" بدت ماريا مصدومة. لم تلمح أي دليل على وجود علاقة عاطفية بينهما، بالرغم من أنها تحبهما معاً، وتراهما بسهولة مع بعضهما. إلا أنها لم تظن يوماً أن الأمر يروق لأي منهما، وأسفت لأن الحال ليست كذلك.

اعترفت فرانشيسكا، وهي تبدو محرجة: "نعم، مثل موعد غرامي". شعرت بالغرابة للاعتراف بهذا أمام أي كان. لا تشعر حتى إنها جاهزة للمواعدة أساساً. لقد عاشت حياة حيادية لمدة عام تقريباً. "على الأقل، هذا ما قاله. لكن لا تخبري أحداً".

"من سأخبر؟ الصفحة السادسة من صحيفة نيويورك بوست؟" كانت ماريا تضحك عليها. فرانشيسكا مضطربة جداً.

"لا أعرف. إيان، أمي، تشارلز إدوار. لا أريد تضخيم الأمور أكثر مما هي فعلاً. إنه مجرد عشاء". لكنه عشاء مع كريس، في مطعم، وأسماه موعداً غرامياً. وقبّلها مرات عدة.

سألتها ماريا تحديداً: "هل المسألة ضخمة؟".

"ربما.. لا أعرف... ربما لا... وربما نعم. لا يجدر أن يحصل هذا ربما. نحن خائفان كثيراً".

"وماذا لو لم يكن هذا صحيحاً؟ ماذا لو نجحت العلاقة؟".

قالت فرانشيسكا، وهي تبدو مذعورة: "سيكون حينها الخوف أكبر".

"هذا ما كنت أشعر به حيال تشارلز إدوار. فمن المخيف قليلاً الدخول في علاقة، في أي عمر كان. وكلما كبرت في السن، أصبحت شخصيتك وحياتك أكثر تحديداً، وازدادت صعوبة مطابقة قطع الأحجية مع بعضها".

سألتها فرانشيسكا: "كيف هي الأمور بينك وبينه؟" بدت ماريا فرحة جداً، وكذلك هو.

"العلاقة رائعة. باستثناء المرحوم زوجي، إنه الرجل الأكثر روعة الذي التقيت به في حياتي. أنا امرأة محظوظة جداً للتعرف إلى هذين الرجلين العظيمين. ربما هذا أكثر مما أستحق، لكني أحب ذلك".

أكدت لها فرانشيسكا: "أنت تستحقين ذلك. لكن لا تقولي هذا أمام أمي. إلا أنها حصلت على خمس جوائز في وليمة الحياة، فيما حصلت أنت على واحدة فقط. لديك الحق في جائزة ثانية". كانت سعيدة لأجلها.

"نصيحتي لك بأن تنتظري فقط لتري ما سيحصل مع كريس. لا تستبقي الأمور، لا تضعي المشاريع، لا تتوقعي منه أن يكون شخصاً آخر، ولا تحاولي أن تكوني امرأة أخرى. كوني نفسك. واستمتعي". إنها نصيحة جيدة. "ولا تقلقي بشأن إيان. سأفرح بالاهتمام به في أي وقت. تشارلز إدوار يحبه أيضاً. عندما يصطحبك كريس لتناول العشاء، اطلبي منا الاهتمام بإيان. سنحضر البسكويت أو أي شيء. استمتعا"، قالت لها ماريا، فيما صعدت إلى الأعلى لارتداء ملابسها.

للمرة الأولى منذ أشهر، لا تعرف بعد ما إذا كانت سترتدي فستاناً، لكن سواء أفعلت ذلك أم لا، تبقى هذه إشارة رمزية. قالت لنفسها في المغطس: "أهلاً بك في العالم"، ثم ضحكت عالياً.

سألها كريس: "ماذا قلت لهما؟" فيما نزلا السلالم مسرعين وأغلقا الباب الأمامي خلفهما. كانت ترتدي تنورة جلدية سوداء، وكنزة حمراء، وحذاء عالي الكعب. شعرت قليلاً أنها مثل أمها، وخشيت أن تكون أفرطت في مظهرها. لا تريد أن تبدو وكأنها تتصنع كثيراً. لا تذكر حتى ما الذي يجدر بها ارتداؤه في موعد غرامي حقيقي ولا تملك الثياب المناسبة. مغامراتها الغرامية قليلة جداً لغاية الآن. وبالنسبة إلى شخص تهتم فعلاً لأمره، عرفت أنه يجدر بها أن تبدو ظريفة وجذابة. لا تعرف ما إذا كانت نجحت في ذلك. إلا أنه ابتسم لها بإعجاب حين نزلت السلالم وطرقت على باب غرفته لتبلغه أنها جاهزة. كان إيان يرتدي البيجاما مع شعر مغسول حديثاً وأخبرها أنها تبدو مقرفة.

"حقاً؟" بدت قلقة.

ترجم لها كريس: "مقرفة يعني جيدة. مثل جذابة، وإنما بلغة الصغار".

"شكراً إيان... وأنت تبدو مقرفاً أيضاً"، أضافت فوق كتف كريس، ثم نزلا السلالم بسرعة وخرجا من الباب. عرف إيان أنه يفترض به الانضمام إلى ماريا وتشارلز إدوار في المطبخ لحفلة بسكويت.

كرر كريس السؤال: "ماذا قلت لماريا وتشارلز إدوار؟" لم تجب.

"أخبرتهما أنك تكره طعامهما وتريد الخروج لتناول عشاء محترم". مع وجود اثنين من أشهر طهاة العالم لطهو الوجبات اليومية لهما، بدا صعباً فعلاً تبرير سبب الخروج لتناول العشاء. لكن هذا مختلف.

"مسلٍّ جداً". عرف أنها لم تقل ذلك فعلاً.

"أخبرت ماريا أنك دعوتني لتناول العشاء".

"وماذا قالت؟" كان فضولياً حيال ردة الفعل التي سيتلقيانها إذا بدآ بالخروج معاً. قال إيان إنه يراها فكرة جميلة ولم يضف أكثر من ذلك. ضحك على والده فيما كان يرتدي ملابسه.

"ترى أنها فكرة جيدة. وأنا أيضاً". بدأت تحب الفكرة أكثر وأكثر، بالرغم من أنها أرعبت نفسها خلال اليومين الماضيين، متخيلة كل كارثة محتملة قد تهبط عليهما إذا تورطا في علاقة غرامية. إلا أنها أبقت على موعدهما.

قال: "وأنا أحب الفكرة أيضاً"، وبدا مسروراً بنفسه فيما توجها إلى مطعم دا سيلفانو. اختار هذا المطعم لأنهما يحبانه. لا يريد فعل أي شيء متطرف جداً ويجعلها تشعر بعدم الارتياح. أرادها أن تمضي وقتاً جميلاً. كانت تفعل هذا حقاً. من الممتع الشعور أنها فتاة مجدداً، في موعد غرامي، في تنورة، مع رجل. واو!

اختار لهما النادل المسؤول طاولة جيدة في الداخل، وكان الجو بارداً. الشتاء على الأبواب، والخريف وصل. كان كريس يرتدي سروال جينز، وقميصاً أبيض، وسترة من المخمل البني، مع حذاء موكاسان ملمع حديثاً. بدا وسيماً. وحلق ذقنه قبل أن يخرجا. أحبت ذلك. لطالما أرعبتها اللحية التي لم تحلق منذ خمسة أيام. سواء أكانت على الموضة أم لا، تبدو قذرة بالنسبة إليها. بدا كريس نظيفاً جداً ووسيماً، وكانا جميلين مع بعضهما.

طلبا المعكرونة والسلطة، وطلب قنينة من شراب وادي نابا. وقبل أن تصل المعكرونة، كانا يتحدثان ويضحكان، عن إحساسهما بالسخافة لارتداء كل ملابسهما والخروج معاً، وعن ارتشاح المياه الليلة الفائتة، والأشياء التي يفعلها تشارلز إدوار ويقولها. عندما فكرت في الأمر لاحقاً، لم تذكر ما الذي تحدثا عنه بالضبط، لكنهما أمضيا وقتاً جميلاً. وقت جميل فعلاً. من الممتع الابتعاد عن المنزل، والعمل، وحتى إيان، والتصرف كراشدين فقط في سهرة معاً. هذا رائع.

تأخرا في تناول الحلويات وشرب القهوة، وكانا آخر من غادر المطعم. عادا إلى المنزل ببطء، وكان الجميع نياماً حين وصلا. كان إيان نائماً في سريره العلوي.

قال كريس: "أمضيت وقتاً رائعاً" فيما قبّلها خارج غرفتها، أمام الباب. رافعها إلى الأعلى، كما في الموعد الغرامي الحقيقي.

همست له: "وأنا أيضاً" وقبّلها مجدداً.

قال، وهو يبتسم لها: "لا أعرف لماذا لم نكتشف هذا قبل ستة أشهر أو تسعة أشهر. أشعر أننا بددنا الكثير من الوقت".

"لا، لم نفعل. لم نكن جاهزين". وهما يعرفان الآن بعضهما بصورة أفضل. الأمور أفضل هكذا.

أومأ كريس برأسه، وقبّلها مجدداً. أمسكا ببعضهما، ولم يشأ الابتعاد عنها. دخلت أخيراً إلى غرفتها، ونزل السلالم مسرعاً إلى غرفته. دخلت إلى غرفة نومها مع ابتسامة كبيرة على وجهها، ثم ضحكت. كان موعداً غرامياً ممتازاً.

حاول كريس وفرانشيسكا التصرف كأن شيئاً لا يحصل بينهما، لكن بدا جلياً أن هناك شيئاً ما. ابتسمت ماريا كلما رأتهما معاً، وربّت تشارلز إدوار على ظهر كريس مع ابتسامة عريضة بعد موعدهما الغرامي ليلة الثلاثاء.

خلال الفطور صباح اليوم التالي، بدا غريباً التواجد معاً ومحاولة التصرف بشكل طبيعي. استمر كريس في الابتسام لها، وتوردت فرانشيسكا خجلاً، مما جعله راغباً في تقبيلها، لكنه لا يستطيع. لا يريد تبرير أي شيء لابنه الآن. لكن ابنه ليس غبياً أيضاً. ضحك عالياً حين رآهما معاً.

اصطحبها كريس مجدداً ليلة الجمعة، لتناول طعام مكسيكي وحضور فيلم سينمائي. وصباح يوم السبت، نظر إيان إليهما وانفجر في نوبة من الضحك. كان يتناول فطائره المقلية المفضلة التي على شكل ميكي ماوس مع اللحم المقدد. حضرتها له ماريا، لأنه لا يسأم أبداً منها ويطلبها مراراً وتكراراً، ثم ذهبت مع تشارلز إدوار إلى فيرمونت لتمضية عطلة نهاية الأسبوع. علاقتهما العاطفية جيدة، وكانا سعيدين. كذلك فرانشيسكا وكريس. هذا مسبب للعدوى.

سأل إيان والده عندما صعدت فرانشيسكا إلى الأعلى لإحضار شيء من غرفتها: "هل قبّلتها؟" لقد وعدت بإعطاء إيان كتاباً قرأته ذلك الصيف ورأت أنه سيحبه أيضاً.

"عمّا تتحدث؟" حاول كريس أن يبدو بريئاً، لكن الحيلة لم تنطلِ على إيان.

"إذا اصطحبت فتاة لتناول العشاء، عليك تقبيلها. الجميع يعرفون ذلك. اصطحبتها إلى العشاء مرتين. إذا لم تقبّلها، ستظن أنك غير سوي".

بدا كريس مصدوماً. "من أين تعلمت هذا؟".

"أخبرني ولد في الصف الخامس. يقول إن هذا يعني أنك لا تحب الفتيات".

حذره والده قائلاً: "حسناً، لا تطلق هذه الصفة على أي كان، وإلا قد يغضبون كثيراً منك إذا لم يحبوها".

"حسناً. هل قبّلتها؟".

أجاب كريس بنبرة دفاعية: "ليس هذا من شأنك".

"بلى. إنها صديقتي أيضاً. كنت لأقبّلها لو اصطحبتها لتناول العشاء".

"هذا جميل". ابتسم له كريس فيما عادت فرانشيسكا إلى الغرفة وأعطته الكتاب. قالت إنها أحبته وتظن أنه سيحبه أيضاً. إنها رواية بوليسية ألفها كاتب جديد.

سألت فرانشيسكا ببراءة: "عمّا كنتما تتحدثان؟" فيما سكبت لنفسها فنجان قهوة وجلست أمام الطاولة معهما.

قال إيان: "سألته إذا قبّلك، ولم يخبرني بعد" فيما أنهى آخر ما تبقى من الفطيرة المقلية، ثم نظر مباشرة إليها. "هل فعل؟" كادت تختنق، ولم تعرف ماذا تقول.

سألت فرانشيسكا برفق: "وهل يزعجك ذلك لو فعل؟"، فضحك إيان.

"طبعاً لا. أنا أحبك فرانشيسكا. أظن أن والدي يحبك أيضاً. لكنه جبان جداً لقول ذلك، أو فعل أي شيء حيال ذلك. أخبرته أنه إذا لم يفعل، يكون غير سوي". اتسعت عينا فرانشيسكا. لم تتوقع هذا.

قالت: "لا أعتقد أنه كذلك" وارتشفت قهوتها، ونظرت إلى كريس بحثاً عن تلميحات. لم تعرف ماذا تقول. كان كريس يومئ برأسه بطريقة خفية، ثم نظرت مباشرة إلى إيان. "لقد قبّلني".

"إنه طبيعي إذاً". رفع يده لوالده بسبب القبلة، وشعرت كأنها دخلت إلى غرفة تبديل الملابس مع شابين من الثانوية. إنها محور اهتمامهما. هذه سابقة لها.

سألت إيان: "هل يناسبك هذا؟". فرحت لأن تشارلز إدوار وماريا ليسا هنا. هذه مناقشة عائلية بامتياز.

أكد إيان: "نعم، لا مشكلة لديّ. أحب ذلك. أنت صديقتنا".

"نعم، صحيح، لكنني لا أريد فعل أي شيء يجعلك تعيساً. أنتما تعنيان لي الكثير، ولا أريد إفساد ذلك".

سألها: "تقصدين مثل أمي؟". بدأوا يتطرقون إلى مسائل خطيرة.

"لا أعرف شيئاً عن أمك، إيان. هذا بينك وبين والدك. لا أريد إزعاجك أنت أو والدك، أو أخيّب أملكما بأي طريقة".

أجاب إيان بثقة: "لن تفعلي هذا". إنه يثق بها كثيراً. "ماذا سنفعل اليوم؟" انتقل إلى الموضوع التالي، بعد أن اعترفا بأنهما قبّلا بعضهما. قفز عن كرسيه حينها، وصعد إلى الأعلى لمشاهدة التلفزيون. أراد الذهاب إلى سنترال بارك بعد الغداء.

قالت بنظرة ارتياح بعدما غادر الغرفة: "حسناً، كان هذا سهلاً. خفت أن ينزعج". كان كريس يبتسم لها.

"لا أظن أنه سينزعج". انحنى وقبلها، ثم جلس على الكرسي قربها ووضع ذراعيه حولها وقبلها قبلة حقيقية. في تلك اللحظة بالضبط، عاد إيان إلى الغرفة. لم ينتبها إلى وجوده إلا حين توقفا عن تقبيل بعضهما. كان يضحك عليهما.

قال بسعادة: "قبلة جيدة، بابا"، ثم ترك الغرفة مجدداً، وأخذ معه علبة من الكيك بالأرز ليتناولها في أثناء مشاهدة التلفزيون.

قالت فرانشيسكا، وهي تبدو مضطربة قليلاً: "عليّ الاعتياد على هذا. لم أتوقع مثل هذا الترحيب". لكنها كانت مسرورة لموافقته. فالأمور أفضل بهذه الطريقة.

قال كريس، وهو يبدو متوتراً قليلاً أيضاً: "يتحدثون كثيراً عن هذه الأمور في المدرسة".

نظفا المطبخ، وخرجوا لتناول الغداء بعد الظهر، ومن ثم إلى سنترال بارك. تنزهوا حول حوض المراكب، وتجولوا في حديقة الحيوانات، واشتروا البوظة، ولعبوا بالكرة مع بعضهم. شعروا كأنهم عائلة، وكانوا هم الثلاثة سعداء حين عادوا إلى المنزل في وقت متأخر من بعد الظهر وهم يحملون أقراص دي. في. دي. جديدة. دعاها كريس إلى غرفتهما، وشاهدت التلفزيون معهما، وجلست قرب كريس على الأريكة، فيما تمدد إيان على الأرض. لم تكن فرانشيسكا يوماً بهذه السعادة منذ أعوام طويلة. والأفضل من كل شيء أن إيان موافق.

الفصل السابع عشر

صباح جلسة الحضانة الدائمة، نهض كريس في تمام السادسة صباحاً. عرضت ماريا اصطحاب إيان إلى المدرسة. أحسّ أن شيئاً ما يجري، لكنه لم يكن واثقاً من طبيعته. عرف أنها جلسة أخرى من جلسات المحاكمة المرتبطة بأمه، حيث يذهب وهو يرتدي بذلة داكنة. لم يشأ كريس شرح التفاصيل له. ولن يتغير أي شيء. سيبقى إيان معه، مهما حصل في المحكمة اليوم. لذا، لا يريد كريس أن يسبب له القلق. لا تزال كيم في السجن، ولا تزال مدمنة على المخدرات، ولن تخرج قريباً. الفرق الوحيد بعد جلسة اليوم هو أنه إذا ربح كريس، لن يضطر إيان للعيش معها مجدداً. يمكنه زيارتها، لكن كريس لن يتلقى اتصالات من الشرطة بعد تناولها جرعة زائدة من المخدرات أو تشطيب معصميها فيما إيان يضغط على شرايينها إلى حين وصول المسعفين. لن يأخذه من ردهات احتجاز الأحداث بعد توقيفها. لا يريد أن يعيش إيان هذه التجربة مجدداً. وأراد أن تكون الزيارات تحت إشراف المحكمة حين يرى إيان أمه مستقبلاً.

تطوعت فرانشيسكا للذهاب معه إلى جلسة المحاكمة، لكنه اعتبر الأمر مزعجاً جداً بالنسبة إليها.

قالت له بعدما غادر إيان إلى المدرسة: "عفواً؟ هل أبدو لك جبانة؟ أعرف ما هي المدمنة على المخدرات، وأعرف ما عاشه إيان. أذكر حين تناولت جرعة زائدة وخرجت مسرعاً من الباب لإحضاره. أنا مدركة تماماً بأنه جرى اتهامها بالقتل وقد تذهب إلى السجن. لماذا لا أستطيع التواجد هناك من أجلك؟".

قال، وهو يبدو قلقاً: "ماذا لو خسرت؟".

"هذا سبب إضافي لأكون موجودة هناك من أجلك. وإذا خسرت، سنحاول مجدداً. لكنك لن تخسر، كريس. إنها فاسدة".

"والدها رجل نافذ جداً".

"وأنت أيضاً. أنت على صلة قرابة برئيسين للبلاد. ولا أقصد بنجامين فرانكلين وتوماس جيفرسون. أقصد رئيسين حديثين. يحمل ذلك بعض المعاني".

"لا تحب عائلتي التورط في فضائح عامة. يحبون إيان، لكنهم يعتبرون أنه لم يكن يجدر بي الزواج بها أساساً. لم تكن مدمنة على الهيرويين حينها، لكنها كانت فاسدة. ظننت أني أستطيع إصلاح الأمور وتحويلها إلى أميرة. بدل ذلك، تحولت إلى فوضى كاملة، ولا تزال هكذا. يعتقدون أنها مصدر إحراج بالنسبة إلينا، ولذلك يتجاهلون الوضع كله، بما في ذلك ما يطال إيان. أظن أنهم ينكرون المسألة. لا يريدون أن يعرفوا. أما والد كمبرلي فيكذب، ويخدع، ويسرق، ويقتل الأشخاص كي لا تعاني ابنته من عواقب أي شيء تفعله. لهذا السبب، لم تتوقف يوماً عن المخدرات. لم تضطر يوماً لذلك. إنه يغطي لها كل شيء. لا تعرف ما معنى دفع الثمن في حياتها. الآخرون يدفعون نيابة عنها، بما في ذلك ابننا".

سألت مجدداً: "هل أستطيع المجيء؟"، فأومأ برأسه إيجاباً، قبّلته. علاقتهما جيدة. مضت عليها بضعة أسابيع فقط، لكنهما يمضيان أوقاتاً رائعة مع بعضهما، واصطحبها لتناول العشاء خارجاً مرات عدة. يتقدمان في علاقتهما بحذر، وهو قلق كثيراً بشأن هذه الجلسة. سوف يشعر بالكثير من التحسن حين تنتهي الجلسة، خصوصاً إذا ربح. لكن مثلما قالت فرانشيسكا إذا خسر، سيجرب مجدداً.

أخذا سيارة الأجرة إلى المحكمة في شارع لافاييت. وصلا في تمام الساعة العاشرة، وكان محامي كريس ينتظر خارجاً. بما أنها موجودة في السجن، لا حاجة لأن تكون كيم هنا، ولم تكن هنا، لكن محاميتها وصلت،

وكانت امرأة مزعجة جداً كرهها كريس طوال أعوام عدة. همها الوحيد حماية موكلتها، وليس ابنهما.

محامي كريس كان رجلاً جدي المظهر، يرتدي بذلة داكنة ويضع نظارات طبية ذات إطار فولاذي. عرّفهما كريس إلى بعضهما، وصافح يد فرانشيسكا. انتابها إحساس جيد حياله. لم يعجبها مظهر محامية زوجته السابقة. بدت حقيرة ووجهت نظرات لئيمة إلى كريس.

دخلوا إلى قاعة المحكمة في الوقت نفسه، وأخذوا أمكنتهم. جلست فرانشيسكا مباشرة خلف كريس، ولمست كتفه فيما جلست. بعد برهة، دخل القاضي، وناداهم حاجب المحكمة للوقوف. لا يوجد أحد مع كريس باستثناء محاميه وفرانشيسكا. والدة إيان لم تكن في قاعة المحكمة، وإنما فقط محاميتها، وأشار كريس بحذر إلى فرانشيسكا وهما يدخلان إلى أن والد كيم موجود في القاعة. عرف الجميع أنه موجود هناك وعرفوا من يكون. من الصعب عدم التعرف إليه. يظهر على غلاف مجلة التايم ومجلة نيوزويك كل عام، وفي الصحف اليومية بشكل متواتر، وتعرّف إليه القاضي أيضاً. وجوده هنا هو نوع من الضغط المعنوي، لكن الرسالة وصلت حتماً. تملك ابنته دعمه الكامل، وليس هذا بالأمر القليل.

تم عرض جانبي القضية. تفاني كيم الكبير كوالدة وحبها لابنها. كم تحبه. كم هي إنسانة جيدة، وأنها ستذهب مباشرة إلى مركز إعادة التأهيل ما إن تخرج من السجن، لأنها تريد التخلي عن المخدرات من أجل ابنها. المحامية التي تمثلها استدارت نحو القاضي، وبالنظرة الأكثر انتقاداً التي رأتها فرانشيسكا في حياتها، قالت إنه ما من شيء ممكن إلا وترغب كيم في فعله من أجل ابنها، وهي مستعدة لأن تقسم شخصياً أمام القاضي بأنها لن تعرّض الولد للمزيد من الخطر، وبأنه يجب الحفاظ على الحضانة المشتركة. فمهما كانت الأثمان، يجب ألا يحرم ابن الثمانية أعوام من أمه بعد خروجها من السجن، وألا يشعر بأنه منبوذ منها إذا حرمها كريس من الحضانة، ليحتفظ لنفسه بحق الحضانة الحصرية. قالت إن هذا ليس حتماً من مصلحة

الصبي، فيما الحضانة المشتركة من مصلحته. استخدمت كل شيء لإقناع القاضي. جلس على مقعده من دون أية تعابير، يصغي جيداً إلى كل ما قالته، ورأته فرانشيسكا ينظر أكثر من مرة في اتجاه والد كيم. عرفت أن كريس لاحظ ذلك أيضاً. هذا ما كان متوقعاً. الأشخاص الأقوياء يفرضون نفوذهم، حتى بمجرد الجلوس هناك والتحديق إلى القاضي. أبلغهم ذلك أيضاً أن عائلة كمبرلي لا تنوي الخسارة. إنها رسالة مهمة، وخشي كريس أن تنجح فعلاً في إقناع القاضي بالحفاظ على الحضانة المشتركة بينهما. هذا أسوأ ما يخشاه كريس، وشاركته فرانشيسكا ذلك الخوف. لم تصدق لدقيقة واحدة أنهم يريدون الأفضل لإيان. ولا كريس صدق ذلك أيضاً.

شعرت فرانشيسكا بالتوتر من محامي كريس عندما بدأ الكلام. بدا محترفاً أكثر مما هو محرّك للعواطف. كان بارداً جداً وغير عاطفي، لاسيما مقارنة مع محامية كيم، التي استخدمت كل الوسائل العاطفية لدرجة مفرطة. ثمة محقق خاص عمل لصالح كريس، وأحضر له معلومات لم يعرفها أي منهم قبلاً، وخصوصاً المحكمة. شرح محامي كريس في افتتاحيته أن كريس لن يبعد إيان عن أمه، وأنهم يرحبون بالزيارات الخاضعة لإشراف المحكمة حين تشعر أنها قادرة على المشاركة فيها. لا يريدون إبعاد الصبي عن أمه. كل ما يريدونه هو إبقاءه بأمان، وجعله يعيش في بيئة صحية. ونظراً لتاريخ أمه وحكمها السيئ، شعروا أن كل القرارات المتعلقة بإيان يجب أن تؤخذ من قبل كريس. ويعني ذلك الحضانة الحصرية له. يعني ذلك تقرير المدارس، واصطحابه إلى الأطباء، وزيارة طبيب الأسنان بشكل منتظم. كل شيء من التربية الدينية إلى أقواس تقويم الأسنان سيقررها كريس، وبدا ذلك منطقياً بالنسبة إلى فرانشيسكا فيما أصغت. كريس يفعل ذلك في أية حال. الحضانة الحصرية تعني أن كيم ستخسر صوتها في كل القرارات. يعني أنها تستطيع رؤيته، ولو بانتظام إذا كانت في حالة جيدة، لكنها لا تستطيع أن تقرر إلى أية مدرسة يذهب، أو تعريضه للخطر مجدداً، إذا ضمن القاضي الزيارات الخاضعة للإشراف.

بعد الشرح بطريقة غير عاطفية بدا من عرض المحامي أن كريس لا يسعى إلى حرمانها من الزيارات، طالما أنها خاضعة لإشراف فريق ثالث تعينه المحكمة، وإنما يسعى فقط إلى الحصول على الحضانة الحصرية القانونية لابنه، قرأ المحامي الخطوط الأساسية من تقرير المحقق. إنها لائحة من الحقائق المرعبة، والإخفاقات، والأحداث، والأعمال الشريرة، والمراحل الخطيرة، والصدمات المريعة لإهمال إجرامي. عرفت فرانشيسكا القليل من كريس، لكن ما عرفته كان قطرة في البحر مقارنة مع البقية.

لقد عرّضت كمبرلي هارلي ابنها للخطر بكل طريقة ممكنة، مئات المرات. وكان كريس يحاربها ويحاول حماية ابنه منذ أعوام. حاولت المحاكم دوماً احترام الحقيقة بأنها أمه. إلا أن تراكم الأدلة بات فاضحاً الآن. كل ما قاله محامي كريس كان جديداً بالنسبة إلى المحكمة، وبعضه حتى جديد عليه. فحسب الشهود الذين وقّعوا على إفاداتهم، تركت إيان مع مدمنين آخرين على المخدرات، وتخلت عنه في محطات شاحنات ومطاعم حيث أعاده أشخاص آخرون إلى المنزل، ونسيت أنه كان معها فتركته على جانب بعض الطرقات السريعة، وتخلت عنه عندما كان طفلاً لأنها كانت مدمنة على المخدرات، وهذا أمر يعرفه كريس، ونسيته على سقف سيارتها حين كان رضيعاً، حيث أنقذه كريس مباشرة قبل أن تنطلق، وتركته في منازل مصدعة، وتركته مع جثث، ونسيت إطعامه لأيام عدة، وحاولت الانتحار مرات عدة أمامه، ووجهت إليه مسدساً محشواً بالرصاص بهدف قتله ومن ثم قتل نفسها، لكن مدمناً آخر أخذ المسدس بعيداً منها وأنقذ حياة إيان. قال المحامي إن إيان اتصل بالرقم 911 مرات عديدة حين تناولت أمه جرعات زائدة من المخدرات. استمرت اللائحة إلى ما لا نهاية. لم يعد يهم إذا كان محامي كريس غير عاطفي ولم يستخدم أياً من الكلام المنمق الذي لجأت إليه المحامية. الأمور أفضل هكذا. افتقاده إلى العاطفة أكثر فاعلية. إنها حقائق قاسية وباردة، صفحات وصفحات وصفحات منها، مع تقارير من الشرطة وإفادات شهود موقعة من قبلهم. نظرت فرانشيسكا خلفها إلى والد كيم، وبدا

كأنه راغب في قتل محامي كريس لقوله الحقيقة عن ابنته. إنها الأدلة الأكثر دمغاً التي سمعها أي منهم، ولا يمكن إنكارها. عند الاستماع إلى هذا، ونظراً لمعرفتها بإيان، رأت فرانشيسكا أن كيم تستحق أسوأ من السجن. لا تعرف كيف نجا إيان من كل ذلك، وليس مفاجئاً الآن أن كريس يخاف من العلاقات العاطفية. فبعد زواجه بامرأة كهذه، عرّضت حياة ابنهما للخطر بشكل مستمر، حتى عندما كان رضيعاً، كيف يمكنه الوثوق في أي كان مجدداً؟ تلألأت الدموع في عيني فرانشيسكا فيما أصغت. انتهت أخيراً لائحة الرعب، واقترب محامي كريس من مكان القاضي وسلّمه نسخة عن التقرير. كان جالساً بصمت وحدّق في كريس. طلب بعدها من المحاميين الدخول إلى قاعة التشاور. همست فرانشيسكا لكريس وسألته إذا كان القاضي يعلم أن كيم متهمة حالياً بقتل رجل، فأومأ برأسه. جلس كريس هناك مسمّر الوجه، محاولاً ألا يتذكر كل حادثة عرّضت فيها إيان للخطر. كانت بمثابة تهديد عام، وقال كريس قبل أعوام عدة إنها تنتمي إلى السجن.

دخل المحاميان إلى قاعة التشاور ما إن نزل القاضي عن كرسيه، وانحنت فرانشيسكا نحو كريس مجدداً.

"والآن ماذا؟".

"إما أن يصدر لنا حكمه اليوم، أو يسلّمه مكتوباً بعد مراجعة القضية وقراءة كل ما تقدمنا به. معظم القضاة يصدرون أحكامهم عادة بشكل مكتوب، كي لا يضغط عليهم أحد في قاعة المحكمة. فالأشخاص يفقدون صوابهم عند سماع أحكام الحضانة". تسهل معرفة السبب بعد كل ما سمعته للتو.

قالت بحزن: "كانت لائحة مريعة" فأومأ كريس برأسه. أنجز المحقق عملاً رائعاً. مسكين إيان. صحيح أن أمها كانت مصدر إحراج لها طوال حياتها، وإنما لم تشكل خطراً أبداً. أما والدة إيان فقد عرّضت حياته للخطر منذ أن كان عمره ثلاثة أشهر، عندما عادت إلى المخدرات، وهي تفعل هذا منذ ذلك الحين. تألم قلب فرانشيسكا عليه، وعلى كريس، الذي لا يزال يحاول حماية ابنه.

خرج المحاميان من قاعة التشاور بعد عشر دقائق. لم يظهر أي تعبير على وجه محامي كريس فيما رافقهما إلى خارج المحكمة. أما محامية كيم فتوجهت مباشرة إلى والدها في الجهة الخلفية من قاعة المحكمة، وراحا يتشاوران برأسين منخفضين، فيما أشار بتعاطف نحو القاضي. لم يكن سعيداً، لكنها قدّمت أداء جيداً، وهذا كل شيء. المسرح وليس القانون، وليس العدالة لإيان.

رافقهما محامي كريس إلى الخارج بخطى سريعة. أصبحوا عند أسفل درج المحكمة حين استدار المحامي صوبهما. خشي أن يتصل أحدهم بالصحافة، ولذلك أخرجهما من قاعة المحكمة بأسرع ما يمكن.

سأله كريس بنظرة قلقة: "ماذا حصل في قاعة التشاور؟". ابتسم المحامي لكريس ولمس كتفه. "أصبح لديك الحضانة الحصرية لإيان، كريس. قال القاضي إنه لا يريد سماع كلمة أخرى منهم في هذه القضية. قال إنه طالما هو موجود كقاضٍ، ستملك أنت الحضانة الحصرية لإيان، وقال إنه حين تعرّضه مرة جديدة للخطر، سيضعها في السجن. قال إنه لا يعرف كيف احتفظت بالحضانة المشتركة حتى هذا الوقت". انهمرت الدموع على وجنتي كريس فيما أصغى إلى الكلمات، وكبتت فرانشيسكا بكاءها. "والآن، أخرجا من هنا قبل أن يعرف أحد من تكون ويستدعي الصحافة. لن يفعل والدها ذلك هذه المرة". ابتسم له كريس ابتسامة عريضة وشكره، ثم أوقف سيارة أجرة، ودخل إليها بسرعة مع فرانشيسكا. انفجرت فرانشيسكا في البكاء وعانقته فيما انطلقت السيارة بعيداً. كان نصراً تاماً لكريس، وكان تشارلز إدوار وماريا في انتظارهما عندما عادا إلى المنزل. عرفا فوراً حين رأيا الدموع على وجهي كريس وفرانشيسكا.

قالت ماريا فيما عانقته: "حمداً لله"، وكذلك فعل تشارلز إدوار. إنه مصدر ارتياح لهم جميعاً. وذكّرهم كريس مجدداً بعدم قول أي شيء لإيان حين يعود إلى المنزل، ثم صعد إلى الأعلى ليبدل ملابسه ويرتدي كنزة وسروال جينز. كان مضطرباً ومتحمساً. أصبح إيان له وحده. أخيراً. لا

يمكنها فعل أي شيء مجدداً. انتهى الرعب. إيان في أمان. هذا كل ما أراده كريس. فقد خاطرت بحياته مرات عدة. وافق القاضي أيضاً على الزيارات الخاضعة لإشراف طرف ثالث. لقد ربحوا كل شيء.

حاولت فرانشيسكا إخبار ماريا عما حصل، وذعرت حتى من الأشياء القليلة التي تذكرتها فرانشيسكا من اللائحة الطويلة. لقد كان نصراً تاماً بالنسبة إلى كريس، وخصوصاً بالنسبة إلى إيان. لن تعرضه أمه أبداً للخطر مجدداً.

كان النصر ذا معنى وأهمية أكبر عندما رأى كريس مقالة في الجريدة بعد أسبوع. لاحظت فرانشيسكا أسنانه تنطبق وفكه يرتجف فيما قرأ المقالة، وشعرت بالقلق. سألته عما قرأه بعدما انتهى، وأعطاها الجريدة بصمت. هذه المرة، ربح محامو والد كيم، في قضية ابنته، وليس قضية ابنها.

لقد زعموا نوعاً ما، ودفعوا ربما مبالغ طائلة لتأليف الرواية، أن المدمن الذي مات نتيجة جرعة زائدة أثناء وجوده معها كان تاجر مخدرات، وأنه عرّض حياتها للخطر وليس العكس. وبما أن الميت يعتبر مجرماً مبدئياً، ألقى ضوءاً جديداً على ذنبها. زعموا أن كيم تعاني من مشاكل نفسية، وصحة دقيقة، وكل شيء آخر استطاعوا التفكير به للتخفيف قدر الإمكان من التهم الموجهة إليها في قتل رفيقها. كان المدعي العام مستعداً للتفاوض معها. أصدر القاضي حكماً من ستة أشهر، مع احتساب الفترة التي أمضتها في السجن منذ وصولها إليه، واختصار بعض الوقت بسبب سلوكها الجيد. لن تذهب كيم إلى السجن. سوف تخرج من السجن بعد أسابيع قليلة وتكون في المنزل خلال مناسبة الشكر. ذكرت المقالة أنها ستمضي وقتاً في مركز مشهور لإعادة التأهيل لكي تتعافى بعد الوقت الذي أمضته في السجن. تستطيع المغادرة في أي وقت تريد، وبما أن كريس يعرفها جيداً، أدرك أنها ستتصل قريباً وتطلب مشاهدة إيان. إلا أن الزيارة ستكون الآن تحت إشراف فريق معين من قبل المحكمة. غضب كريس لأنه تم التخفيف من التهم

الموجهة إليها ولأنها ستخرج من السجن. ستعود أمام وجهه خلال وقت قصير، راغبة في رؤية إيان وإفساد حياته من جديد.

قال كريس، وهو يبدو غاضباً: "لا أظن أنه سيستخدم القوة هذه المرة"، مشيراً إلى والدها. "إنها تنتمي إلى السجن. فهي مصدر خطر على نفسها وعلى كل المحيطين بها".

قالت فرانشيسكا: "نعم، لكن إيان محمي الآن على الأقل. لديك الحضانة الحصرية، وستحصل فقط على زيارات خاضعة للإشراف".

قال: "كنت أتمنى أن تبقى بعيدة لسنوات"، وبدا حزيناً. جعل ذلك فرانشيسكا تشعر بامتنان أكبر لأنه ربح الحضانة الحصرية. ليس باستطاعة أحد إنكار تلك اللائحة أو التهرب منها.

وضع كريس الجريدة في سلة المهملات، حيث لن يراها إيان، ثم صعد إلى الأعلى للعمل من دون التفوه بكلمة أخرى. لا يخفى على أحد كم يكره زوجته السابقة. وشعرت فرانشيسكا بالأسف عليهما معاً لأنه بعد أسابيع قليلة، ستعود إلى الشوارع، وإلى حياة إيان.

الفصل الثامن عشر

خلال الأسابيع التي تلت جلسة الحضانة، تفتحت علاقتهما الغرامية بشكل مذهل. بدأ كريس يسترخي، وعقد الصلح مع فكرة عدم ذهاب كيم إلى السجن، وعودتها ورغبتها في رؤية إيان. ذكّرته فرانشيسكا أنه لا يسعه فعل أي شيء حيال والدة إيان. لقد حقق نصراً مهماً. يملك السيطرة الكاملة والحضانة الحصرية، وسوف تكون كل الزيارات خاضعة للإشراف. سيكون إيان بأمان من الآن وصاعداً. سمح ذلك لكريس التفكير أخيراً في شيء آخر. بات يمضي المزيد من الوقت مع فرانشيسكا. كانا يمكثان في غرفة جلوسها وغرفة نومها ليلاً، بعدما يخلد إيان إلى النوم، لكنهما لم يجرؤا على فعل شيء أكثر من القبلة، خشيا أن يستيقظ ويصعد إلى الأعلى.

قاما بنزهات رائعة معاً في عطلات نهاية الأسبوع، إلى حديقة حيوانات البرونكس، ومركب ستايتن آيلند، ومتحف القوارب في أعلى مانهاتن. أخذتهما لرؤية والدها وأفيري في كونيكتيكوت، وانسجم كريس وهنري جيداً. ارتدوا هم الثلاثة بذلات تنكرية يوم هالووين، وشاهدوا الاستعراض في الفيلدج. لم تستمتع فرانشيسكا بهذا القدر منذ أعوام. في صباح اليوم التالي، فيما كان إيان مستلقياً في سريره مع بقطينة بلاستيكية مليئة بالسكاكر، صعد كريس إلى الأعلى ليجدها في غرفتها.

قال، وهو يدخل إلى الغرفة: "سأقايضك بلوحين من الشوكولا بالحليب مقابل لوح سنيكرز".

"لا مجال لذلك. فالسيدة في شارع جاين أعطتني ألواح سنيكرز الداكنة. إنها تساوي ستة ألواح شوكولا بالحليب على الأقل، مع كيس من سكاكر

M&M. رأيتك تضع اثنين منها في جيبك في محطتنا الأخيرة".

اتهمها كريس: "أنت مخادعة"، وقبّلها. كان يتوق بشدة إليها. فأعوام الوحدة أثّرت فيه أخيراً. همس لها: "لديّ اقتراح لك" فيما مرر يداً تحت كنزتها، وحبست أنفاسها. "أريد أن أذهب معك بعيداً في عطلة نهاية الأسبوع". لم يجرؤا على إطلاق العنان لشغفهما، مع وجود إيان قربهما، لكنهما أوشكا.

"متى؟".

قال: "الآن!" وضحكت. سيكون إيان معهما لوحدهما خلال عطلة نهاية الأسبوع لأن ماريا وتشارلز إدوار عادا إلى الفيرمونت لتمضية بضعة أيام والعمل على الكتاب. "ماذا عن عطلة نهاية الأسبوع المقبل؟ قد تتولى ماريا الاهتمام بالصبي". بدا يائساً.

"سأسألها حين يعودان".

"لكني أحذرك بأنه إذا لم تقبل ماريا بفعل ذلك، قد يجنّ جنوني وأخلع عنك ملابسك في مكان عام من اختياري".

قالت: "هوّن عليك. سوف نتدبر شيئاً ما"، فيما قبّلا بعضهما. كانا يتوقان إلى عطلة نهاية أسبوع راشدة في مكان ما، حيث لا يضطران إلى الاكتراث للآخرين، والتصرف بحذر، والتفكير في إيان. يحتاجان الآن إلى وقت لنفسيهما. كانا محترمين جداً خلال الشهرين الماضيين. هذا طويل كفاية.

سألت فرانشيسكا ماريا ليلة الأحد عندما عادا إلى المنزل من فيرمونت. وكما هي الحال دوماً، فرحت بتقديم المساعدة. أحبت إيان، ووافقت تماماً على علاقتهما العاطفية.

"إلى أين ستذهبان؟" كانت سعيدة لأجلهما. هناك ثنائيان سعيدان الآن في المنزل. تشارلز إدوار رائع معها، ووعدها بأنه أصلح نفسه. لا يريد أية امرأة أخرى غيرها. لقد أخبرتها فرانشيسكا قبل وقت طويل عن والدها، الذي أصبح مثالياً جداً بعد زواجه من أفيري. أخبرت ماريا أن الأمر يستلزم العثور على المرأة الصحيحة.

"لم نفكر بعد إلى أين سنذهب. أردت أن أعرف إذا كنت تمانعين بالاهتمام بالصبي أولاً". ثم خطرت لماريا فكرة.

"لماذا لا تذهبان إلى منزلي في فيرمونت؟ إنه هادئ ومسالم. إنه جميل في هذه الفترة من السنة، حتى لو كان الطقس بارداً. وهذا أجمل من الفندق".

أحبت فرانشيسكا الفكرة، وكذلك كريس. وضعا برنامجهما. سوف يغادران بعد ظهر يوم الجمعة ويعودان ليلة الأحد. المسافة طويلة، لكنها تستحق ذلك. لم يفكرا في أي شيء آخر طوال الأسبوع، وكانت ماريا منهمكة في إعداد المشاريع مع إيان. سوف يذهبان لحضور فيلم سينمائي، ومسرحية، وزيارة متحف. كان إيان مسروراً، وبالكاد استطاع كريس وفرانشيسكا الانتظار. طلبت فرانشيسكا من أحد فنانيها العمل مكانها في المعرض الفني. ثم تدبر أمر كل شيء.

بدا الأمر أشبه بمشهد هروب في فيلم سينمائي فيما ابتعدا عن المنزل في شارع تشارلز في وقت متأخر من بعد ظهر يوم الجمعة. كانت زحمة السير خانقة، لكن لم يهتم أي منهما. تجاهلا تلك الزحمة. حتى إيان لم ينتبه عندما غادرا. قبّلهما، ولم يسألهما حتى إلى أين سيذهبان في عطلة نهاية الأسبوع. كان مشغولاً جداً مع ماريا. ووعده كريس بالاتصال به.

بدأ يضحكان فيما غادرا المدينة، وهنأ بعضهما على نجاح مشروعهما.

قالت فرانشيسكا مع تنهيدة ارتياح فيما انطلقا في السيارة: "خشيت طوال الأسبوع أن يحصل شيء ولا نتمكن من الذهاب. مثل إصابة إيان بجديري الماء".

اعترف كريس: "وأنا أيضاً. كنت واثقاً بأن أحداً منا سيمرض، أو لا تتمكن ماريا من الاهتمام بإيان، أو تخرج كيم من السجن أو يجنّ جنونها. لدينا يومان كاملان لنا! لا أصدق ذلك".

"ولا أنا". كانت تبتسم ابتسامة عريضة.

حتى الرحلة كانت مريحة وممتعة. توقفا في مطعم صغير وتناولا العشاء. ثم تابعا الطريق للوصول إلى فيرمونت. وصلا إلى منزل ماريا مباشرة

قبل منتصف الليل. كان منزلاً صغيراً جميلا مع أشجار أوركيدة طويلة، وحدائق جميلة. تحمس كريس وفرانشيسكا لوجودهما هناك. تمضي ماريا مع تشارلز إدوار أوقاتاً رائعة هنا في الآونة الأخيرة، وأحب المكان. إنه بديل مثالي لحياتهما المدنية في نيويورك. في فرنسا، يملك مزرعة في النورماندي، أعطاها لزوجته. أراد شراء واحدة جديدة مع ماريا، عندما يزوران فرنسا الصيف المقبل. أحب الريف أكثر من الشاطئ. أحب منزلها في فيرمونت.

بدا مثل منزل لشهر العسل فيما فتح كريس قفل الباب الرئيس وأطفأ جهاز الإنذار. نظرت فرانشيسكا من حولها إلى كل أغراض ماريا الجميلة. ثمة غرفة جميلة مع ألواح خشبية وموقد. وفي الأعلى، كشفت غرفة الضيوف عن سرير كبير منجّد. وضعا حقائبهما أرضاً، وقبل أن تتمكن فرانشيسكا من نزع معطفها، وضعها كريس على السرير وراح يقبّلها. كانا منقطعي الأنفاس ومليئين بالشغف خلال دقائق قليلة. انتظرا هذا طويلاً، وأرادا بعضهما بشدة خلال الأسابيع الماضية. توخيا الحذر من أجل إيان، لكن لا توجد أية قيود مفروضة عليهما الآن.

قال كريس: "أظن أني عجوز جداً على هذا"، وحاول التقاط أنفاسه فيما استلقت فوقه، والعرق يتقطر منها، مع عينين مغمضتين، وابتسامة كبيرة على وجهها.

كان الانتظار يستحق العناء، وتقلبا في السرير ونظرا إلى بعضهما. سألته: "هل تعتقد أن الأمر هكذا مع تشارلز إدوار وماريا؟"، وهي متكئة على كتف واحد، تتأمله، فيما مررت إصبعها بتكاسل فوق صدره، وضحك.

"أتمنى ألا تكون الحال هكذا، وإلا يموتان". قبّلها حينها، وداعبته. كان مكتفياً تماماً، لكنه شعر بالإثارة بسهولة مجدداً. في صباح اليوم التالي، لم يشأ أي منهما النهوض من السرير. أرادا فقط الاستلقاء في ذراعي بعضهما البعض.

نزلت فرانشيسكا إلى الأسفل لتحضير القهوة، وكانت هناك بعض اللفافات في الثلاجة فقامت بتسخينها في المايكروويف. ثم عادا إلى السرير.

لا يوجد أي منزل حولهما لمسافة أميال عدة، وكان المنظر جميلاً. نهضا أخيراً من السرير وتنزها حول المنزل، فقط ليخبرا ماريا أنهما فعلا ذلك، ثم عادا إلى السرير بعد ظهر ذلك اليوم.

ثم اتصلا بماريا لشكرها على المنزل وإخبارها كم أحباه.

قالت بسعادة: "أنا مسرورة لأنه أعجبكما. إنه رومنسي جداً، أليس كذلك؟" ضحكت مثل الفتاة الصغيرة، وابتسمت فرانشيسكا.

وافقتها الرأي. "نعم صحيح".

"لم أدرك أبداً ذلك إلا في الآونة الأخيرة. ظننت أنه مجرد منزل جميل".

عرفت فرانشيسكا أنهما لن ينسيا أبداً الأيام التي أمضياها هنا. أجبرا نفسيهما على الذهاب إلى مطعم محلي لتناول العشاء، حيث قالت ماريا إن الطعام ممتاز، وكانت محقة. وقاما بعد ذلك بنزهة بين أشجار الأوركيدة تحت ضوء القمر، ثم عادا وجلسا على المصطبة، وتعانقا وقبّلا بعضهما. لم يشأ أي منهما العودة إلى نيويورك. أرادا البقاء هنا إلى الأبد. حسدت فرانشيسكا ماريا على المنزل، وأرادت تمضية أسابيع هنا مع كريس وليس فقط أياماً قليلة.

ابتسمت فيما نظرت إليه، وجلسا على المصطبة يتأرجحان ويتمايلان ببطء. "هل تعلم شيئاً؟ بالنسبة إلى اثنين يخافان من العلاقات العاطفية، أعتقد أننا أنجزنا عملاً ممتازاً. ما رأيك؟".

اعترف مع ابتسامة عريضة: "أظن أنك تحولينني إلى مهووس فيك. فهذا كل ما أستطيع التفكير به. هل تضعين شيئاً في طعامي؟".

"نعم، ملح بيتر. بالكاد أستطيع الجلوس". ضحكا. إنها عطلة نهاية أسبوع مثالية وما يحتاجان إليه بالضبط. إنه الرابط الأخير ببعضهما، والوحيد الذي كانا يفتقدان إليه. فقد امتلكا الصداقة التي تعززت على مدى أشهر عديدة، والعلاقة الرومنسية التي توطدت بينهما منذ الصيف، والآن هذا، اتحاد الجسدين لتكملة ما يشعران به تجاه بعضهما البعض. لقد اكتملت دائرة حبهما.

سألها فيما أمسك بها: "هل ترغبين يوماً في الزواج، فرانشيسكا؟".

"لم أفعل ذلك قبلاً. كنت أخشى أن أنتهي مثل أمي، وأتزوج أربع عشرة مرة".

مازحها قائلاً: "كوني لطيفة. خمس مرات فقط".

"تصورت أن مرة واحدة كثيرة أصلاً. فقد خان والدي كل النساء، وتزوجت أمي كل الرجال. لم أشأ أبداً أن أفعل مثلهما، وكنت أخشى إنجاب الأولاد. بدا هذا كثيراً جداً عليّ. ماذا لو أفسدته؟ تدمّر بذلك حياة إنسان".

صعق كريس بسخرية ذلك، فيما أصغى إليها. كانت لتشكل أماً رائعة، لكنها لم تنجب الأولاد لأنها خافت إيذاء أحد أو ارتكاب خطأ. وكيم، التي هي بمثابة حقل ألغام وكارثة إنسانية، لم تتردد في إنجاب إيان، وأرادت المزيد. لكن حين أدرك كم هي امرأة فاسدة، لم يسمح لها كريس، بالرغم من أنه أحب هو أيضاً إنجاب المزيد من الأولاد. "أعتقد أن إيان هو أول ولد جعلني أرغب بالإنجاب. لكني ما زلت غير مقتنعة بضرورة الزواج لإنجاب الأولاد. فهذه معضلة مزدوجة ولست مستعدة لمواجهتها".

"أعتقد أن الأمر سيكون أفضل لو فعلت ذلك. فهذا تعبير عن الالتزام بالشخص الآخر والوثوق به". فكّر في الأمر لدقيقة ثم هزّ كتفه. "وما أدراني أنا؟ انظري كم كان زواجي كارثياً". لكن انظروا إلى من كان متزوجاً.

"من المفيد ربما إذا تزوجت الشخص الصحيح".

"لم يكن بوسعي الزواج من امرأة أسوأ. لا بد أني كنت أعمى، لكنها أجادت التلاعب بي، وكنا صغيرين في السن. أصبحت أعرف الأمور بشكل أفضل الآن".

"هل تفكر في الزواج مجدداً؟" لم تظن أنه سيفعل ذلك وصعقت بجوابه.

أجاب بهدوء: "أتزوج مجدداً بك"، ولم تجبه. ساد صمت طويل جداً قبل أن تجيب.

"هذا يرعبني. لا أريد إفساد ما هو بيننا".

"إذا كان صحيحاً، تتحسن الأمور. وإذا كان خاطئاً، تتمنين لو أن أمك لم تلدك. لا أتخيل أنني أشعر هكذا معك". قبّلته ووضعت إصبعاً على شفتيه حينها. لم تشأ أن يقول لها أي شيء ليست مستعدة لسماعه. لكنه أخبرها أنه يحبها تلك الليلة، في السرير الكبير الرباعي الأعمدة. وأخبرته أنها تحبه هي أيضاً.

استيقظا حين أشرقت الشمس في صباح اليوم التالي، وتناولا الفطور على المصطبة. كان الطقس بارداً، والهواء لاذعاً، وشربا القهوة وهما يرتديان ثوبي النوم، ثم جلسا على المصطبة يتأرجحان مجدداً تحت بطانية. كانت تفكر في حديث الليلة الماضية، عن الزواج، لكنها لم تذكر له الأمر، ولا هو. خطر الأمر أيضاً في بال كريس، لكنه لم يشأ توتيرها، ولذلك لم يتطرق إلى الموضوع مجدداً.

غسلا أطباقهما، وتركت لها فرانشيسكا رسالة على طاولة المطبخ. "شكراً لك على أجمل عطلة نهاية أسبوع في حياتي". نظر إليها كريس وشطب آخر كلمة وكتب مكانها "حياتنا". ابتسمت وقبّلته.

قالت له: "شكراً لك أنت أيضاً" فيما حمل حقائبهما إلى السيارة.

شغلا جهاز الإنذار وأقفلا الباب. انطلقا في السيارة فيما كانت الشمس تشرف على المغيب، وانحنت فرانشيسكا وقبّلته، فابتسم. "أحبك، كريس".

"أحبك أيضاً فرانشيسكا". تمدد ولمس وجنتها، وانطلقا بصمت لبعض الوقت. هناك الكثير للتفكير فيه، وتذكره. بدا كل شيء وكأنه يجري مثلما يفترض. لم يشعر أي منهما هكذا من قبل.

الفصل التاسع عشر

خلال الأسابيع القليلة التالية، لم يستطع كريس وفرانشيسكا إلا التفكير في عطلة نهاية الأسبوع الرائعة التي أمضياها في فيرمونت. تحمست ماريا لأنهما استخدما المنزل وقالت إنه بوسعهما الذهاب إلى هناك في أي وقت يريدانه.

أرادا التصرف باحتشام إلى حين تمكنهما من الابتعاد مجدداً عن المنزل، لكنهما أدركا في اليوم التالي كم هذا مستحيل بالنسبة إليهما معاً. انتظرا حتى خلد إيان إلى النوم، ثم تسلل كريس إلى الأعلى ليكون معها. أقفلا باب غرفتها وأعادا ما فعلاه في فيرمونت. وبعد ذلك، نزل إلى الأسفل للتواجد مع إيان.

تذمر كريس ذات ليلة حين توجب عليه تركها. كره النهوض من السرير، والنزول إلى الأسفل وتمضية الليل من دونها. لكنهما لا يملكان أي خيار آخر.

قالت له بمنطق: "لا يمكنك الانتقال إلى هنا وتركه في الأسفل. سوف يستاء منا".

"أعرف. لكني أشتاق إليك حين أكون في الأسفل. أنت بعيدة جداً عني". أحبت شعوره هذا، وأحست هي بالشيء نفسه أيضاً.

تأخرا في النوم صباح أحد الأيام، وكاد إيان أن يكشفهما. اتصلت بماريا على هاتفها الخلوي وطلبت منها إنزاله إلى المطبخ. وبعد دقائق قليلة، دخل كريس والجريدة تحت إبطه، وزعم أنه كان يحضرها من الخارج. لم يشك إيان أبداً في أنه كان في الأعلى في السرير مع فرانشيسكا. ولولا مساعدة ماريا، لكشف أمرهما.

في بعض الأحيان، كانا يستحمان معاً في مغطسها الكبير ويتحدثان. وفي معظم الأوقات، كانا ينتهيان بعد ذلك في السرير. إنها أيام ذهبية فعلاً. إنه شهر نوفمبر عرفا أنهما لن ينسياه أبداً. وكل من في المنزل كان متحمساً لمناسبة الشكر.

أعلنت تاليا لفرانشيسكا أنها ستمضي المناسبة مع أصدقاء لها في سان فرانسيسكو. ثمة رجل يريدونها أن تلتقي به هناك وهو يملك يختاً كبيراً. سيذهب والدها وأفيري إلى صان فالي لتمضية المناسبة مع أصدقاء قدامى. أما عائلة كريس فستجتمع في مارثاز فينيارد خلال العطلة، مثلما تفعل دوماً، لكنه قال إنه يريد البقاء في نيويورك معها هذه السنة. عرض تشارلز إدوار وماريا تحضير عشاء الحبش التقليدي، ووافق كريس وفرانشيسكا بحماس. فرانشيسكا لا تملك أي مكان للذهاب إليه، ولا يريد كريس الذهاب إلى منزله. أراد تمضية المناسبة مع فرانشيسكا وإيان، في المنزل. فالمنزل في شارع تشارلز بات منزلهما الآن.

الوجبة التي حضرها لهم تشارلز إدوار وماريا كانت وليمة حقيقية. فقد كانت هناك كل أنواع الخضار والزينة، مع ديك حبش يبدو مثل صورة فوتوغرافية في مجلة، وبعض اللمسات الفرنسية بامتياز. ثمة أمور أخرى تقليدية، مثل التوت البري، وهريسة الكستناء، والبطاطا المهروسة، والبسكويت، والبازيلا، والجزر، والسبانخ، والهليون مع الصلصة الهولندية المذهلة التي تحضرها ماريا. إنها بلا شك أفضل مناسبة شكر حصل عليها الأميركيون في المجموعة. بالكاد استطاعوا التحرك عندما نهضوا عن الطاولة، ووقف تشارلز إدوار وكريس في الحديقة، يدخنان السيجار ويشربان شاتو ديكويم، المشروب المفضل لديهما. لا شك في أن تشارلز إدوار عرّفهم على بعض الأشياء الراقية في الحياة. أحبّ كريس سيجاره الكوبي، لكنه لم يدخنه أبداً في المنزل، وإنما فقط بعد وليمة كبيرة، مثل الآن.

نظفت ماريا وفرانشيسكا المطبخ، ونام إيان على السرير في غرفة ماريا، وهو يشاهد التلفزيون. عرّف كريس تشارلز إدوار على كرة القدم

الأميركية، وكانوا مجموعة حميمة. لم يعودوا أربعة غرباء مثلما كانوا في البداية. أصبحوا ثنائيين مع ولد. إنهم مجموعة متحدة من الأشخاص الذين يحبون بعضهم البعض. بالنسبة إلى فرانشيسكا، إنها مناسبة شكر مليئة بالنعم. فبالرغم من مأساة إيلين في نهاية الصيف، كانت سنة جيدة.

ولم تكن فرانشيسكا مستعدة للإعلان الذي أصدره ماريا وتشارلز إدوار بعد انتهاء العشاء. نظرت إليه ماريا بتعبير متردد، وأومأ برأسه.

قالت والدموع في عينيها: "سنعود إلى فرنسا".

سألتها فرانشيسكا: "لتمضية الكرسمس؟". بدا الأمر ممتعاً لها، لكن ماريا هزّت رأسها.

قالت: "لمدة ستة أشهر، أو سنة. يتوجب على تشارلز إدوار إنجاز بعض الأعمال. يريد إغلاق مطعمه، والعثور على شيء آخر. يحتاج إلى إنهاء تفاصيل تقسيم الملكية مع زوجته. ونحتاج إلى المزيد من الوقت في البروفانس لإنهاء الكتاب. استأجرنا منزلاً هناك. أتمنى أن تأتوا لزيارتنا"، ونظرت من فرانشيسكا إلى كريس، والدموع تتلألأ في عينيها. لا تريد المغادرة. لكنها أصبحت الآن نصفاً من ثنائي، ولا تريد أيضاً أن تبقى هنا من دونه. إنه قدر أسوأ من تمضية سنة في فرنسا، أو حتى الانتقال إلى هناك، الأمر الذي كانا يناقشانه أيضاً.

بدت فرانشيسكا مصدومة وحزينة جداً. "هل ستبيعين المنزل في فيرمونت أيضاً؟". لكن ماريا هزّت رأسها.

"لا أستطيع. يمكنكما استخدامه في أي وقت تريدانه. وعدني تشارلز إدوار أننا نستطيع تمضية شهر هناك خلال الصيف المقبل. لا أظن أننا سنعود قبل ذلك الحين". حياته الحقيقية في فرنسا، وقد أمضى الأشهر الأربعة الماضية في الولايات المتحدة من أجل ماريا، لكنه يحتاج إلى العودة. هناك الكثير لفعله هناك، وعمل لإدارته أو بيعه. فقد بدأت الأمور تخرج عن مسارها في غيابه. عليه العودة واتخاذ بعض القرارات.

لا تتخيل فرانشيسكا المنزل من دونها الآن، ولا كريس أيضاً. وعرف أن إيان سيحزن كثيراً أيضاً. إنها مثل الجدة بالنسبة إليه، لا بل أكثر لطافة وتوافراً بشكل يومي من جدّتيه الحقيقيتين. إنه الحفيد الذي لم تحصل عليه أبداً، خصوصاً وأن تشارلز إدوار لم ينجب الأولاد أيضاً.

قالت: "أريد أن تعداني بأن تذهبا لزيارتنا، متى شئتما. نحن عائلة الآن"، وعانقتهما. يشعران بالشيء نفسه أيضاً.

صعدوا بعدها إلى غرفة جلوس فرانشيسكا للتحدث عن مشاريعهم. وضع كريس إيان على سريره لينام، ولم يتحرك الولد أبداً حين نقله إلى الأعلى. ثم نزل وأشعل الموقد.

سألتهما فرانشيسكا إذا كانا سيتزوجان، وابتسمت ماريا. "ليس بعد. لكن تشارلز إدوار أحسن التصرف لغاية الآن! أنا متأثرة فعلاً". وكذلك هو. لا يزال فرنسياً جداً في كل النواحي الجيدة، لكن بدا أنه بات قادراً على ضبط عينه. فهو لا يرى الآن إلا ماريا. تثق به تماماً، وأكّد لها أنها محقة في ذلك. لم يقل ذلك أبداً لزوجته. كان رجلاً صادقاً، حتى لو لم يكن رجلاً مخلصاً إلا الآن. لطالما اعترف بعلاقاته الغرامية عند سؤاله. لم يكذب على آريد، ولن يكذب الآن على ماريا.

قالت ماريا إنهما اتخذا قرار العودة إلى فرنسا في الأسابيع القليلة الماضية. وكان قراراً صعباً بالنسبة إليها. إلا أنه منطقي ومناسب لهما معاً، وهو بمثابة حياة جديدة بالكامل لها، ولهما.

سألت فرانشيسكا بحزن واضح: "متى ستغادران؟".

"خلال شهر. يريد تشارلز إدوار العودة إلى باريس قبل الكرسمس. قد نغادر في الثالث والعشرين من شهر ديسمبر". عرفت فرانشيسكا أن ذلك يعني التخلي عن غرفتهما في شارع تشارلز. لا يحتاجان إلى غرفة في نيويورك إذا كانا سيعيشان في باريس. يستطيعان المكوث معها إذا عادا، لكن لا داعي لأن يدفعا إيجاراً في نيويورك. سيكون هذا تحدياً مادياً بالنسبة إلى فرانشيسكا، لكنها لن تفكر هذه المرة في بيع المنزل. فهي وكريس وإيان

سعداء هنا. عليها إيجاد طريقة لإنجاح الأمر. إلا أنها لا تريد إحضار رفقاء في المسكن مجدداً. لن تكون هناك أبداً ماريا أخرى. ولا تريد المجازفة بإيلين أخرى. فقد كانت الصدمة كبيرة كفاية.

قالت فرانشيسكا بحزن: "أتمنى أن تمكثا هنا حين تأتيان إلى نيويورك"، وعانقتها ماريا.

"سنفعل. وأنتما تملكان منزلاً معنا في باريس. يمكنكما إرسال إيان للزيارة في أي وقت. سيكون الأمر رائعاً لنا، ومثيراً له"، قالت لكريس.

سألتها فرانشيسكا: "هل تظنين أنكما ستعودان مجدداً للعيش في الولايات المتحدة إذا تزوجتما؟".

"لا نعرف. يرتبط ذلك بما سيفعله تشارلز إدوار حين ينظم عمله". عليه إجراء بعض التعديلات بعد إعطاء نصف ما يملك لزوجته السابقة، الأمر الذي بدا عادلاً بالنسبة إليه. الطلاق مكلف. لم يتذمر أبداً من الأمور، حتى أمام ماريا.

إعلانهما كان تغيراً كبيراً، ومرارة حلوة لجميعهم. إنهم يخسرون أصدقاء محبوبين، أو على الأقل بشكل يومي. وبات تشارلز إدوار جزءاً من عائلتهم الآن.

بكى إيان حين أبلغوه بالأمر في صباح اليوم التالي، وشعرت فرانشيسكا برغبة في فعل ذلك أيضاً. كانت مكتئبة جداً منذ أن أعلنت ماريا الخبر. ولا يريدهما إيان أن يغادرا. قالت له ماريا إنه يستطيع الذهاب لزيارتهما في باريس ورؤية برج إيفل وقوس النصر والركوب في الباتو موش في نهر السين.

قال بحزن: "لكني لا أتحدث الفرنسية".

طمأنته قائلة: "الكثير من الأشخاص في باريس يتحدثون الإنكليزية، وسوف نساعدك أنا وتشارلز إدوار. سنهتم بك، وأريد أن يأتي والدك وفرانشيسكا أيضاً". أومأ برأسه، لكنه لم يكن مقتنعاً. فرنسا بعيدة جداً، وإيان يحبهما كثيراً، وهما يحبانه.

يوم الأحد، وجد كريس فرانشيسكا منكبّة فوق الفواتير في مكتبها. ذكّرها ذلك بالأيام التي كانت تحاول فيها إنقاذ منزلها وعملها، وخشيت ألا تنجح في أي من ذلك. فرحيل ماريا عن المنزل سيجعل الأمور صعبة جداً. كانت تتصارع مع الأرقام مجدداً، ولا تبدو الأرقام جيدة. لم تؤجر غرفة إيلين مجدداً، ولا تنوي فعل ذلك. تم إغلاق الطابق العلوي منذ شهر أغسطس، وأرادت فرانشيسكا إبقاءه على هذا النحو. فالذكريات في تلك الغرفة مريعة جداً، ولا تريد أياً كان هناك، احتراماً منها لإيلين. الغرف نظيفة وفارغة ومقفلة. لم تدخل إليها منذ الجريمة. ولم يخضع براد للمحاكمة ولن يحصل ذلك ربما قبل أشهر عدة. بقيت الشرطة على اتصال بها. فكرت غالباً في الاتصال بوالدة إيلين، لكنها لم تفعل ذلك أبداً. أحست أنهم لن يرحبوا باتصالها. تنوي إرسال بطاقة مواساة لهم خلال الكرسمس، وقد أرسلت لهم قبلاً رسالة عزاء نابعة من القلب عندما توفيت إيلين، وأخبرتهم فيها كم كانت فتاة رائعة. إلا أنهم لم يجيبوا أبداً. لا يعرفون ربما ماذا يقولون أو كيف يفعلون ذلك.

لاحظ كريس تعبيرها القلق فيما راجعت فرانشيسكا فواتيرها.

"أخبار سيئة؟".

"نوعاً ما. لا أعرف لماذا، لكننا واجهنا شهراً سيئاً في المعرض الفني خلال شهر نوفمبر. لم نبع أي شيء تقريباً. شهر أكتوبر كان رائعاً، وشهر سبتمبر جيداً جداً. كلما فكرت في أننا أصبحنا على أسس صلبة، ينزلق شيء ما. لا أملك الكثير من المال المدخر لتغطية ذلك، وما زلت أدفع فاتورة السمكري نتيجة الارتشاح الكبير". ألفا دولار هما مبلغ كبير جداً دفعة واحدة بالنسبة إليها. سمح لها السمكري بتقسيط المبلغ على دفعتين، وهذا جيد، لكن عليها دفعه في أية حال. قالت بحزن: "مغادرة ماريا هو نوع من الصفعة الكبيرة، على صعد عدة وليس فقط على صعيد واحد. سوف أشتاق إليها كثيراً". إنها الآن بمثابة أم بديلة وصديقة لها، وهي رائعة في كلا الدورين. أحبت فرانشيسكا التحدث معها كل يوم. جميعهم يحبون هذا. "ولا أريد تأجير

غرفة إيلين مجدداً. لا أستطيع ذلك. ولن يرغب فيها أحد على كل حال. فما حصل هناك كثير على أي كان ليرغب في العيش في تلك الغرفة. ولا أريد استقبال غرباء مجدداً. فهذا محفوف بالكثير من المخاطر". في النهاية، قررت أن أمها كانت محقة لمرة واحدة، بالرغم من أنها كانت محظوظة. لكن بدا الأمر الآن محفوفاً بالكثير من المخاطر، وتطفلياً جداً.

قال ممازحاً: "لقد توفقت معي"، وابتسمت. إنها سعيدة جداً معه.

"نعم، صحيح". لكنها ستخسر الآن ثلثي مدخولها من المنزل، مع مغادرة ماريا ورحيل إيلين. هذا عبء كبير بالنسبة إليها، ويجعل الأمور صعبة جداً عليها من جديد. على كل حال، كان عقد إيجار ماريا سينتهي قريباً. وكذلك عقد إيجاره.

سأل، وهو يشعر بالفضول: "كيف تدبّرت أمرك حين كان تود هنا؟" لم يطرح عليها هذا السؤال أبداً من قبل.

"دفع كل منا نصف قسط الرهن. كان الأمر صعباً، لكني تدبرته، ونجح الأمر. لكني لا أستطيع فعل ذلك الآن".

"ماذا لو تشاركته معك، ولا نؤجر الغرف لأي كان، ونعيش هنا مثل عائلة، نحن الثلاثة".

قالت بتأمل: "سيكون هذا جيداً، لكني لا أعتقد أنه عادل بالنسبة إليك. فأنت تعيش فقط في غرفتين". ضحك عندما قالت ذلك.

"كنت أفكر في أن أنتقل للعيش معك في الأعلى، إذا أعجبتك هذه الفكرة. ويستطيع إيان البقاء في غرفتي. أستطيع حتى دفع ثلثي القسط إذا أردت، لأننا اثنان وأنت واحدة فقط". كان كريماً وعادلاً، وأراد تسهيل الأمور عليها. يستطيع تحمل ذلك. لقد عاش ببساطة وما من شيء متعجرف فيه. فعمله في التصميم الهندسي جيد جداً، وشكت في أنه يملك مالاً من العائلة، نظراً لمن تكون عائلته. كان شخصاً متواضعاً، لكنه ليس مضطراً للكفاح بقدرها. بالنسبة إليها، كل الأمور صعبة، ولا تريد بيع آخر لوحة من لوحات والدها إذا لم تكن مضطرة لذلك. لا تزال حزينة لأنها باعت اللوحات الأخرى.

قالت فرانشيسكا بحذر، وهي ممتنة لمساعدته: "أظن أنه يجدر بنا تقاسم الإيجار بالنصف، إذا رغبت في ذلك. يمكننا تحويل كل جناحك إلى غرفة لإيان، مع غرفة للعب، واستخدام غرفة الجلوس في الأسفل، والنوم في غرفتي. ويمكننا تحويل غرفة ماريا إلى مكتب صغير لك. سيكون مكتباً جميلاً". إنها غرفة مشمسة ومشرقة مطلة على الحديقة. مازحته قائلة: "يمكنك تدخين السيجار الكوبي هناك". لكن هذا منطقي وممكن.

قال كريس ببساطة: "أحب هذه الفكرة. لا أريدك أيضاً أن تأخذي مستأجرين جدداً. أعتقد أن هذا محفوف كثيراً بالمخاطر". على الأقل، أصبح المنزل لها الآن. إذا غادر كريس، وانفصلا، ستفكر مجدداً في استقبال رفقاء في المسكن. لكن إذا دفع النصف، ليست مضطرة لفعل ذلك الآن.

قالت فرانشيسكا مجدداً بامتنان: "هذا جيد. بدأت أقلق". لاحظ فعلاً ذلك، وأسف لأن الأمور صعبة عليها هكذا. لقد أحس أن مغادرة ماريا ستفرض عبئاً إضافياً عليها، لكنه لم يدرك فداحة ذلك العبء. عاشت فرانشيسكا مع القليل من المال المدخر. وأراد كريس مساعدتها. سيتقاسم قسط الرهن معها، بالرغم من أن هذا يضاعف قيمة إيجاره، لكنه يستطيع استخدام المنزل كله الآن. وسيعيشان هناك مثل ثنائي مع ولد، وليس فقط أربعة رفقاء في المسكن. قال ببساطة: "لديّ بعض الأفكار الأخرى لتسهيل الأمور عليك. نستطيع ربما التحدث عن هذا في وقت آخر". أومأت برأسها، متسائلة عن طبيعتها. إلا أنه حلّ لها مشكلتها الآن، وشعرت بالكثير من الامتنان.

سألتها ماريا إذا كانت ستكون بخير فيما حضرتا العشاء تلك الليلة. "أشعر بالأسى لأني سأتركك بعد فترة وجيزة جداً، لكن تشارلز إدوار فاجأني نوعاً ما بالموضوع قبل أسابيع قليلة، ولم أوافق عليه إلا الأسبوع الماضي. هل ستكونين على ما يرام هنا؟".

قالت فرانشيسكا، وهي تبدو مرتاحة: "نعم. سيساعدني كريس".

"آملت أن يفعل ذلك. ما هي مشاريعكما الآن؟".

ابتسمت لها فرانشيسكا. "لا مشاريع في الوقت الحاضر. سنعيش هنا فقط ونأمل حصول الأفضل ونرى كيف تتطور الأمور". أملت ماريا في أن يتزوجا في النهاية، وأملت فرانشيسكا الشيء نفسه لها. أراد تشارلز إدوار الزواج منها فور انتهاء طلاقه. ستذهب أوراق فسخ الزواج إلى المحكمة خلال أسابيع قليلة، ليصادق عليها القاضي، ويصبح بعدها طليقاً. لكن ماريا غير مستعجلة. ولا فرانشيسكا. لقد تفادت الزواج طوال حياتها، ولا تريد تبديل رأيها الآن، مهما أحبت كريس، وهي تحبه كثيراً. "لا أريد أن أصبح مثل أمي". لقد قالت هذا لماريا قبلاً، وكذلك لكريس.

طمأنتها ماريا: "لا يمكن أن تكوني مثلها بعد مليون سنة. إنها امرأة مختلفة جداً عنك. أنا أستلطفها، لكنك لا تنتمين إلى الفئة نفسها مثلها". عرفت ماريا حقيقة تاليا، امرأة تافهة، ومدللة، وأنانية وسطحية، حتى لو كانت مسلية، وتسخر من نفسها نوعاً ما. لكن ماريا احترمت فرانشيسكا كثيراً، وأحبتها، مثل ابنة أو ابنة أخت. "حتى لو تزوجت عشر مرات، لن تكوني أبداً مثلها".

"أفضل ألا أجازف بذلك. أتساءل دوماً ما إذا كانت ستعثر على ضحية جديدة. إنها تبحث عن الرقم ستة منذ أعوام عدة. تظنين أنها ستسأم وتنسى الأمر، لكنها لا تفعل ذلك أبداً. تريد الزواج مجدداً حتى لو أصبحت في التسعين". ضحكتا وشكتا في صحة ذلك.

تحدثت مع كريس عن مشاريعهما للمنزل تلك الليلة. تساءلت متى سيخبران إيان.

"هل تظن أنه سينزعج إذا انتقلت إلى الأعلى معي؟". بدت قلقة، وقبّلها كريس.

"توقفي عن القلق. سيتحمس للحصول على غرفة لعب خاصة به. سأشتري له تلفزيوناً كبيراً ليشاهد الأفلام. وسنكون فوقه بطابق واحد فقط". تحمسا لتشاركهما غرفة نوم واحدة أخيراً. أصبحت حياة حقيقية، وليس مجرد علاقة عاطفية.

هناك الكثير من الأمور للتفكير بشأنها والحديث عنها، وذكّرته فرانشيسكا أنهما سيذهبان في عطلة نهاية الأسبوع التالية إلى ميامي لحضور معرض بازل للفنون. إنه أحد أرقى المعارض الفنية في العالم، والثاني فقط بعد الذي يقام في بازل، سويسرا، خلال شهر يونيو. هناك أيضاً عشرات المعارض الفنية الصغيرة الأخرى التي ستقام في ميامي في عطلة نهاية الأسبوع المقبلة أيضاً. تحرقت فرانشيسكا شوقاً، وسيذهب كريس معها. لا تزال متأثرة بانتقال ماريا إلى باريس، وخصوصاً بعد فترة وجيزة جداً، لكن هناك الكثير من الأمور الأخرى الممكن التطلع إليها، وحياتهما معاً بدأت حديثاً.

أرادها أن تذهب معه إلى بوسطن لتكون مع عائلته في الكرسمس. قالت فرانشيسكا إنها موافقة، وأرادها إيان أن تذهب أيضاً، لكن مجرد التفكير في ذلك أخافها كثيراً. ماذا لو كرهوها أو اعتبروها غير مناسبة كفاية له؟ إنها مجرد وكيلة فنون صغيرة في الويست فيلاج، وابنة فنان مشهور. أما عائلته فمليئة بالأشخاص المهمين.

طمأنها كريس: "سيحبونك. أعدك". قررت تأجيل القلق بشأن ذلك إلى حين العودة من ميامي. فبين مغادرة ماريا، ثم تبديل تقسيم المنزل، وتمضية الكرسمس مع عائلته، والمعرض الفني في ميامي خلال أقل من أسبوع، سيكون شهر ديسمبر مزدحماً.

الفصل العشرون

وافق ماريا وتشارلز إدوار على الاهتمام بإيان، حين غادر كريس وفرانشيسكا إلى ميامي في عطلة نهاية الأسبوع. تحرقت شوقاً لرؤية المعارض الفنية المختلفة. هناك سكوت وريد دوت، وأربعة عشر معرضاً فنياً آخر، إضافة إلى معرض بازل للفنون، الأرقى في العالم. الأعمال المعروضة هناك تباع بثروة كبيرة. وكيل أعمال والدها يملك منصة في المعرض، ويزوره والدها وأفيري كل عام، وقد وعدت بالاتصال بهما. ستمكث فرانشيسكا وكريس في فندق ديلانو، أحبه كريس عندما رآه. كل واحد من المصاعد مضاء بلون مختلف، وتولى فيليب ستارك تصميم الغرف. كان الطقس دافئاً عندما وصلا، وكان كريس يتوق لتمضية بعض الوقت قرب حوض السباحة. أرادت فرانشيسكا الذهاب مباشرة إلى المعرض والانطلاق. سيريان خلال الأيام القليلة المقبلة أعمالاً فنية أكثر مما يرى معظم الأشخاص خلال أعوام عدة.

أقيم معرض بازل للفنون في مركز المؤتمرات في ميامي بيتش في قاعة كبيرة، فيما جرى توزيع المعارض الأخرى على الأيس بالاس ومواقع أخرى مختلفة في المدينة. بعض المعارض الفنية الأصغر حجماً أقيمت في فنادق، واستأجر كل غرفة وكيل أعمال مختلف. وأقيمت حفلات راقصة في عشرات المواقع، في مراكز ديسكو وفنادق ومطاعم. تلقت فرانشيسكا كدسة من الدعوات. كان هذا تعريف كريس على عالم الفنون الجدي. تحمس لمشاركة ذلك معها، وكان راغباً في وضع نفسه في تصرفها. إلا أنه أوقفها قبل أن يغادرا الغرفة، وانتهيا في السرير لمدة نصف ساعة. إنها طريقة جميلة لبدء الرحلة. استحما، وبدّلا ملابسهما، وخرجا.

استقلا سيارة أجرة من الفندق، وتوجها إلى مركز المؤتمرات. ثمة مبنى منفصل للفنانين الشبان والأعمال التجريبية. حلم فرانشيسكا هو أن تعرض في أحد هذه المعارض الصغيرة في ميامي يوماً ما. تنوي التقدم إلى معرض ريد دوت السنة المقبلة، لكنها لا تشعر أنها مستعدة لذلك بعد. وتوقعت البقاء لسنوات عدة على لائحة الانتظار. فالمشاركة في المعارض الفنية أمر سياسي، ويعتمد غالباً على الأشخاص الذين تعرفهم. تعرف الكثير من الأشخاص عن طريق والدها، لكنها لم تجرب الأمر بعد. ستلجأ إليهم إذا اضطرت لذلك.

قالت لكريس: "لا أخشى أبداً الدفاع عن الفنانين لديّ"، وضحك فيما خرجا من السيارة أمام القاعة العملاقة. تملك إذناً بالدخول من وكيل أعمال والدها، وبعد دقائق قليلة، راحا يتجولان بين الأجنحة، ويتوقفان أمام كل محطة للتحقق من الأعمال الفنية المعروضة. ذهل كريس بما رآه. هناك عدد لامتناهٍ من الوكلاء الفنيين التقليديين، الذين يبيعون أعمالاً مهمة. رأى ثلاث لوحات لبيكاسو في أقل من خمس دقائق، بأسعار خيالية. شاهد لوحة لكل من ماتيس وشاغال، ولوحتين لدو كونينغ، ولوحة لبولوك، ولوحتين لوالدها معروضتين عند وكيل أعماله. الأولى عليها نقطة حمراء، ما يعني أنه تم بيعها. الثانية عليها نقطة بيضاء، ما يعني أنها محجوزة لزبون. عليك امتلاك ميزانية كبيرة لشراء اللوحات هنا.

قال كريس بذهول: "من أين تأتي كل هذه اللوحات؟". لم ير قبلاً هذا المقدار من الأعمال الفنية في حياته، والمستوى العالي للفنانين المعروضين كان مذهلاً فعلاً.

"أوروبا، الولايات المتحدة، هونغ كونغ". فوكلاء فنيون من كل أنحاء العالم يأتون لعرض أعمالهم. هناك أيضاً عدد كبير من المعارض التجريبية التي تعرض أعمالاً تولد الصدمة فعلاً. ثمة تركيبات فيديو، وفنون مفاهيمية، وفي أحد الأقسام ثمة قالب كبير من الرمل على الأرض. إنه معروض بمئة ألف دولار، وتولى تركيبه فنان مشهور جداً.

أصدر كريس التعليقات أثناء تجولهما في المعرض، وأخبرته فرانشيسكا عن بعض الفنانين. أحبت وجودها هناك برفقته، وبقيا حتى الثامنة مساء

تقريباً، ثم أخذا سيارة أجرة لحضور حفلة دعيت إليها ومن ثم إلى مطعم اسمه بيد، حيث جلس الناس واستلقوا على فرش وتناولوا العشاء. كل الأحاديث التي سمعاها حولهما كانت حول الفن والفنانين، ونوعية المعرض، والقطع الباهظة التي بيعت لغاية الآن. صادفت فرانشيسكا العديد من الأشخاص الذين تعرفهم وعرّفتهم على كريس. إنها مسرورة كثيراً وأحببت كل دقيقة من ذلك، وكان يستمتع بدوره أيضاً. هذا هو عالمها، وقد أعجبه. يبدو أن الجميع يعرفونها.

لم يصلا إلى الفندق إلا قرابة الثانية بعد منتصف الليل، بعد التوقف في حفلة أخرى أقامها وكيل أعمال في ديسكو. رقصا قليلاً ثم عادا إلى المنزل وخلدا إلى النوم في الغرفة البيضاء في فندق ديلانو. كانا متعبين جداً حين أيقظهما إيان في صباح اليوم التالي. اشترى شجرة ليزينها مع ماريا، وهما يحضران الزينة. سوف يجهزان بعضها لتعليقها على الشجرة، وبدا متحمساً. ابتسم كريس بفخر لفرانشيسكا بعدما أنهيا الاتصال. وعده إيان بالاتصال بهما لاحقاً.

قال كريس: "إنه ولد رائع، أليس كذلك؟"، وعانقها في السرير.

وافقته الرأي: "نعم، صحيح. وأنت أيضاً رائع". قبلته ونهضا بعد دقائق قليلة. وبعد ساعة، كانا مجدداً في المعرض. بقيا هناك طوال النهار إلى أن طلب منها كريس أخيراً الرحمة، وقال إنه لم يعد بوسعه النظر إلى عمل فني آخر. لقد أنهيا معرض بازل للفنون تقريباً، وما زالت ترغب في زيارة ريد دوت وسكوب، لكنها وافقت على أخذ استراحة، وتمضية ساعة معه قرب حوض السباحة. استلقى قربها، وبدا فرحاً جداً فيما أمسك بقنينة شراب.

"الله، لا يمزحون حين يقولون إن هذا أكبر معرض للفنون في العالم". ضحكت على مظهره المرهق. لا يزال هناك الكثير من الأمور التي تريد رؤيتها، بالرغم من أنها لا تظن أنه سيكون بوسعهما زيارة كل المعارض. هناك خمسة معارض على لائحتها لليوم التالي. لن يعودا إلى نيويورك إلا بعد الظهر، يوم الاثنين، ويمنحهما ذلك الوقت لرؤية كل شيء.

يوم الأحد، قال كريس إنه أصيب بتخمة الفنون، وضحكت وقالت إنه يبدو تماماً مثل إيان. أراد العودة إلى الفندق ومشاهدة كرة القدم. وافقت على لقائه لاحقاً بعد الظهر.

تناولا العشاء في مطعم أنيق في ساوث بيتش تلك الليلة، مع والدها وأفيري ووكيل أعماله، الذي كان رجلاً مذهلاً. خاض كريس حديثاً شيقاً معه حول الفن الإيطالي في العصور الوسطى، الذي درسه في الجامعة، واستمتع بحديث طويل مع والد فرانشيسكا حول أعماله الفنية. بدا أن الرجلين يتفقان جيداً، وغمزت أفيري فرانشيسكا عبر الطاولة، فيما أصغت إلى حديثهما بأذن واحدة. كل شيء جيد لغاية الآن. لاحظت ارتياح والدها مع كريس، إنه يستلطفه، وكانت مسرورة. قالت لها أفيري همساً: "أستلطف فعلاً رجلك"، بعدما غادروا المطعم جميعاً. "وأستطيع القول إن والدك يستلطفه أيضاً". من الصعب عدم حصول ذلك. كريس رجل ذكي، ومثير، ودمث، وسهل المعشر، وأحب كل ما سمعه عن عالمها.

كان احتفالاً فنياً متواصلاً طوال عطلة نهاية الأسبوع، وبحلول ليلة الأحد، حتى فرانشيسكا اعترفت بأنها متعبة جداً وسعيدة بالعودة إلى الفندق. هناك ثلاثة معارض أخرى تريد زيارتها في اليوم التالي، ورفض كريس الأمر بشدة وقال إنه سيستلقي قرب حوض السباحة. لم تمانع فعله ذلك. فهناك الكثير من الأمور الواجب رؤيتها، والكثير من الأشخاص الذين تعرفهم. ذهبت مع أفيري إلى اثنين من المعارض الفنية الصغيرة، المقامة في فنادق صغيرة، صباح يوم الاثنين.

قالت أفيري بعفوية فيما تجولتا بين أقسام المعرض: "أستلطف فعلاً كريس. وكذلك والدك. إنه ذكي وممتع في الحديث معه، وهو مفتون بك. أحب هذا كثيراً لأجلك"، وابتسمت لها.

"وأنا أيضاً مفتونة به. بالمناسبة، لن أستقبل أية رفقاء جدد في المسكن حين تغادر ماريا. سأتشاطر المنزل مع كريس". ارتاحت أفيري، وبدأت تتحدث مع صديق من معرض فني في كليفلاند، حين سمعت

فرانشيسكا هاتفها الخلوي يرنّ في حقيبتها. إنه كريس وبدا مذعوراً.

"أين أنت؟ كم من الوقت تحتاجين للوصول إلى هنا؟".

"أنا في أحد المعارض الفنية الصغيرة في فندق قرب الشاطئ. لماذا؟ ماذا حصل؟". كان هناك الكثير من الضجيج حولها، والخدمة السيئة للهاتف الخلوي في الفندق. خرجت إلى الردهة لتتمكن من سماعه بصورة أفضل. لا تعرف أبداً عما يتحدث، لكنها لم تسمعه قبلاً خائفاً إلى هذا الحد.

"كيم خطفت إيان، من المدرسة. أخذته معها". كان يبكي.

"كيف حصل ذلك؟". شعرت فرانشيسكا بالذعر على كريس وإيان، خصوصاً إيان. عرفا أنها خرجت من السجن قبل أسبوعين، وكانت في مركز فخم لإعادة التأهيل في نيوجرسي. يفترض أن تبقى هناك حتى الكرسمس، لكنها تستطيع الخروج منه في أي وقت تشاء، وكان كريس واثقاً من أنها ستفعل ذلك. طلب من ماريا توخي الحذر. لم يخرجا طوال عطلة نهاية الأسبوع، إلا لشراء الشجرة. أبقت إيان مشغولاً في إعداد الزينة وطهو البسكويت.

قال كريس: "جاءت إلى مدرسته هذا الصباح وقالت إنها تملك موعداً لزيارته وستأخذه إلى الطبيب لإجراء لقاح. وصدقوها. أعتقد أن إيان فرح برؤيتها، وذهب معها. اتصلت بي المدرسة الآن للتحقق من الأمر. لكنها كانت قد هربت من الباب الخلفي. لا أعرف أين هو. لا أعرف أبداً ماذا ستفعل به، أو إلى أين ستذهب".

قالت فرانشيسكا: "لا يمكنها أن تكون مجنونة هكذا"، وحاولت تهدئته، لكنه صرخ في وجهها للمرة الأولى.

"بلى إنها مجنونة. سأقتل مدرسته اللعينة. يعرفون أنه لا يجدر به أن يكون معها من دون إشراف. أعطيتهم نسخة عن قرار المحكمة. كم يلزمك من الوقت للوصول إلى هنا؟ أين أنت؟ ثمة رحلة إلى نيويورك في تمام الواحدة. أريد أن أسافر فيها".

"لا أعرف أين أنا بالضبط. ذهبنا إلى معرض آخر قبل هذا".

"سأوضب أغراضك. نلتقي في المطار. الخطوط المتحدة". ذهبت فرانشيسكا لإيجاد أفيري وأخبرتها بما حصل. بدت أفيري قلقة مثلها.

"هل تظنين أنه سيكون بخير؟ لن تؤذيه، أليس كذلك؟".

"لا أظن ذلك. ليس عمداً. ستؤذي نفسها على الأرجح، وتفعل شيئاً مجنوناً. تريد ربما إخافة كريس فقط، أو تظهر له أنها تستطيع فعل ما تريده. إنها مجنونة فعلاً". كل ما استطاعت التفكير به هو لائحة الأمور المرعبة التي سمعتها في المحكمة. لكن إيان أصبح في عمر الثامنة الآن. إنه مستقل ويستطيع الاهتمام بنفسه أكثر من معظم الأولاد الذين هم في مثل عمره. فقد اضطر لفعل ذلك حين كان مع أمه.

قبّلت فرانشيسكا أفيري لوداعها بعجل، وخرجت مسرعة، وأوقفت سيارة أجرة مارّة، وطلبت من السائق أخذها إلى المطار. كانت تنتعل حذاء رياضياً، وترتدي جينزاً وبلوزة قطنية، لكنها مستعدة للركوب على متن طائرة بثوب سباحة لتكون مع كريس. بدا مضطرباً جداً حين وجدته في المطار. لقد سجّل حقائبها فوراً، وكان يحمل معطفها.

اقترحت قائلة: "ربما أخذته إلى شقتها. هل يمكنك الاتصال بالشرطة؟".

قال، وهو يبدو متوتراً: "فعلت ذلك". بدا وكأن أعصابه منهارة. "لا أعرف لماذا ذهب إيان معها. يفهم الأمور بصورة أفضل، ويعرف أنه لا ينبغي الذهاب معها".

قالت فرانشيسكا برفق: "إنها أمه" ثم توجها إلى بوابة الطائرة. بالكاد نجحا في الركوب على متن الطائرة وكانا آخر راكبين على متن الرحلة.

"لا تجيب على هاتفها الخلوي. الشرطة تبحث عنها الآن. قلت لهم إنني أعتقد أن إيان في خطر. وأنا أعتقد ذلك فعلاً. فهي مجنونة".

دخلا إلى الطائرة، وأخذا مكانيهما. بالكاد تحدث كريس طوال الرحلة. كانت أطول ثلاث ساعات في حياتها، تراقبه، وتعرف أنه يعاني بصمت. شعر بالذعر على ابنه. لم تحاول فرانشيسكا التحدث إليه. أمسكت فقط بيده.

شرب كريس كأسين من الشراب على متن الطائرة. ونام لبضع دقائق بعد ذلك. ما من شيء يمكنهما فعله إلا حين تهبط الطائرة.

أخذا سيارة أجرة من المطار، وكانت ماريا في انتظارهما في المنزل. ليست غلطتها، لكنها شعرت بالألم على كل حال. اتصل كريس بالشرطة لحظة وصلا، لكنها لم تتوصل إلى أي شيء بعد. ذهب رجال الشرطة إلى شقتها، ولم تكن موجودة هناك. قال رجل المصعد والبواب إنهما لم يرياها منذ أن خرجت من السجن وذهبت إلى مركز إعادة التأهيل. جلس كريس في المطبخ في شارع تشارلز، ووضع رأسه بين يديه، محاولاً معرفة أين هي. إلى أين يمكن أن تأخذه؟ وفجأة، خطرت له فكرة. بدا مثل رجل مجنون فيما حدّق إليهما معاً، وكان مجنوناً فعلاً تلك اللحظة.

"إذا لم تكن تشتري المخدرات، أو ميتة في وادٍ في مكان ما، ثمة مشرب في ويست سايد حيث كانت تأخذه. توجد هناك آلات لألعاب الكرة والدبابيس وألعاب قناطر. يحب المكان، وهو قريب من منزل تاجر المخدرات". أعطى الشرطة عنوان تاجر المخدرات أيضاً، أو على الأقل آخر واحد يعرفه، بعدما أخذه من إيان.

خرج كريس مسرعاً من المنزل قبل أن تتمكنا من إيقافه، ولحقت به فرانشيسكا على السلالم بأقصى سرعة. لم تزعج نفسها حتى بأخذ معطفها بالرغم من برودة الطقس.

"عودي إلى الداخل. سأتصل بك إذا وجدته". بدا شارد الذهن ولا يزال خائفاً فيما أوقف سيارة أجرة.

قالت: "أريد الذهاب معك". فتردد ثم فتح الباب. لا يريدها أن ترى كيف هي الأمور فعلاً، لكنها تحب إيان أيضاً، وباتت جزءاً من حياته الآن، حتى في هذا. دخل إلى السيارة، ودخلت بعده. أخبر السائق إلى أين يريدان الذهاب، وقال له إنهما مستعجلان. انطلق السائق بسرعة على الطريق السريع لويست سايد، ووصلا إلى هناك خلال عشر دقائق. بدا مكاناً مقرفاً كان ليخيف فرانشيسكا. كان المشرب مفتوحاً. سحب كريس الباب ودخل. كان الجو معتماً

في الداخل، وكل ما استطاع رؤيته هو أضواء آلات ألعاب الكرة والدبابيس التي أبهرته لدقيقة. ثمة نادل يمسح الأرض، ونادلتان بصدر كبير، ترتديان بذلات قصيرة جداً وجوارب شبكية. هناك رجلان يلعبان بالآلات. ثم رآه، في زاوية خلفية، يلعب لعبة القناطر، وكان مثل جسم صغير جداً واقف أمام الآلة. ثمة امرأة معه، متمددة على الطاولة قربه. بدت كأنها نائمة. حمل كريس الصبي بين ذراعيه خلال دقيقة، ورفعه عن الأرض، ونظر إليه مطولاً. انهمرت الدموع على وجنتي كريس، من دون أن يعلم حتى بذلك. كانت فرانشيسكا تبكي ارتياحاً. بدت عينا إيان عملاقتين في وجهه.

سأله كريس: "هل أنت بخير؟". فأومأ إيان برأسه.

"أنا بخير. إنها مريضة". كان صوت إيان خافتاً فيما حمله والده. ويقصد بكلامه هذا أنها حقنت نفسها بالمخدرات. وبدت هكذا فعلاً. ليس هذا مشهداً جديداً على كريس، أو إيان.

قال كريس عبر أسنانه المطبقة: "سأهتم بالأمر" وسلّم الولد لفرانشيسكا. لم تتحرك كيمبرلي أبداً. "خذيه إلى المنزل". أومأت فرانشيسكا، وأمسك إيان بيدها فيما خرجا، ونقر كريس بإصبعه على كتف زوجته السابقة. لم تتحرك، وتساءل فجأة إذا كانت تناولت جرعة زائدة فيما لعب إيان بالآلات. تحسس النبض في عنقها، وفيما فعل ذلك، تأوهت ثم تقيأت على الطاولة حيث كانت مستلقية. كان وجهها وسط ذلك. رأت إحدى النادلتين ما حصل وجاءت مع منشفة. أرجع كريس رأسها إلى الخلف وهو يمسك شعرها بقبضة يده. فتحت عينيها فيما سال القيء على وجهها. مسحه، بالرغم من أنه يكرهها. لطالما فعل الهيروين بها ذلك، خصوصاً إذا امتنعت عنه لبعض الوقت. وقد كانت في مركز إعادة التأهيل لأسبوعين. إنها طريقة سهلة لتناول جرعة زائدة بعد الامتناع.

قالت بغموض: "... مرحبا.. أين إيان؟".

"عاد إلى المنزل". ومن دون أن يعرف حتى ماذا يفعل، وضع يده حول عنقها وضغط. فتحت عيناها بقوة فيما حدقت إليه، لكنها كانت مخدرة جداً، فشعرت فقط بالارتباك. "إذا فعلت هذا مجدداً... إذا لمسته، أو أمسكت به،

أو أخذته إلى أي مكان... أو رأيته من دون إشراف... أقسم كيم إنني سأقتلك". وفيما وقف هناك على وشك أن يخنقها، أراد فعل ذلك حقاً. وللحظة مجنونة خارجة عن السيطرة، أراد خنق عنقها، ثم راح كل جسمه يرتجف، فأفلتها. "لا تحاولي أبداً الاقتراب منه مجدداً وأخذه معك حين تحقنين نفسك بالمخدرات وتأتين إلى مكان كهذا". ومن دون كلمة أخرى، جرّها على قدميها حينها، فمالت نحوه. جرّها خارجاً إلى نور الشمس، فتقيأت مجدداً وبدت حينها أفضل حالاً. قال لها: "أكرهك. أكره كل شيء فيك، وكل ما فعلته في حياتنا... أكره ما تفعلينه به. لا يستحق هذا" فيما نظرت إليه. والأسوأ من ذلك، يكره كريس نفسه حين يكون في أي مكان قربها. إنها سمّ ملأه غضباً. أراد قتلها، لبرهة في المشرب. ما من أحد يستطيع فعل هذا به إلا هي، ولا تستحق ذلك. لم تستحقه يوماً. غص فيما رفعها إلى الأعلى بيد واحدة وأوقف سيارة أجرة باليد الأخرى. توقفت سيارة فارغة بالقرب منه. فتح الباب ودفعها إلى الداخل. فاحت منها رائحة القيء، وكذلك منه. إنها في الثانية والثلاثين، وكانت قبلاً امرأة جميلة، لكن لم يبقَ الآن شيء مما كانت عليه.

أعطى كريس السائق أربعين دولاراً وعنوان والدها، ونظر إلى كيم بقرف وما تبقى من غضبه. "اذهبي إلى والدك. سيهتم بك. وابقي بعيدة عن إيان إلى أن تتوقفي عن المخدرات".

قالت: "شكراً" وهي تحاول التركيز عليه، ثم أرجعت رأسها إلى الخلف وأغمضت عينيها. نظر كريس إليها وأغلق باب السيارة بقوة. كان يرتجف فيما انطلقت السيارة بعيداً عنه. كاد يقتلها. أراد ذلك فعلاً، مما أرعبه. مشى مسافة مبانٍ قليلة، ثم أوقف سيارة أجرة أخرى وركب فيها. أعطاه عنوان شارع تشارلز وحدّق بصمت خارج النافذة طوال الطريق، وهو يدرك أن حياته وإيان كانت لتتدمر لو فقد السيطرة على نفسه وقتلها. لا يريد رؤيتها أبداً مجدداً. إنها أسوأ شيء حصل له. وإيان أفضل شيء. حاول التركيز على ذلك في طريق عودته إلى المنزل.

الفصل الحادي والعشرون

استطاع كريس سماع ماريا وفرانشيسكا في المطبخ مع إيان عندما وصل إلى المنزل. كان تشارلز إدوار يطهو لهم شيئاً ما. صعد كريس إلى الأعلى، واستحمّ وبدّل ملابسه. لا يزال مرعوباً مما كاد أن يفعله بها. كان مذعوراً طوال رحلة العودة من ميامي. لم يعرف أبداً نوع الخطر الذي قد تعرّض ابنهما له.

بدا مضطرباً وحزيناً فيما نزل السلالم ودخل إلى المطبخ. نظر إليه إيان بعيني رجل عمره ألف عام، مما مزّق قلب كريس إرباً.

"أين ماما؟" بدا قلقاً، وخاف أن يكون والده غاضباً منه. لكنه لم يكن. كان خائفاً. مما حصل، وما كان يمكن أن يحصل، وما كاد يفعله. إنه نداء استيقاظ له. لن يسمح لها بأن تفعل به هذا مجدداً. أبداً. كاد يفقد السيطرة على نفسه.

"أرسلتها إلى منزل جدك. يعرف ما يجب فعله معها". سيأخذها مجدداً إلى مركز إعادة التأهيل، للمرة المليون، وستخرج منه مجدداً. إلى أن تموت ذات يوم. لا يحتاج كريس إلى قتلها. إنها ميتة أصلاً، وقد ماتت قبل أعوام عدة حين بدأت تحقن نفسها بالمخدرات. فعلت ذلك قبل أن يلتقيا ببعضهما. لكنه لم يكن يعرف. "ستكون بخير، إيان". في الوقت الراهن. "أنا آسف. لم أشأ إخافتك. كنت قلقاً جداً. لا أريدك أن تذهب معها مجدداً. يمكنك رؤيتها، لكن لا بد من وجود أحد معكما". أومأ إيان برأسه، وتوجه إليه كريس وعانقه مطولاً. "أنا آسف لأنك اضطررت لرؤية ذلك". لقد رأى هذا ألف مرة قبلاً. تساءل كيف يمكن الاعتذار من ابن على منحه أماً مثلها. شعر إيان بالأسف على والده.

"لا بأس. لم تكن سيئة جداً. فقط مريضة قليلاً". إنه تعريفه للقول إنها لم تكن "سيئة جداً". لقد رأياها في حالات أسوأ. أراد كريس الاستحمام مرة أخرى، لفرك أحشائه وعقله، وكل الذكريات من ذاكرة إيان أيضاً. لكنه عرف أنه لا يستطيع فعل ذلك. إنه الإرث الذي ستتركه لإيان. لقد ذهبا معها إلى الجحيم وعادا. استدار كريس ورأى فرانشيسكا حينها للمرة الأولى. لم يلاحظها حتى عندما دخل إلى الغرفة. ابتسم لها ولاحظ كم هي منزعجة. كان مشهداً مرعباً، وأصبح أسوأ بعدما غادرت.

"شكراً على إعادة إيان إلى المنزل". جلس أمام طاولة المطبخ، وجلست فرانشيسكا قربه ونظرت إلى عينيه.

"لا بأس، كريس. ستكونان بخير". ابتسمت لإيان حينها، فجاء لمعانقتها وأخذته بين ذراعيها. "حسناً، كان ذلك قليلاً من التشويق". ابتسمت لإيان، وضحك، ثم بدأوا جميعاً يسترخون ببطء.

حضّرت لهم ماريا شيئاً لتناوله، ثم أظهرت مع إيان لكل من كريس وفرانشيسكا كل الزينة التي حضّراها خلال عطلة نهاية الأسبوع. بدت الشجرة الصغيرة جميلة، وبدا إيان فخوراً. شيئاً فشيئاً، بدأ الكابوس الذي عاشوه يختفي من عقولهم. كان يمكن أن تصبح الأمور أسوأ.

اقترحت ماريا: "لماذا لا نذهب جميعاً إلى فيرمونت في عطلة نهاية الأسبوع التالية؟ ستكون ربما فرصتنا الأخيرة، وسيكون ممتعاً تواجدنا مع بعضنا". أحبت فرانشيسكا الفكرة. فهناك بدأت حياتهما كثنائي. أحب إيان الفكرة أيضاً، وحتى كريس ابتسم.

لم تتح الفرصة لكريس وفرانشيسكا للتواجد بمفردهما قبل أواخر بعد الظهر.

"أنا آسف لأنك اضطررت لرؤية ذلك. هذا ليس جزءاً جميلاً من حياتي". شعر بالخجل كما لو أنه هو من فعل ذلك. إلا أنه شعر بخجل أكبر على ما كاد أن يفعله بزوجته السابقة.

قالت بهدوء: "هذه ليست غلطتك. أنا مسرورة لأنني كنت هناك" ووضعت ذراعيها حوله.

"وأنا أيضاً". لكان جنّ جنونه أكثر ربما لو لم تكن هناك.

قبّلها، وشعر كأنه يبتعد عن ماضيه. فمعها، يعيش حياة جديدة تماماً. كيم هي الكابوس، وفرانشيسكا الحلم.

كما اقترحت ماريا، ذهبوا جميعاً إلى فيرمونت في عطلة نهاية الأسبوع، وأمضوا جميعاً وقتاً جيداً. لعبوا بالثلج، وقاموا بنزهات طويلة، والتقطوا صوراً جميلة. ذهبوا إلى مطاعم ومقاهٍ محلية. أخذ كريس إيان إلى مركز تزلج مجاور صباح يوم الأحد، واستأجرا المعدات اللازمة، وقام ببضع جولات تزلج معه. أرادوا جميعاً التشبث بكل دقيقة. فهم لا يعرفون متى يجتمعون مجدداً. قرر تشارلز إدوار ذلك.

"ستذهبون جميعاً إلى جنوب فرنسا الصيف المقبل. سأستأجر وماريا فيلا. نريدكم أن تأتوا أنتم الثلاثة". صفّق إيان بيديه وبدا متحمساً، ووافق كريس وفرانشيسكا. سيذهب تشارلز إدوار وماريا إلى فيرمونت في شهر أغسطس، بحيث يتمكنون من رؤيتهما مجدداً حينها. ليس هذا الفصل الأخير في صداقتهما. إنها مجرد البداية. يبدأون جميعاً حياة جديدة الآن. أخبر كريس إيان ذلك الصباح أنه سينتقل إلى الأعلى مع فرانشيسكا، وسيحصل إيان على غرفته الخاصة من الآن وصاعداً.

قال إيان برزانة: "هذا جيد، لأنك تشخر". ضحكت فرانشيسكا عندما قال ذلك.

قالت: "جيد أنك أخبرتني". لكنها ارتاحت لأن إيان لم ينزعج.

أنشدوا أغاني الكرسمس بالفرنسية والإنكليزية في طريق العودة إلى نيويورك، وأعطتهم ماريا مفاتيح المنزل في فيرمونت وأخبرتهم أنهم يستطيعون استعماله متى يشاؤون. سيكون رائعاً لهم.

نام إيان في طريق العودة. وحمله كريس عندما وصلوا. تململ لدقيقة ونظر إلى والده كما لو أنه يريد إخباره بشيء مهم.

"هل يمكننا الحصول على كلب؟".

ضحك كريس. "طبعاً. أي نوع من الكلاب؟".

قال إيان بابتسامة نعسانة: "كلب الداني".

"انسَ الموضوع. ربما كلب دشهند أو كلب لابرادور". أومأ إيان برأسه وعاد إلى النوم بين ذراعي والده. وبعد دقيقة، وضع إيان على السرير العلوي وغطّاه ببطانية، ثم صعد إلى الأعلى لرؤية فرانشيسكا. كانت توضّب أغراض عطلة نهاية الأسبوع في فيرمونت، فاستدارت وابتسمت حين دخل. لا يصدق كم هو محظوظ بالعثور عليها. وشعرت هي بالشيء نفسه حياله.

"هل أستطيع النوم هنا الليلة؟ رفيقي في الغرفة منهك تماماً".

"طبعاً". أحبت الفكرة أيضاً. كان جميلاً تشارك غرفة معه طوال عطلة نهاية الأسبوع، وبات الانفصال صعباً عند العودة إلى المنزل.

استلقى في السرير، وراقبها وهي تخلع ملابسها وترتدي قميص نومها. يتحرق شوقاً لرؤيتها تفعل ذلك كل ليلة.

قالت بحزن: "سوف أشتاق فعلاً إلى ماريا"، فيما استلقت في السرير قربه. نام في قميصه الداخلي وسرواله القطني. كانت جواربه على الأرض مع الجينز والقميص. بات يشعر بالارتياح في سريرها.

"ستراهما في أوروبا الصيف المقبل. سيكون ذلك ممتعاً". أومأت برأسها. وكانا متحمسين لاستعمال المنزل في فيرمونت. إنها هدية مذهلة لهما. إنهم أصدقاء مميزون جداً.

سألته فرانشيسكا فيما استلقيا في العتمة في سريرها: "هل تظن أنهما سيتزوجان؟". أحبت تواجده هنا قربها، والاستيقاظ معه في الصباح.

"ربما. يتصرفان أصلاً كأنهما متزوجان". تتطلع فرانشيسكا للوصول إلى هذه المرحلة مع كريس. لم يصلا إلى هذه المرتبة بعد. سيكون جيداً لهما استعمال المنزل كله، رغم أنهما سيشتاقان إلى ماريا وتشارلز إدوار.

همست فرانشيسكا لكريس: "تصبح على خير" فيما عانقته وخلدت إلى النوم. ابتسم لها كريس، واستلقى ينظر إليها لوقت طويل. ثم خلد إلى النوم بدوره وأمسكها بين ذراعيه طوال الليل.

الفصل الثاني والعشرون

الأسبوع الأخير لماريا وتشارلز إدوار في نيويورك كان مليئاً بالفوضى. ساعدتها فرانشيسكا في توضيب الأغراض. كانتا تفرزان الأغراض وتشحنان الأشياء إلى كل مكان، إلى باريس وإلى فيرمونت. أعطت معظم أدوات الطبخ خاصتها إلى فرانشيسكا، ورمت الكثير من الأشياء.

قالت ماريا، وهي تنظر حولها: "من المذهل كم تجمعين من الأغراض في شقة صغيرة". ثمة صناديق في كل مكان، وحتى كدسة من الأغراض لتوزيعها للجمعيات الخيرية. إنهما توضبان الأغراض منذ أيام عدة. جاءت والدة فرانشيسكا لوداعها أيضاً. سوف تسافر إلى زيوريخ بعد يومين في طريقها إلى غستاد.

وعدتها قائلة: "سأتصل بك في باريس حين أذهب إلى هناك في المرة المقبلة. ولا تدعيني إلى زفافك إذا تزوجت من تشارلز إدوار. سأشعر بالكثير من الغيرة". الرجل صاحب اليخت الذي التقت به في سان فرانسيسكو خلال عطلة الشكر لم يعلق في شباكها. لا تزال تبحث عن الرقم ستة، لكن تشارلز إدوار لم يكن مناسباً أيضاً. فماريا فازت بقلبه أكثر منها.

طمأنتها ماريا: "لسنا مستعجلين البتة".

سألتها تاليا فيما أعطتها ماريا هدية: "ماذا يحصل بين فرانشيسكا وكريس؟". إنه أحد كتب الطبخ الذي قالت تاليا إنها تريده ولم تستطع العثور عليه لأنه لم يعد متوافراً في الأسواق. شكرتها تاليا وابتسمت.

"يبدوان سعيدين جداً. انطلقا للتو في علاقتهما. أظن أنهما سيحتاجان إلى بعض الوقت لتحديد وضعهما. فقد عانى كثيراً مع زوجته السابقة.

وفرانشيسكا حذرة جداً، مثلما تعلمين". سكبت ماريا لكل منهما كوب شاي. سوف تشتاق تاليا إليها. إنها سبيلها الوحيد إلى حياة ابنتها. فرانشيسكا لا تخبرها أبداً بأي شيء.

تحدثتا قليلاً عن باريس، ثم وقفت تاليا وعانقتها. قالت تاليا بهدوء: "اعتني بنفسك. سأشتاق إليك أيضاً، وليس فقط لإخباري عن فرانشيسكا". لقد أصبحت صديقة جيدة لهم جميعاً، وفرحت تاليا لأجلها. تستحق ماريا كل السعادة التي وجدتها مع تشارلز إدوار. فقد جلبت الفرح لحياة الكثير من الأشخاص، ومن الجميل رؤيتها تحصل على نصيبها من الفرح. تواعدت المرأتان على البقاء على اتصال ببعضهما.

تركت تاليا هدايا لكل من فرانشيسكا وكريس وإيان، وأخبرت فرانشيسكا بأنها ستتصل بها من غستاد. ستسافر إلى أوروبا قبل يوم واحد من ماريا، لكنها ستكون مشغولة جداً إلى حين سفرها.

مرّت أفيري لوداع ماريا أيضاً، وتركت هدايا لكل من فرانشيسكا وكريس وإيان. هدية فرانشيسكا كانت عملاقة، وتسهل معرفة طبيعتها. إنها واحدة من لوحات والدها، لتحل محل إحدى اللوحات الخمس الي باعتها.

تحمست فرانشيسكا حين رأتها تلك الليلة، وساعدها كريس في تعليقها في غرفة الجلوس فيما أنزلت لوحة أخرى لم تحبها أبداً، لفنان لم تعد تمثله. أحب كريس اللوحة الجديدة أيضاً. أخبرا ماريا وتشارلز إدوار عن كل شيء في المعرض في ميامي، واعترف كريس بأنه ذهل تماماً.

"لم أرَ يوماً هذا القدر من الفن في مكان واحد". قالت ماريا إنها تودّ زيارته. لطالما أرادت الذهاب إلى معرض شهر يونيو في مدينة بازل. قد تفعل ذلك الآن، لأنها ستعيش في باريس. هناك الكثير من الأمور التي ترغب في فعلها. كانت حزينة للمغادرة، وإنما متحمسة مع اقتراب اليوم المحدد. ينويان تمضية الكرسمس في كورشفيل مع أصدقاء تشارلز إدوار. إنه منتجع تزلج فخم جداً، وفيه مطاعم ممتازة تتوق ماريا إلى تجربتها. ستكون حياة أكثر إثارة من تلك التي عاشتها في شارع تشارلز خلال العام

الماضي، أو في فيرمونت قبل ذلك. ويسافر تشارلز إدوار كثيراً داخل أوروبا. قال إنه يريد اصطحابها إلى براغ وبودابست.

أخيراً وصل اليوم الذي سيسافران فيه. كانت لحظات مؤلمة، وبكت فرانشيسكا وماريا. بالكاد استطاعت ماريا إفلات إيان، ورافقها تشارلز إدوار ببطء إلى الباب، حيث كانت سيارة في انتظارهما لاصطحابهما إلى المطار. وعدت بإرسال الرسائل الإلكترونية، ووقفت فرانشيسكا للحظة أخيرة تمسك بها بشدة.

قالت أخيراً عبر دموعها: "سأشتاق إليك كثيراً". شعرت أنها خسارة كبيرة بالنسبة إليها. وبدا إيان حزيناً أيضاً.

"سأراكم الصيف المقبل، وسأتحدث معكم مطولاً قبل ذلك"، ثم انحنت ماريا لتقبيل إيان لمرة أخيرة. أبقى كريس ذراعه حول فرانشيسكا وأمسك بيد إيان فيما ابتعدت السيارة أخيراً وعادوا جميعاً إلى الداخل. سيكون المنزل هادئاً جداً من دونهما. فرحت فرانشيسكا لأنهم سيذهبون إلى بوسطن بعد أيام قليلة، لقضاء الكرسمس مع عائلة كريس. لا تزال متوترة من فكرة اللقاء بهم، لكنها ستكون أفضل حالاً من البقاء وحيدة في منزل بدا الآن كبيراً جداً من دون ماريا وتشارلز إدوار.

قال كريس، وهو يبتسم لها بحزن: "أظن أن مطبخنا خسر خمس نجوم".

سألته فرانشيسكا: "ماذا تريد للعشاء؟ بيتزا أو طعام صيني جاهز؟"، وضحك. أراد إيان الطعام الصيني الجاهز.

"أظن أننا في ورطة. من الأفضل أن يتعلم أحدنا الطهو". إلا أن ماريا علّمتها في الواقع بعض الوصفات الصغيرة، إذا أتيح لفرانشيسكا الوقت لإعدادها. وأصبح إيان خبيراً في إعداد كل أنواع البسكويت. ترك تشارلز إدوار علبة من السيجار الكوبي لكريس. إلا أن الكنوز التي تركاها لهم لا تعوّض أبداً الشخصين اللذين خسروهما. سيكون تعديلاً كبيراً من دونهما، وبدا المنزل فارغاً وحزيناً لبقية الأسبوع. سيكون جيداً السفر إلى بوسطن،

وتحمّس إيان لرؤية أقاربه. كانت فرانشيسكا خائفة كثيراً. أعطاها كريس بعض المعلومات حول عائلته، بدت لها كأنها إنذارات. "متحفظين، متزمتين، وإنما غير صارمين مثلما يبدون، متدينين، من الطراز القديم". بدت لها مثل علامات خطر.

قبل ليلة واحدة من سفرهما، سألت كريس في السرير: "ماذا لو كرهني أهلك؟".

أجاب ببديهية: "أتوقف حينها عن رؤيتهم. نسيتِ ممن كنت متزوجاً قبلاً. ليست مثالاً يصعب الاحتذاء به. أمي جدية قليلاً، لكن والدي رجل طيب. سيحبانك".

سألته فرانشيسكا بحذر: "بالمناسبة، كيف حال كيم؟ هل سمعت أي خبر من والدها؟".

"قال لي المحامي إنها في مركز إعادة التأهيل. لن يدوم الأمر طويلاً. لم يحصل ذلك قبلاً". توقف عن الأمل. تقدموا بتقرير عن أخذها إيان من المدرسة، وأدانتها المحكمة بشدة عن طريق محاميتها. اعتبرت المحكمة الأمر بمثابة انتهاك فاضح. حتى كريس لا يظن أنها ستعيد الكرّة مجدداً. لم ترسل أي شيء لإيان لمناسبة الكرسمس. فهي تنسى دوماً، تماماً مثلما تنسى ذكرى مولده. لا مكان في حياتها للاحتفالات. فهي مشغولة جداً إما في محاولة شراء مخدرات جديدة، أو التوقف عن إدمانها. إنها وظيفة بدوام كامل لها. إدمانها كان حياتها.

قدّمت أمها لإيان سترة جلدية قصيرة ظريفة، وأحبها. تأثرت فرانشيسكا لأنها بذلت الجهد. اشترت طقم أقلام فضية لكريس، وحقيبة سهرة لها، لن تستعملها غالباً على الأرجح، لكنها جميلة. إلا أن سترة إيان الجلدية عوّضت عن كل شيء. وقدّمت له أفيري مع والدها عدة رسم جميلة مع أقلام شمع وتلوين وأقلام رصاص، أحبها أيضاً. أجداده الجدد عاملوه جيداً. وأحبت فرانشيسكا اللوحة الفنية من والدها، وكانت تدخل إلى غرفة الجلوس لرؤيتها كل يوم.

ستتهمك في تحويل غرفة ماريا إلى مكتب لكريس فور عودتهم من بوسطن. وتحمس لذلك. سينتشرون في كل أنحاء المنزل. بدأت تشعر مجدداً أنه منزلها الخاص، وليست مضطرة لإفساح المجال للرفقاء في المسكن. شعر إيان بالشيء نفسه أيضاً، إذ وضع كدسة من الألعاب في المطبخ، وأحب مشاهدة التلفزيون مع والده في سرير فرانشيسكا ليلاً، والصعود إلى سريرهما صباح يوم الأحد. لقد عاد كريس وإيان إلى المنزل.

الفصل الثالث والعشرون

احتاجت فرانشيسكا إلى ساعات طويلة للتوضيب عشية سفرهم إلى بوسطن. بدت حائرة وهي توضّب أغراضها. ماذا تلبس، ثياباً رسمية، أو غير رسمية، بذلة رسمية ترتديها ليلة الكرسمس في دار العبادة؟ فستان سهرة للعشاء؟ جذاب جداً؟ قصير جداً؟ قصة منخفضة جداً؟ جريء جداً؟ لا تريد ارتكاب هفوة، وخافت كثيراً أن تفعل ذلك. قال لها كريس أن تنسى كل ذلك وترتدي سروال الجينز، لكنها عرفت أن هذا لن يكون مناسباً البتة. توقعتهم أن يكونوا متحفظين ومتزمتين، حسبما قاله كريس. في النهاية، أخذت كل الخيارات معها، ووضّبت حقيبتين كبيرتين للطائرة. زمجر كريس حين رآهما.

سأل باستياء: "ماذا أحضرت معك؟".

قالت، وهي تبتسم بسعادة: "كل شيء". لم ترد المجازفة فأحضرت كل شيء. ثم ظهرت مع حقيبة ثالثة أصغر حجماً مليئة بالهدايا لكريس وإيان وأهل كريس. نجح في وضع كل الحقائب في السيارة. وعندما وصلوا إلى المطار ، كانت الفوضى، وتبين أن الرحلة متأخرة، فالثلج يتساقط في بوسطن. لم تقلع الطائرة إلا في العاشرة، وهبطوا في بوسطن قبيل منتصف الليل. كان والد كريس في انتظارهم، بالرغم من تأخر الوقت. كان رجلاً طويلاً مثل كريس، وإنما مع كتفين أعرض، وصوت عميق، وقبضة محكمة فيما صافح يد فرانشيسكا.

بدا مثل اللاعب الرياضي الذي كان عليه في هارفارد قبل خمسين عاماً. وجه نظرة حنونة إلى إيان وصافحه، الأمر الذي بدا رسمياً جداً بالنسبة إلى فرانشيسكا، لكنه بدا رجلاً لطيفاً. أغلقوا المطار نتيجة العاصفة

الثلجية مباشرة بعد هبوط طائرتهم، وكانت الطرقات مكسوة بالثلج فيما انطلقوا ببطء إلى بوسطن. تحدث الرجلان عن كرة القدم والسياسة في السيارة. لقد حذّرها كريس قبلاً بأنه يعتبر الولد المتمرد في العائلة لأنه لم يذهب إلى هارفارد وانتقل إلى نيويورك. لم يذكر لها معارضتهم لمنزلها. قال إنهم لا يفهمون لماذا يرغب في أن يكون رساماً هندسياً بدل أن يكون سياسياً أو مصرفياً. ثم جاءت كيم لتزيد الأمور سوءاً. لذا، لم يوافقوا على تصرفاته، مهما كان رأيهم فيها الآن. بدا الدخول إلى عالمهم محفوفاً بالمخاطر بالنسبة إلى فرانشيسكا.

عاش أهل كريس في كامبريدج، في شارع براتل، حيث يعيش رئيس هارفارد أيضاً. كل الرجال في عائلته ذهبوا إلى تلك الجامعة، قبل أن يصبحوا سيناتورات وحكاماً ورؤساء. إنهم مجموعة مؤثرة من الأشخاص. بدا كريس متواضعاً وغير متعجرف، نظراً للعائلة التي يتحدر منها.

عندما وصلوا إلى المنزل، كانت أمه في انتظارهم. كانت امرأة صغيرة القوام، وتجسد صورة الجدة بشعرها الأبيض وعينيها الرماديتين مثل كريس. كانت ترتدي فستاناً صوفياً باللون الرمادي الداكن، وتضع عقداً من اللآلئ. ما من شيء على الموضة فيها. إنها مناقضة تماماً لوالدة فرانشيسكا. أرشدت فرانشيسكا شخصياً إلى غرفتها. لا مجال أبداً لتشارك الغرفة نفسها مع كريس، حتى لو لم يكن إيان هنا. وضعت والدة كريس فرانشيسكا في غرفة ضيوف بعيدة قدر الإمكان عن غرفة كريس. وأوضح لها مكان الغرفة أنه لا مجال للعب في المنزل. شعرت فرانشيسكا بالتوتر ، فيما غمزها كريس وتركها في غرفتها، بعدما تمنت لها أمه ليلة سعيدة. تساءلت فرانشيسكا إذا كان سيعود إليها. سينام إيان في الغرفة مع والده. إنها غرفة كريس أيام الطفولة، وكان المنزل ممتلئاً، مع وجود أخ كريس وأخته وعائلاتهما وعدد من الأقارب والأولاد الآخرين الذين جاؤوا معهم. إنه منزل كبير جداً. شرح لها كريس من سيكون موجوداً هنا، ولم تستطع حفظهم جميعاً، أولاد العم، والعمة، وإخوته وأولادهم. هذا مربك جداً، مع أقربائه وأولادهم، علماً أن العديد منهم يتشاركون

الاسم الأول نفسه. كانت فرانشيسكا جالسة في غرفتها، تشعر بالقليل من الدوار، حين دخل كريس، وأغلق الباب بسرعة وراءه. أدركت فرانشيسكا حينها أن أمه لم تتحدث مباشرة إليها، باستثناء إلقاء التحية عليها وتمني ليلة سعيدة لها.

قال بسرعة: "لا تزال أمي تتجول في المنزل. سأعود لاحقاً"، وفهمت فرانشيسكا سريعاً أنه حين يكون في المنزل، يلتزم بقواعدهم. خرق تلك القواعد ليس ممكناً أبداً، حتى بالنسبة إليه. إنه أحد أسباب عيشه في نيويورك، وذهابه إلى جامعة ستانفورد في الساحل الغربي. اعتبر والداه الأمر بمثابة خيانة.

همست: "أفترض أنك لا تستطيع النوم هنا"، فضحك.

"ستتصل أمي بشرطة الآداب وترمينا خارج المنزل. إنها امرأة محافظة جداً".

"فهمت". إنه في الثامنة والثلاثين ولا يحق له إحضار فتاة إلى غرفته. لكن كريس عرف كيف يخترق ذلك النظام. جعلوا عائلتها تبدو كأنها في غاية التحرر. هذه هي بوسطن. بوسطن القديمة. الطراز القديم.

بعد نصف ساعة، أصبح المنزل هادئاً جداً، وعاد إليها كريس على رؤوس أصابعه، حافي القدمين في سروال الجينز. "تم تدبير كل شيء". أحضر فرشاة أسنانه معه. كل ما عليه فعله هو العودة مجدداً إلى غرفته صباحاً عند الساعة السابعة، حين تنزل أمه لتحضير الفطور كل صباح. إنها تدير دفة المنزل بشكل صارم. وتبقي عينها على كل ما يجري في منزلها، تماماً مثلما تفعل في الفينيارد. ما من شيء يفوتها.

شرح قائلاً: "إنها عتيقة الطراز". لم يذكر الأمر قبلاً، ولم يشأ إخافة فرانشيسكا. وفيما فكرت في الأمر، تخيلت فرانشيسكا مقدار الفوضى الذي أحدثته كمبرلي حين تزوجا، وكانت تتعاطى المخدرات وتثمل. لا بد أن أهله لم يحبّوا ذلك. ولا شك في أنهم لم يستلطفوا أبداً ما فعلته أخيراً، بعد خروجها حديثاً من السجن، وأخذ حفيدهم معها. قال كريس إنهم يكرهونها، وتسهل

معرفة السبب. أملت فقط ألا يكرهوها أيضاً. كانت فرانشيسكا مصممة على احترامهم أثناء وجودها هنا، حتى لو بدت قوانينهم سخيفة بالنسبة إليها.

أمضيا الليلة معاً في غرفتها، وضبط كريس المنبه على هاتفه الخلوي في تمام السابعة إلا ربعاً. قفز من السرير لحظة رنّ المنبه، وقبّلها، وارتدى الجينز وقميصه، وركض في الممر وصولاً إلى غرفته، حيث كان إيان لا يزال نائماً. ستكون عطلة نهاية أسبوع ممتعة في الركض في الممر، والتناوب بين غرف النوم، لتفادي اكتشاف أمه لهما في الغرفة نفسها. لا يمانع معارضتهم في مسائل مهمة، ولطالما فعل ذلك، لكنه لا يريد إحداث الجلبة الآن، وجعلهم يتخذون آراء خاطئة بشأن فرانشيسكا. أمل في أن يستلطفوها، إذا أمكن، ويتخلوا عن رأيهم السلبي في عيشه في منزلها. أرادهم أن يروا كم هي إنسانة طيبة، وكم هي لطيفة مع إيان.

توقعت فرانشيسكا أن تقوم والدة كريس بفحص الغرف، وخشيت أن تفعل ذلك. أحضرت لهم قنينة شراب، وتساءلت ما إذا كانت هدية كفاية لعطلة نهاية أسبوع كاملة. يجدر بها ربما إرسال الأزهار بدل ذلك. إنهم محافظون جداً، وخشيت أن ترتكب خطأ ما. ما من شيء فيهم جعلها تشعر بالارتياح. وكانت أمه مهذبة وإنما غير لطيفة الليلة السابقة.

تناول كريس الفطور مع أمه، ثم عاد ليجد فرانشيسكا وهي ترتدي ملابسها تناولت الفطور في غرفة الطعام مع مجموعة متنوعة من المدعوين في تمام الثامنة والنصف ووجدت نفسها تجلس قرب هيلاري، أخت كريس، التي كانت مشغولة جداً في الاهتمام بولديها التوأم، البالغين من العمر أربع سنوات، أكثر من الاهتمام بإلقاء التحية عليها. سوف يذهبون جميعاً إلى دار العبادة في الساعة العاشرة، وقال كريس إنها ستكون فكرة جيدة إذا ذهبت. لم تعارض، لكن بدا جلياً أن هؤلاء الأشخاص معتادون على فعل كل شيء مجتمعين. هذا أشبه بمدرسة عسكرية، أو مخيم. وبدا كريس صارماً هنا أكثر مما هو في نيويورك. يفترض بكل الرجال أن يذهبوا معاً للعب الغولف بعد الظهر، لكن كريس قال إنهم لن يذهبوا إذا تساقط الثلج. وفي الصيف،

يلعبون كرة القدم في الفينيارد. ثمة جوائز لأحداث رياضية مختلفة في كل أرجاء المنزل. أحد أقاربه فاز بميدالية ذهبية في الألعاب الأولمبية. وكان أخوه قائد فريق التجذيف في هارفارد. التقت به فرانشيسكا بعد الفطور، ونظر إليها وألقى عليها تحية مهذبة جداً. إنه أكبر من كريس بأربع سنوات، وينوي الترشح إلى مقعد في الكونغرس السنة المقبلة. عرّف فرانشيسكا إلى زوجته، ثم صعدوا إلى الأعلى لارتداء ملابسهم استعداداً للذهاب إلى دار العبادة. بدوا جميعاً مختلفين جداً عن كريس. بدوا أشخاصاً تنافسيين جداً بالنسبة إليها. رياضة التنس مهمة جداً بالنسبة إليهم، وكذلك كرة القدم. إلا أنها تفهم فقط في الفنون، وليس الرياضة. بالكاد استطاعت المشاركة في الحديث أثناء الفطور، وبالكاد تحدثت. لاحظ كريس كم هي متوترة عندما رآها بعد ذلك. ارتدت سروالاً جلدياً أسود وكنزة سوداء. كل النساء الأخريات ارتدين كنزات رسمية وتنانير مثناة، غير قصيرة البتة. لا تملك فرانشيسكا تنورة مثناة، من أي طول كان.

جلست قرب والدة كريس في دار العبادة، فيما جلس كريس قربها وإيان بينهما. جلس إخوته وعائلاتهم على الجانبين. أحست أن أمه تستطيع أن تحزر إذا كانت تصلي أم لا، أو تتظاهر بذلك، كما لو أنها تملك رؤية بأشعة إكس. بدلت فرانشيسكا ملابسها وارتدت بذلة سوداء رسمية إلى دار العبادة، وشعرت أنها أفرطت في ارتداء الملابس الرسمية. ارتدت أمه طقم كنزة باللون الكحلي وتنورة رمادية. لم تجد فرانشيسكا أية ملابس ملائمة بين كل تلك التي أحضرتها. يملكون أسلوباً رسمياً وإنما رياضياً. إلا أن أمه كانت مهذبة جداً وودودة جداً. بدا أقاربه لطفاء، ووالده ظريفاً جداً. كان أخوه وأخته بعيدين، وإنما ودودين. جدّه كان حاكم ماساتشوستس. إنهم مهمون جداً. لم تتخيل نفسها وهي تخبر أياً منهم أن أمها تزوجت خمس مرات. لكان أغمي حتماً على أمه. تزوج والداه قبل أربعة وأربعين عاماً، ولا يزالان. أدركت فرانشيسكا أن هؤلاء الأشخاص هم من الأرستقراطيين الأميركيين العتيقي الطراز. إنه عالم مغلق، وكريس هو الوحيد الذي بدا مختلفاً. إنهم التحديد الدقيق للطراز القديم.

التواجد هنا مسبب للتوتر، لكن بحلول بعد الظهر، بدأت فرانشيسكا تسترخي. ذهب العديد من الأشخاص للعب التنس في ناديهم الخاص، أو السكواش. أرسل الأولاد للعب في مكان ما. تساقط الثلج، وبالتالي لم يلعب أحد الغولف، ويفترض بهم النزول إلى الأسفل لتناول المشروبات في تمام السادسة والنصف. سيتم تقديم العشاء في السابعة والنصف، وبما أنها ليلة الكرسمس، فإن الحدث رسمي بامتياز. سوف يتناول الأولاد طعامهم على طاولة منفصلة في الردهة، فيما يجلس الكبار في غرفة الطعام الرسمية. ثم يذهبون إلى دار العبادة في الحادية عشرة والنصف لحضور احتفال منتصف الليل. قالت أمه إن هذا اختياري، وقال كريس إن هذا يعني أنه عليها الذهاب إلى هناك تحت طائلة عقوبة الموت. ما من شيء قاله لها كريس قبلاً جعلها مستعدة لهؤلاء الأشخاص. إنهم الركيزة الصلبة للمؤسسة. لا يملك كريس أي شيء من صرامتهم، لكن هذه هي أصوله. خشي كثيراً أن يخيفوها. واستمر في مراقبتها بحثاً عن علامات الذعر، لكنه لم يرَ أياً منها. فما لاحظته أنهم غير ودودين البتة. يتصرفون بتهذيب فائق مع الجميع. إنهم لطفاء مع الأولاد أثناء وجودهم حولهم، لكن لا يوجد أي دليل على العاطفة أو الحنان. فما من أحد يضحك، وما من أحد يعانق، وما من نقاشات عائلية. إنهم جميعاً أذكياء ومهذبون جداً، وشعرت فرانشيسكا بالحزن عند مراقبتهم جميعاً، ولاسيما على كريس. فما ينقص حسب كل ما رأته هو الحب.

كانت فرانشيسكا في غرفة الجلوس في تمام الثامنة والنصف في فستان أسود فخم، بدا رزيناً كفاية، مع حذاء عالٍ جداً، وحقيبة سهرة لماعة جداً، مزينة بحجارة الراين، أعطتها لها أمها بمثابة هدية من باريس. ربطت شعرها على شكل كعكة، مما بدا مناسباً. ارتدت أمه فستاناً أسود بياقة عالية وكمين طويلين، مع اللآلئ العادية التي تضعها مع كل شيء تقريباً، وتساءلت فرانشيسكا إذا كانت تنزعها عندما تنام أم لا. غرابة أمهما معاً جعلتها تختنق تقريباً.

سألتها أمه أثناء تناول المشروبات: "كيف التقيت أنت وكريس؟". لم تعرف فرانشيسكا ماذا تقول لها. *إنه يعيش في منزلي* ليس بالجواب الملائم. *أنا صاحبة المنزل حيث هو مستأجر... أنا أدير منزلاً للإيجار... في دار العبادة!* لم تعثر على جواب ملائم. حذرها كريس بألا تقول أنها تعيش في 44 شارع تشارلز معه.

"التقينا عبر أصدقاء". كان كريس يصغي، وجاء للمساعدة. وجهت له فرانشيسكا شكراً صامتاً. خافت باستمرار أن تفعل أو تقول شيئاً خاطئاً.

سألها والد كريس عن طبيعة عمل والدها، وقالت إنه فنان. ذكرت اسمه، فتأثروا بذلك، وشعرت بالارتياح. وذكرت أن أمها في غستاد لتمضية الكريسمس. بدوا مصدومين قليلاً بذلك. لا بأس في وجود والدها في صان فالي. يعرفون المكان ويحبونه. إلا أن منتجع تزلج في أوروبا بدا جريئاً جداً بالنسبة إلى أمه.

قال لها أحد أقاربه همساً أثناء توجههما إلى العشاء: "الطريقة الوحيدة لعبور هذه الحفلات هي الشرب حتى الثمالة والابتسام على الدوام"، وضحكت. إنه اقتراح مغرٍ جداً، لكنها لا تجرؤ على ذلك. فلا بد من التحلي باليقظة للإجابة عن أسئلتهم. أرادوا أن يعرفوا أين ترعرعت، وإلى أية مدرسة ذهبت، وما إذا ذهبت إلى مدرسة داخلية، وما إذا تزوجت قبلاً، ولم تنجب الأولاد طبعاً، وأين تمضي فصول الصيف؟ ماين كانت جيدة. إدارة معرض فني محط تساؤل، لكن بما أن والدها فنان، يمكن مسامحتها على ذلك. تحدث إليه أخوه وأخته بين الحين والآخر. شعرت أنها كانت تلعب التنس طوال الليل عندما أنهوا العشاء، وانهارت في غرفتها لدقيقة قبل أن يذهبوا إلى دار العبادة مجدداً. إنهم مؤثرون أكثر مما توقعت، والتواجد معهم وجهاً لوجه كان محفوفاً بالمخاطر أكثر مما تخيلت. خصوصاً أمه. فكرة وجود أمه معها في الغرفة نفسها جعلتها تشعر بالإغماء. إنه مفهوم مخيف جداً يعني أنه إذا تزوجت منه يوماً، عليهما الذهاب دون حفلة. فلا مجال أبداً لوجود عائلتها وعائلته تحت سقف واحد، فماذا إذاً عن الزفاف. وحدها أفيري كانت لتنجح

في الامتحان. والدها غير تقليدي البتة. لم يذهب إلى هارفارد، ويكره الرياضة، ولا يعرف أي شيء عن كرة القدم. ولا مجال أبداً لتعريف أمها على هذه المجموعة المتحفظة جداً. إنهم أنقياء وأتقياء ومتزمتون ورياضيون إلى أقصى الحدود. وكانوا ناجحين واجتماعيين ومهمين جداً. لا يوجد أي متمرد في المجموعة، باستثناء كريس، الذي كان ملتزماً بمعاييرهم وليس بمعايير أحد آخر.

انفجر كريس في الضحك عندما رآها ممددة على سريرها قبل الذهاب إلى دار العبادة، وبدت كأنها ركضت سباق ماراثون، ومنهكة. بسطت على سريرها عشر قطع مختلفة من الملابس للأحداث المرتقبة.

مازحها قائلاً: "ألم تستمتعي بعد؟ لا تكترثي لأمي. يمكنك أن تفعلي ما تشائين. كل ما عليك فعله هو الوصول إلى وجبات الطعام في الأوقات المحددة وعدم إزعاجها بشكل جدي".

"إنها أمك. لا أريد إهانتها". لا تتخيل فرانشيسكا نفسها وهي تحصل على رضى أمه.

"من الفظ طرح هذا العدد من الأسئلة على الناس. يجدر بها القلق بشأن إهانتك. باشري في توجيه الأسئلة إليها. مثل المدرسة التي ذهبت إليها. تحب ذلك. ذهبت إلى فاسار عندما كانت تلك المدرسة مخصصة للفتيات فقط. إنها فخورة جداً بذلك". إنه مدخل سهل لبدء حديث معها.

قالت فرانشيسكا بتعاسة: "لم أذهب قبلاً إلى دار العبادة مرتين في اليوم الواحد".

قال، وهو يسحبها من السرير: "هذا مفيد لك. نقاط جيدة في سجل أعمالك الحسنة. بالمناسبة، أنا آسف لفعل هذا بك، لكن الوقت حان للذهاب إلى دار العبادة. سوف يذهب عشرون واحداً منهم إلى احتفال منتصف الليل. لم تستطع فرانشيسكا تذكر أسمائهم أو من يكونون، باستثناء أخيه وأخته، اللذين لا تملك أي شيء مشترك معهما. إنهما حسنا المظهر فقط بالنسبة إليها. الشخص الوحيد المميز بنظرها هو كريس. كانت تغضب عليه

لأنه أحضرها إلى هنا، لكن بقاءها في المنزل في نيويورك كان سيشعرها بالاكتئاب أيضاً، وهي تحبه. لذا، ها هي، في طريقها إلى دار العبادة مجدداً، للمرة الثانية هذا اليوم. لا شك في أن والدها كان ليضحك، وحتى أمها كانت تسلّت. تاليا لم تذهب حتى إلى دار العبادة في زيجاتها الثلاث الأخيرة.

نامت فرانشيسكا قليلاً في دار العبادة أثناء الاحتفال. بعد ذلك، عادوا جميعاً إلى المنزل، وخلد الجميع إلى النوم لحسن الحظ. شرطة الآداب المتمثلة في أمه تمنت ليلة سعيدة، وذهبت إلى غرفتها بعدما تمنت للجميع أياماً مجيدة. لاحظت فرانشيسكا أن أحداً لم يقبّل الآخر، وتصافح الآباء والأبناء. لا عناق في هذه المجموعة.

جاء كريس إلى غرفة فرانشيسكا بعد نصف ساعة. إنها في الخامسة والثلاثين، وشعرت أنها في الرابعة عشرة ومثل مراهقة منحرفة. خافت أن تنتهي في مركز الإصلاحية، أو مركز الاحتجاز، أو السجن.

تمنى لها أياماً مجيدة ثم قبّلها وأعطاها علبة حملها لها في سترته. كانت علبة طويلة ونحيلة من تيفاني، وحين فتحتها، رأت أمامها سواراً ذهبياً مع قلوب فيه. وضعته في معصمها وقبّلته. أحضرت له وشاحاً من الكشمير وأحبه أيضاً.

شعرت بالارتياح لأنه ما زال أمامها يومان فقط. لكن اليوم التالي أفضل لأنه الكرسمس. هناك فتح الهدايا، ووليمة طعام كبيرة، بحيث جرى تجهيز الطاولة لثلاثين شخصاً، على أن يجلس الأولاد على طاولة في الردهة مجدداً، والفتيات في فساتين مخملية. أقيمت مباراة لكرة القدم اللمسية خارجاً على الأرض الجليدية، لكنها أعفيت منها لأنها فتاة. ثم شربوا جميعاً المشروبات الساخنة وجلسوا قرب الموقد. لعبت والدة كريس البريدج مع زوجها وابنتها وواحدة من بنات أخيها. وجلس كريس معها قرب الموقد. كان إيان يلعب في الأعلى في مكان ما مع بقية الأولاد. وفي منتصف الليل، عادت إلى الغرفة مع كريس. ما زال أمامها يوم واحد فقط، ثم يستطيعون المغادرة. تتحرق شوقاً لذلك.

"هل تستمتعين؟".

كذبت قائلة: "نعم، لكنني خائفة طوال الوقت من ارتكاب خطأ ما. أشعر كأني فتاة صغيرة". هذه هي الحقيقة.

"تجاهليهم. يظنون أنهم صنعوا العالم، لكنهم لم يفعلوا ذلك. لهذا السبب، آتي إليهم مرتين فقط في السنة. والأمور أفضل في الفينيارد. الجو أكثر استرخاء". كان مدركاً تماماً أن عائلته تستطيع جعل معظم الأشخاص مجانين. يفرطون في تعظيم أي شيء يفعلونه، ويتوقعون من الجميع أن يكونوا هكذا أيضاً، وأن يلتزموا بقوانينهم. لم يفعل ذلك منذ أعوام عدة، إلا أنه لم يعد يتصادم معهم بسبب ذلك. يعيش فقط حياته الخاصة، مثلما فعل دوماً. لكنه يحب المجيء إلى هنا في الكرسمس، مع كل التقاليد، وشعر بالامتنان لأنها جاءت معه. عرف أن هذا ليس سهلاً عليها، أن تكون دوماً محط مراقبة. لقد اعترف لها أصلاً أن عائلته تعيش في عالم منغلق، حيث الجميع متشابهون وكل القطع تتطابق مع بعضها. أما هي فتأتي من عالم حيث لا انسجام فيه، لا أمها ولا أبوها. الأولى فاضحة والآخر فني ومتطرف. لكنها عرفت هي وكريس أنهما شخصان مستقلان عن أفكار أهلهما وحياتهما.

قالت فرانشيسكا بحزن: "ستصاب أمك بسكتة إذا التقت بوالديّ ذات يوم".

وافقها الرأي. "نعم، صحيح. لكن ما الفرق؟ أنا لا أوافق على والديّ أيضاً. إنهما يعيشان حياة محدودة جداً ويضجرانني كثيراً". على الأقل، يوافقها الرأي في ذلك، لكنها لا تريد أن تكون فظة بشأن والديه. فهما شخصان محترمان ومرتبان. إلا أنها لم تشعر بالارتياح معهما. لا تنسجم معهما. ولكن كريس لا يفعل ذلك أيضاً. ارتاحت لذلك.

نام في سريرها مجدداً تلك الليلة، وتركها قبل السابعة، وتناول الفطور مع أمه مجدداً. إنه اليوم التالي للكرسمس، وشعر الجميع باسترخاء أكبر، حتى أمه. وهذه المرة، لا حاجة للذهاب إلى دار العبادة. لعب الجميع التنس

والسكواش مجدداً، مما بدا طقساً يومياً لهم. لم يكن بوسع فرانشيسكا تذكّر اسم أحد، وشعرت كأنها مصابة بالخرف. إنها *الفرانشيسكا* الوحيدة في المجموعة. كل الرجال اسمهم كريس أو بوب أو ويليام، وهناك خمسة على الأقل يحملون الاسم نفسه. النساء كنّ إليزابيث وهيلين وبروك. والدته اسمها إليزابيث مع عدد لامتناهٍ من الحفيدات من كل الأعمار اللواتي يحملن اسمها.

الوحيد الذي بدا مستمتعاً هو إيان. فقد أحب أقاربه واستاء من المغادرة. تناول كريس فطوراً أخيراً مع أمه يوم مغادرتهم. أوصلهم والده إلى المطار وقال إنه أحب التعرف إلى فرانشيسكا، وشعرت كأنها كانت في الفضاء لثلاثة أيام. هذا أغرب كرسمس في حياتها، وبالرغم من ذلك، ما زالت تحبه، لكنها تتحرق شوقاً للعودة إلى نيويورك والاسترخاء. أرادت الصراخ فرحاً لحظة وصلوا إلى المنزل. مضى على وصولهم عشر دقائق حين اتصلت بها أمها من غستاد.

قالت: "أتمنى أنك أمضيت كرسمس سعيداً. التقيت بالرجل الأكثر جاذبية خلال عشاء ليلة الكرسمس. إنه يعيش في نيويورك، وهو سويسري. إنه مصرفي وسيدعوني إلى العشاء ما إن نعود". أحست فرانشيسكا أن أمها تبتسم ابتسامة عريضة، وكادت تزمجر. بدا أن الرقم ستة وصل أخيراً. *انتظروا حتى يسمع أهل كريس بذلك*.

قالت لها فرانشيسكا: "لا تستعجلي أي شيء". لكن لا مجال لوقف أمها حين ترى أمامها زوجاً محتملاً. وهي لم ترَ واحداً منذ زمن بعيد جداً، حسب قولها. ولا ضير أبداً في التجربة.

"طبعاً لا. إنه مجرد عشاء، بالله عليك، وليس زواجاً".

قالت فرانشيسكا: "هذا منعش" وضحكت أمها.

"أنت لا تثقين بي، أليس كذلك؟".

"لا. تصورت أنك ستجدين الرقم ستة في يوم من هذه الأيام".

سألتها أمها: "وما المشكلة في ذلك إذا كان هذا يجعلني سعيدة؟" ولم تجب فرانشيسكا لبرهة فيما فكّرت في الأمر.

"أنت محقة فعلاً. في هذه المرحلة، لن يحدث الأمر فرقاً كبيراً. خمسة، ستة، وإذا كنت سعيدة، لا تهتمي أبداً لرأي الغير". لقد أمضت ثلاثة أيام مع أكثر أشخاص محافظين ومملين على وجه الأرض، وهم أكثر إزعاجاً وغرابة من أمها. على الأقل، تملك أمها بعض المرح والأناقة. قالت، وهي تضحك: "اذهبي ماما. افعلي ما يجعلك سعيدة. لكن إذا رميت لي باقتك في زفافك التالي، سأقتلك".

"حسناً، عزيزتي. أراك حين أعود. قد أتوقف في باريس أولاً". عندما أنهت فرانشيسكا المكالمة، كان كريس ينظر إليها. شعر بالامتنان لأنها ذهبت إلى بوسطن معه وتحلت بروح رياضية. قال والداه إنهما استلطفاها.

أخبرته ببديهية: "أمي مجنونة. لكني أعتقد أني أصبحت أحبها بهذه الطريقة". إنها طريقة جديدة تماماً للنظر إلى الأمور، وأدركت أن هذا يعني ربما نضوجها وقبولها بأمها على حالها. إنها سابقة بالنسبة إلى فرانشيسكا.

صعدوا إلى الأعلى إلى السرير تلك الليلة، ولم تكن فرانشيسكا يوماً أكثر سعادة في سريرها، فيما كريس مستلق قربها. ليست مضطرة للإجابة عن أسئلة أي كان. لا حاجة لأن يقفز من السرير ويركض في الممر عائداً إلى غرفته قبل السابعة، وليست مضطرة لإرضاء رأي الجميع في مظهرها ولباسها وقولها. إنها بشخصيتها الخاصة، حتى لو لم تنسجم معهم. إنها هنا في منزلها وعالمها. وكانت سعيدة تماماً في عالمها الصغير مع كريس قربها في سرواله الداخلي وقميصه القطني، وإيان النائم في الأعلى. وكانت حياة جميلة جداً يتشاركونها معاً.

الفصل الرابع والعشرون

في الدقيقة الأخيرة، ولعدم وجود أي شيء آخر لفعله، قرر كريس وفرانشيسكا الذهاب إلى فيرمونت مع إيان لتمضية عطلة رأس السنة واستخدام منزل ماريا هناك. لا يوجد من يهتم بإيان بعد مغادرة ماريا، وفرحا بوجوده معهما في عطلة نهاية أسبوع عائلية.

أحبا وجودهما مع بعضهما، علماً أن زحمة الحفلات في المدينة لا تروق لأي منهما. تلقى دعوات إلى بعض الحفلات، وكذلك هي. إلا أن التواجد في فيرمونت بدا طريقة أجمل لتمضية عطلة رأس السنة، ولذلك توجهوا إلى فيرمونت في اليوم السابق لليلة رأس السنة.

ذهبت فرانشيسكا إلى المتجر حين وصلوا إلى هناك واشترت الطعام لهم. أشعل كريس الموقد في غرفة الجلوس، وأحضر إيان معه أقراص دي. في. دي. وألعاباً ليتسلى بها. بدت الطريقة المثالية لتمضية العطلة مع بعضهم. وبدا الأمر مثل بطاقة معايدة حين استيقظوا في صباح ليلة رأس السنة. كان الثلج يتساقط. تمنت فرانشيسكا لو أن ماريا تكون هنا معهم. لكنها في كورشفيل في الألب مع تشارلز إدوار وأصدقائه. تلقت فرانشيسكا منها عدداً من الرسائل الإلكترونية وبدت سعيدة.

لعب كريس وفرانشيسكا لعبة المونوبولي مع إيان تلك الليلة. ثم لعبا مع بعضهما لعبة السكرابل، ولعبة صيد السمك مع إيان. ناموا حتى وقت متأخر في الصباح، ثم لعبوا بالثلج. حضروا رجل ثلج وتراشقوا بكرات الثلج، وذهبوا للتزلج في بحيرة مجاورة مجلدة، رغم قلق فرانشيسكا على إيان. لا تريده أن يسقط على الجليد، لكنه لم يفعل. تناولوا المارشمالو وحضروا الحلوى. فعلوا

كل الأشياء التي يحبونها هم الثلاثة، ولاسيما مع بعضهم البعض. إنها عطلة نهاية أسبوع مثالية.

سمعت فرانشيسكا هاتفها الخلوي يرنّ في اليوم التالي لرأس السنة، وكانت كسولة جداً لتجيب. نهضت أخيراً وأجابت، وهي منزعجة لأن الهاتف لم يتوقف عن الرنين. تم تحويل الاتصال إلى المجيب الصوتي مرتين، لكنهم عاودوا الاتصال. رفعت أخيراً فرانشيسكا الهاتف وفرحت لأنها فعلت ذلك. إنها ماريا تتصل من باريس.

قالت فرانشيسكا بسعادة: "احزري أين نحن. في فيرمونت. الثلج يتساقط هنا منذ يومين والجو رائع". كانا ينامان في غرفة ماريا، وإيان في غرفة الضيوف المشتملة على سرير كبير رباعي الأعمدة، مثلما اقترحت ماريا حين جاؤوا آخر مرة إلى هنا معها. "سنة مباركة". افترضت أن هذا هو سبب اتصال ماريا. "كيف باريس؟".

"جميلة. تساقط الثلج هنا البارحة أيضاً. أعتقد أننا عثرنا على شقة في شارع فارين". إنه بالضبط المكان الذي أرادا العيش فيه، في الدائرة السابعة. "تفاوض تشارلز إدوار على الموضوع طوال الأسبوع". ترددت لبرهة، ثم تابعت القول. "أريد إخبارك بأمر ما". انتظرت فرانشيسكا، واشتاقت إليها كثيراً. "لقد تزوجنا البارحة. نحن الاثنان فقط مع بعض الأصدقاء. وصل طلاقه قبل الكرسمس. كانت الأوراق هنا عندما وصلنا. أشعر أني مجنونة قليلاً، لكني مسرورة لأننا فعلنا ذلك. وإذا خانني يوماً، سأقتله". ضحكتا، وأمسك تشارلز إدوار الهاتف بعد دقيقة، فهنأتهما فرانشيسكا. من المذهل كيف يتدخل القدر وتتغيّر الحياة. ظنت ماريا أنها ستبقى وحيدة طوال العمر، ثم تركته زوجته وتغير كل شيء. والآن، تزوجا بعد مرور خمسة أشهر. قبل عام واحد، لم تحلم بأن هذا يمكن أن يحصل.

قالت فرانشيسكا: "أنا سعيدة بكما". كانت تقصد ذلك فعلاً، وابتسم كريس ابتسامة عريضة. كانا سعيدين، وهما يستحقان ذلك فعلاً.

قالت ماريا بحزن: "تمنيت لو كنتِ هنا" وتمنت فرانشيسكا الشيء نفسه أيضاً. إنه زفاف كانت تودّ حضوره، مع شخصين يعنيان لها الكثير. كانت لا تزال تبتسم هي وكريس عندما أنهت المكالمة، بعد التحدث إليهما لبضع دقائق إضافية.

استلقيا في السرير بعد ذلك، وتحدثا عن الأمر، وكم كانا سعيدين لأجلهما.

سألها كريس: "ونحن متى سنفعل ذلك؟". لم تجب فرانشيسكا.

"لا أعرف. ولمَ العجلة؟ الأمور جيدة هكذا". إنهما يتواعدان منذ أربعة أشهر فقط.

قال: "أفضّل إذا كنا متزوجين. لن تصبحي مثل أمك إذا فعلت ذلك"، وضحكت بصوت عالٍ.

اعترفت قائلة: "ربما هذا صحيح. فأنا لا أملك الطاقة لتحمل خمسة أزواج. وأنا واثقة من أنني لن أبحث عن السادس".

"ما رأيك في واحد فقط؟" لطالما اعتبرت هذا كثيراً جداً لها قبلاً. استدار صوبها، ونظر إليها، واتكأ على كتف واحد في السرير، وكان يبتسم. وهي أيضاً. للمرة الأولى، لم تشعر بالخوف حين فكرت في الأمر. ليست بحاجة إلى الزواج، لكنه ليس أمراً سيئاً جداً ربما، وقد يكون الأمر جميلاً لإيان.

قالت: "ربما" وابتسمت ابتسامة عريضة. هذا كل ما تستطيع قوله في الوقت الحاضر. فهي ليست أمها، أو ماريا. عليها إيجاد طريقها الخاص معه.

قالت بسعادة: "هذا يكفي الآن. أنا أقبل بذلك". قبّلها فيما استلقيا في السرير، ودخل إيان إلى الغرفة. سيعودون إلى نيويورك بعد الظهر. كانت ثلاثة أيام رائعة.

قال، وهو يبدو متحمساً: "دعونا نصنع رجل ثلج آخر" ونهضت فرانشيسكا من السرير. حضّرا رجلين ثلجيين لمرافقة الرجل الثلجي الذي صنعوه البارحة. هناك عائلة من رجال الثلج الآن، خارج نوافذ ماريا.

لوّح إيان لرجال الثلج عندما عادوا إلى نيويورك. وفي طريق العودة، كانت فرانشيسكا مسترخية ومرتاحة. سمعت مؤخراً أن تود سيتزوج في الربيع، لكنها لم تعد مستاءة من ذلك. أصبح لديها حياتها الخاصة بعيداً عنه. وكان كريس مثالياً لها. لقد عثرت القدر على غطائها، وكان غطاء مثالياً. كل ما كان عليها فعله هو العثور على الغطاء الصحيح.

وصلوا إلى نيويورك في وقت متأخر تلك الليلة بعد رحلة طويلة، وساعدت فرانشيسكا كريس في حمل الحقائب إلى المنزل بعدما نقل إيان إلى السرير، وهو نائم. نظرت حولها فيما وضعت الأغراض في الردهة. بدا المنزل هادئاً وفارغاً، وبدت متفاجئة فيما استدارت نحو كريس.

قالت بهدوء: "أريد بيع المنزل". بدا مذهولاً.

"هل أنت جادة؟ لماذا؟ فأنت تحبينه". عرفا كم تكافح بشدة للحفاظ عليه، حتى في الآونة الأخيرة. وقبل عام، قبلت العيش مع ثلاثة غرباء كي لا تخسره.

"أنا أحبه، أو كنت أحبه. أريد بداية جديدة لنا، انطلاقة جديدة، أرضية نظيفة...". كانت تفكر في تود وإيلين عندما قالت ذلك. "حصلت الكثير من الأمور هنا. هذا حمل كبير". أصبحت واثقة فجأة، واثقة مثلما كانت قبل عام حين أرادت الاحتفاظ به. ولم يعارضها كريس. لا يريدها فقط أن تبيع البيت إذا كانت تحبه وتريد البقاء فيه.

قال لها: "لماذا لا تنامين الآن وترين شعورك في الصباح؟" فأومأت برأسها، ثم صعدا إلى الأعلى إلى غرفة نومهما. كان إيان نائماً في غرفته.

قالت الشيء نفسه لكريس في اليوم التالي. نظرت إليه خلال الفطور بطريقة مصممة. "أريد بيعه. أنا واثقة".

أومأ برأسه. "حسناً. فلنعرضه للبيع".

قالت بحذر: "قد يحتاج إلى بعض الوقت حتى يتم بيعه. فهذا منزل قديم". وبعد ظهر ذلك اليوم، اتصلت بسمسار العقارات الذي استخدمته قبلاً،

اتفقا على سعر، ثم رفعت السعر قليلاً. سوف يعرضون المنزل للبيع في عطلة نهاية الأسبوع. اتصلت بأفيري وأخبرتها بمشاريعها.

"أظن أن هذه فكرة جيدة. أسعار السوق مرتفعة في الوقت الحاضر، ويفترض أن تبيعيه بسعر محترم. لم أشعر بالارتياح حيال ذلك المنزل منذ أن قتلت إيلين هناك، لكني لم أشأ قول ذلك لك".

"ليس للأمر علاقة بها. إنما يتعلّق بي. أعتقد أني نضجت. احتفظت به حين أردت ذلك. لكني أعتقد أني أريد حياة مع كريس. أصبح لتود حياة جديدة. أريد واحدة لي أنا أيضاً. أشعر أني أجرّ أربعمئة علبة قصدير خلفي. أريد أن أكون حرّة. ونحن بحاجة إلى شيء جديد". هذا منطقي بالنسبة إليها. أخبرتها عن السعر الذي عرضه عليها سمسار العقارات، وبدا منصفاً بالنسبة إلى أفيري أيضاً.

"لن تتخلي عن المعرض الفني، أليس كذلك؟" تساءلت أفيري إذا أرادت تجديد حياتها بالكامل، لكن فرانشيسكا أسرعت إلى الإجابة.

"طبعاً لا. لكني أشعر أني كبرت على هذا المنزل. إنه مثل الطوق حول عنقي. إنه ثقيل جداً في العديد من النواحي. إيلين، كلفة صيانته، قسط الرهن، الإصلاحات. إنه كبير جداً علينا من دون وجود أشخاص آخرين يعيشون فيه، ولا أريد فعل ذلك مجدداً. قد أشتري شقة أو منزلاً أصغر حجماً. يمكننا استئجار شقة لبعض الوقت".

اقترحت ماريا: "انتظري حتى تري متى ستبيعينه والمبلغ الذي ستحصلين عليه". كانت فرانشيسكا مستعدة تماماً لذلك، وفرح كريس. أحب فكرة العثور على شيء جديد معها.

تم فتح المنزل أمام المهتمين في عطلة نهاية الأسبوع، وتلقت عرضاً بعد أسبوعين. حصلت تقريباً على السعر الذي طلبته. وأخفت ما حصل هنا مع إيلين. لن يحدث ذلك أي فرق، لأن الأشخاص الذين أرادوه أحبوه. لديهم أربعة أولاد ويستطيعون تحمل كلفته. تحمست فرانشيسكا، وكذلك كريس. ما كان ليطلب منها أبداً أن تبيعه، وكان مستعداً لمساعدتها على الاحتفاظ به لو

أرادت ذلك، لكنه فرح لأنها أرادت الانتقال. وأحب فكرة الانطلاقة الجديدة لهما. أرادت حياة جديدة تماماً تخصهما وحدهما.

يفترض أن يتم إغلاق المنزل في الخامس عشر من شهر مارس. ويوم الرابع عشر من شباط، وجدا شقة للإيجار أحباها وكانت بالحجم المناسب، وانتقلوا للعيش فيها بعد أسبوعين. تتحرك الأمور بسرعة، وأنبأها ذلك أن كل الأمور على ما يرام. والعائلة التي اشترت المنزل تحمست لمنزلها الجديد. إنها نعمة لجميع المعنيين، وخصوصاً لإيان وفرانشيسكا وكريس. يملكون منزلاً جميلاً، وباتوا عائلة جديدة، وحياة جديدة.

في اليوم التالي لانتقالهم، ذهبت فرانشيسكا إلى المنزل لإغلاقه. انتظرها كريس وإيان في الشقة الجديدة، لكنها أرادت تشغيل جهاز الإنذار وإقفال الأبواب في شارع تشارلز بنفسها. سوف تأتي شركة لتنظيف المكان وتحضيره للسكان الجدد. تدبر سمسار العقارات ذلك، ولا حاجة إلى أن تكون فرانشيسكا موجودة. لكنها أرادت وداع المنزل.

تنقلت من غرفة إلى أخرى وتذكرت الأوقات الجميلة التي عاشوها هنا، والأوقات السيئة. لم تصعد إلى الأعلى إلى غرفة إيلين، التي باتت الآن مفتوحة وفارغة. لكنها دخلت إلى كل الأمكنة الأخرى. ابتسمت وهي تقف في المطبخ، تذكرت كل الأوقات والوجبات الرائعة مع تشارلز إدوار وماريا.

أدى المنزل مهمته في وقته، وكان كريس محقاً. لقد أحبته، ولا يزال جزء منها يحبه وستحبه إلى الأبد. لكن مثلما يحصل مع الأشخاص، الذين يجدر بك التخلي عنهم أحياناً، يصح الشيء نفسه على المنازل. إنها مسألة توقيت لا أكثر، والأشخاص الذين ينتمون إلى حياتك. سوف تتخلى الآن عن هذا المنزل. وقفت أمام الردهة الأمامية للمرة الأخيرة، ونظرت خلفها فيما ضبطت جهاز الإنذار. ضغطت على الأرقام وأقفلت الباب. همست وداعاً ونزلت السلالم مسرعة، واستقلت سيارة أجرة إلى حيث ينتظرها كريس وإيان. إنها حياة جديدة تماماً مع أشخاص يحبونها وتحبهم.

فاحت رائحة لذيذة من الشقة عندما دخلت. حضّر لها إيان البسكويت.

قال إيان، وهو يبدو متحمساً: "انظري ماذا حضّرت لك". إنها قطع بسكويت لمناسبة سانت باتريك، ورش عليها رذاذاً أخضر اللون.

قالت: "تبدو لي مثل قطع بسكويت الحظ"، وانحنت لتقبيله، ثم قبّلت كريس. وقالت لهما معاً: "وأنا امرأة محظوظة جداً". لقد عثرت القدر على غطائها، تماماً مثلما قالت أفيري. ولم يتوجب عليها البحث كثيراً لإيجاده. لقد وجدها بنفسه. عرفت أنها كانت محقة حين أصرّت على الاحتفاظ بالمنزل. فلو لم تفعل، لما عثرت على كريس أبداً. سار كل شيء على ما يرام، إلا مع المسكينة إيلين. لكن لم يكن بوسعهم فعل أي شيء لإنقاذها. في بعض الأحيان، لا يسعك فعل أي شيء.

تناولت فرانشيسكا إحدى قطع البسكويت، ونظرت حولها. العلب متناثرة في كل مكان. هناك الكثير من الأغراض الواجب ترتيبها، والكثير من الأمور الواجب فعلها. من الجميل التواجد هنا. والأكثر جمالاً التواجد معهما. لقد وجدت فرانشيسكا أناسها ومكانها. ولم يعد في 44 شارع تشارلز. أصبح شارع تشارلز من وقت آخر، وحياة أخرى، وها هو الآن ملك عائلة ستحبه مثلما أحبته هي. 44 شارع تشارلز كان فصلاً من حياتها، وأكثر من مجرد منزل. انطوى ذلك الفصل. وبدأ فصل جديد.